

# شرف المقاومة

بقلم رئيسة التحرير:  
د. بثينة شعبان

ففي زمن اختلطت به المفاهيم، وتداخلت القيم، وركزت القوة العظمى في العالم على عمليات القهر العسكري، والسيطرة الإعلامية، والمعلوماتية، على شعوب الأرض، يعاني العرب جميعاً من تشويش في الرؤى والمفاهيم وتستجاذبهم رياح عاتية من الشرق والغرب تعصف بهم في مختلف الاتجاهات، دون أن يدركوا مستقراً أو يتيقنوا من نقطة الانطلاق والهدف المرتجى.

وفي الوقت الذي تمكنت به الانتفاضة الفلسطينية الباسلة من تغيير موازين القوى، وإثبات صوت من لا قدرة عسكرية لهم على الساحة الإقليمية تتخبط القيادات الفلسطينية في إجراء انتخابات، أو إصلاحات، تحت احتلال يعتمد سياسة الإبادة الجماعية، والتطهير العرقي، ويدعي الديمقراطية ويتظاهر أمام العالم بأنه الضحية.

ومنذ أحداث الحادي عشر من أيلول عمدت إسرائيل إلى ربط "الإرهاب" بالنضال الوطني الفلسطيني الهادف إلى تحرير الأرض والشعب من آخر احتلال على وجه الكرة الأرضية، وصاغت لنفسها

رسالة إعلامية واضحة ومختصرة، وهي أنها كالولايات المتحدة ضحية للعنف والإرهاب، اللذين يطالان أبناءها في المطاعم، والشوارع، وغيببت نتيجة لذلك أو على الأقل عملت جاهدة على تغييب حقيقتي الاحتلال والاستيطان واللذين هما أصل العنف في المنطقة، ومبعثه الأساسي. وأخذت تسمي خيرة الشباب الفلسطيني المقاوم والمناضل والمؤمن بعرويته إرهابيين، وتعتقلهم وتقتلهم وتدمر منازلهم على هذا الأساس وبهذه الذريعة.

والأعنى من ذلك، أن دولاً عربية، وفصائل فلسطينية، أخذت تعتد اجتماعات وتضع جداول أعمال للتوصل إلى اتفاق يوقف العنف ضد الإسرائيليين لمدة عام كي يسمحوا للمفاوضات السلمية بالانطلاق مؤكداً بهذا في نظر العالم على الأقل مقولة الاحتلال الاستيطاني العنصري: "إن الفلسطينيين إرهابيون، وعليهم وقف هجماتهم ضد إسرائيل"، كل هذا يحدث في الوقت الذي يستمر فيه شارون وحكومته العنصرية بقتل الأطفال الفلسطينيين وتدمير منازلهم، وتجريف أراضيهم الزراعية، واقتلاع أشجار الزيتون، واغتصاب أراضي قرى بكاملها لبناء الجدار العنصري الذي تقوم دولة الفصل العنصري بإشادته بعد أن سقطت جميع الأنظمة العنصرية في العالم ما عدا النظام العنصري الصهيوني.

كل هذا يحدث دون أن تتبلور استراتيجية عربية فكرية سياسية وإعلامية ترسل رسائل لا تقل وضوحاً للعالم نري من خلالها جرائم الحرب التي يرتكبها شارون يومياً ضد الشعب الفلسطيني، وتفرق أياً تفرق بين الإرهاب والمقاومة، وتوضح للعالم أن الفلسطينيين هم ضحايا الإرهاب الإسرائيلي وأنهم مناضلون من أجل الحرية والاستقلال ولابد لكل ذوي الضمائر الحرة في العالم من دعمهم تماماً كما دعموا تيلسون مانديلا وحركة التحرر في جنوب أفريقيا وجميع حركات التحرر

الأخرى في العالم. كل هذا يحدث دون أن يستثمر القادة الفلسطينيون دماء الشهداء التي تبدل سخية من أجل الأرض والشجر والكرامة، فهل يجوز أن يقبل أحد منطق العدو الذي يتهم الفلسطينيين بأنهم مصدر العنف والإرهاب في الوقت الذي يمارسون فيه أبشع أنواع حروب الإبادة ضد هذا الشعب الأمن، وبعد أن هدموا كل البنى التحتية الفلسطينية، وتكروا حتى للاتفاقات الجائرة والهزيلة التي عقدها مع الفلسطينيين.

لقد أثرت الانتفاضة الباسلة تأثيراً لم يسبق له مثيل على حياة العدو الصهيوني، واقتصاده، ومستقبله، وسمعته، في العالم، ولاشك أن لغة المقاومة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها هذا العدو، وينصاع لمتطلباتها، ولذلك ليس على القادة السياسيين سوى أن يتمتعوا بوضوح في الرؤية وبإيمان لا يتزعزع بهذا الشعب المقاوم الذي غير مفهوم الاستراتيجيات العسكرية للعالم برمته وأثبت أن الطفل الأعزل يمكنه أن يقاوم دبابه لا بل لقد شهدنا منظر الأطفال اليواثل يركضون وراء دبابه العدو، وهي تتسحب من أمامهم، ويرفعون علم فلسطين عليها. هؤلاء الأطفال الشجعان الذين يواجهون الموت، يتمتعون بوضوح في الرؤية، يفقهه قادتهم السياسيون، وهو أن هذه الأمة لن تموت، وأن أحداً لن يتمكن من التنازل عن حقوق الشعب الفلسطيني، طالما أن هذا الشعب أنجب، وما زال هؤلاء الأبطال الذين لا يهابون الموت ولا يحسبون حساباً لقوة عسكرية مهما كانت. بدلاً من أن يهني بعض القادة العرب ذلك المجرم الملتخه بداه بدماء الشعب الفلسطيني، وأن ينظروا أنه لابد من التعامل مع الواقع، وإعطاء شارون فرصة عليهم أن يتعاملوا مع واقع شعوبهم التي سبقتهم كرامة وعملاً وفهماً للحدث وأن يأخذوا ما تريده هذه الشعوب كواقع يجب التعامل معه، بدلاً من القفز عليه والإصغاء لما يريده سيد الكون منهم، وتنفيذه بحرفيته. على هؤلاء أن يدقوا بجرأة شعوبهم وسعيها من أجل الكرامة والحرية والاستقلال دون خوف أو

وجل وأن يرتقوا على الأقل إلى مستوى تلك الشعوب التي تذهب تضحياتها بثمن رخيص نتيجة عدم توفر القيادة السياسية التي حسمت خياراتها لصالح المقاومة والنضال حتى التحرير والاستقلال.

إن الشعب العربي سواء في لبنان، أو في فلسطين، لم يبخل بالتضحيات وقد تمكن بإمكانات بسيطة ومتواضعة من دحر الأعداء وتحرير جنوب لبنان، والشعب في فلسطين سجل أساطير النضال والمقاومة التي لفتت أنظار العالم لقضية الشعب الفلسطيني وضرورة إنصافه. وما تبقى اليوم هو أن ينجلي مفهوم المقاومة لدى بعض القادة العرب، وأن يتقوا بما تقدمه شعوبهم ويقدره حق قدره كي لا تتلاعب بخطواتهم السياسية الأيدي المغرضة والتي تخطط لإلحاق الهزيمة بإزادة هذا الشعب الذي لا يقهر. إن ما نحتاجه اليوم هو الوضوح في الرؤية والعمل بمقتضى هذه الرؤية التي تثبت دون أدنى ريب أن شرف المقاومة هو أعلى شرف وطني يحققه المواطن وأن المقاومة هي السبيل الوحيد لإنهاء الاحتلال والاستيطان، وتحرير الأرض، وإعادة الحياة في المدن الفلسطينية المحاصرة إلى نسغها الأصلي وإلى تاريخها المجيد وإلى زهوها وإشراقها. إننا في العالم العربي نمرّ بمرحلة تقدّم بها نضال الشعب ورؤيته على إيمان بعض القادة وعزيمتهم ولا شيء سوى استمرار المقاومة يمكن له أن يضع هذه المعادلة في نصابها السليم ويثبت رؤية الشعوب على أنها كانت وما زالت الأسلم والأبقى والأنجع. إن هذا الشعب الذي يسعى جاهداً ليكون جديراً بشرف المقاومة لن يموت ولن يهزم ولن يكتب له سوى التحرير والنصر والمستقبل المشرق.





# المقاومة الوطنية

■ د.ناديا خوست ■

أغرائنا بالتحضير لهذا العدد من الآداب الأجنبية، توهج المقاومة العربية في الأرض المحتلة، وما تثيره العلاقة بين حقيقة ترتفع حتى الأسطورة بحرارتها وسعتها، ومسألة استيحاءها في الأدب، وتنوع التعبير الأدبي عن المقاومة بما يناسب الأساليب الفنية التي ينتجها الزمن. كان الشعر وسيلة التعبير المعتمدة عن المقاومة الوطنية في أيام الاحتلال بعد الحرب العالمية الأولى. فحصدنا تراثاً شعرياً أصبح بعضه أناشيد صدمت في الوطن العربي، من "بلادي، بلادي بلادي، لك حبي وفؤادي" إلى "بلاد العرب أوطاني"، إلى "إذا الشعب يوماً أراد الحياة، لم يخطر لأحد أمام الحاجة التي عبر عنها الشعر، أن يفكر يوماً بموضوعة الاستزمام، أو بموضوعة الفن للفن. فترقق التعبير وروى الحاجة إلى الرد على تعالي المحتلين بالاعتداد بالتاريخ واللغة والعراقة، وبالتضحية في سبيل الوطن. ولم يمنع ذلك بوح الوجدان بحزن المنفى، والألم من فراق المحبين. وكأنما تجد المسائل الأدبية جوابها الصحيح عندما توضع وسط الظروف التي تنتج الأدب، وتستعقد كلما ابتعدت عن حقيقة أن الأدب تعبير عن الوجدان، منسوج في زمان ومكان.

تضع المقاومة الوطنية الفلسطينية اليوم، إذن، مسائل أدبية للبحث. ولا نحتاج إلى كثير من الموضوعية كي نتبين أن المقاومة في الأرض المحتلة تقدم بتضحياتها وبطولاتها شواهد لا سابق لها في تاريخ المقاومة الإنسانية، يقصر عن

بلاغتها أي تعبير أدبي عربي أو أجنبي، نجد حرارة التعاطف في تقارير الصحفيين الغربيين المتضامنين مع العرب. لكننا لا نجد بعد تعبيراً أدبياً يستطيع أن يلتقط خواطر جريح منع الجيش الإسرائيلي المحتل إسعافه فنزف حتى الموت، أو أن يؤدي عواطف طفلة تبحث عن دفاتها المدرسية وسط أنقاض بيتها المنسوف. قد يُكتب ذات يوم عن تلك المآسي والبطولات، عندما يبدأ القلب ويصفو الفكر وتتبدد الغازات السامة التي يرميها المحتلون على الشهود، فيستطيعون أن يصوغوا بنية أدبية ترسم بشراً عاشوا في الأرض المحتلة على خط دقيق بين الحياة والموت. لذلك رأينا أن يتصدر هذا العدد من مجلة الآداب الأجنبية نداء الروائي الإنساني غابرييل غارسيا ماركيز، الذي يجسد مأساة الصمت، والخوف من نفوذ الإعلام الصهيوني والمراكز الفكرية والسياسية الصهيونية في الغرب. نقدمها كشهادة على الضمير الحي، وعلى جرأة كاتب يعن موقفه متحدياً الحصار على كل من يمس عنصرية الصهيونية والاحتلال الإسرائيلي.

وبما أننا حضرنا هذا العدد من مجلة الآداب الأجنبية وسط هدير جاملات الطائرات، وضجة الحشد العسكري والإعلامي لغزو العراق، اقتطفنا مقطعاً مناسباً من كلمة المفكر الفرنسي الكبير جان جويس. أعلن جويس رأيه في الحرب، وتصدى للجو المحموم الذي واكب التحضير لها بالعواطف والهيجان. وسيتبين القارئ أن الحمى التي واجهها جويس تشبه الهيجان المجنون الذي يحضر وسطه غزو العراق اليوم. وسيذكره جويس بالمفكرين الأحرار الذين يكشفون أسباب الحرب الاستعمارية على العراق اليوم. اغتيل جان جويس في مطلع الحرب العالمية الأولى، ويبدو لنا اغتياله شاهداً على العنف الوحشي الذي يمارسه من يستندون إلى القوة ليخدموا الحقيقة ويمنعوا حوار العقل. ويذكر قتله بالاغتيالات التي يمارسها المحتلون الإسرائيليون، وبوحشية الدبابات التي تحاصر المدنيين العرب وتصفهم.

فصداً بأدب المقاومة، التعبير عن المقاومة الوطنية. لكننا، إلى ذلك أضفنا، بنشر استجواب الكاتب الروسي الكبير دستوفسكي، شكلاً آخر من المقاومة الإنسانية. لأن هذا الكاتب الذي التقط في مهارة صوت القرن الذي عاش فيه، تميز أيضاً بموقف مبكر جداً من الصهيونية. فكشف سيادة اليهود على المراكز المالية

والسياسية، واستغلالهم الفقراء الروس. وانتقد انتماء اليهودي الروسي إلى مشروع بعيد عن وطنه. وقد دفع أدب دوستوفسكي ثمن هذا الموقف حتى خمسينيات القرن الماضي، فحذفت من مؤلفاته أجوبته على الصهيونيين الروس، وسجن أكبر المختصين في أدبه.

قد لا نجد في الآداب العالمية أدباً عَزَّ عن المقاومة الوطنية كالآدب السوفييتي. من المقاومة في حرب التدخل إلى مقاومة الاحتلال النازي. اشترك الكتاب السوفييت في الحرب العالمية الثانية كمراسلين حربيين أو مقاومين قُرفوا أبطال رواياتهم ومناخ الحرب من قرب. وترجمت أكثر تلك المؤلفات إلى اللغة العربية.

لا يستطيع القارئ العربي أن ينسى تلك الأعمال التي سحرته بإتقانها الفني وبمأساة المقاومين وتضحيات الشعوب السوفيتية. يبرر لنا ذلك لماذا لم نترك لها مساحة واسعة. لكن لن يفوتنا أن نذكر بأن تلك الأعمال الأدبية رصدت أشكال المقاومة المتنوعة. أعدم النازيون زويا وغيرها من أبطال الأبطال، لأنهم نسفوا الجسور، وأحرقوا المطاعم، وفجروا المقاهي. كان ذلك "تخريباً" في رأي المحتلين. وبطولة وطنية في رأي أهل البلاد الذي شيدوا لأولئك المقاومين التماثيل والنصب بعد الانتصار على النازية. كان مشروع النازية يومذاك أن تحكم العالم بتفوقها العسكري، وأسست على التفوق بالقوة، تصنيف للشعوب والحق في رسم خرائط العالم ومصائر الشعوب. ولولا المقاومة الأوروبية التي خربت كل مكان سكن إليه المحتلون فأفقدتهم الأمان، لما كان الانتصار على النازية. لذلك نثبت في هذا العدد تعبيرين عن المقاومة الفرنسية، أحدهما عن العمل المسلح والثاني عن المقاطعة المدنية، في قصتين ننشرهما مترجمتين عن اللغة الفرنسية.

وعللنا بهذا أيضاً نعيد الحق للشعوب الأوروبية التي حملت مقاومة النازية، وانتصرت عليها، ويسلبها الإعلام الصهيوني اليوم أمجادها فيتجاهل عشرين مليون قتيل في الاتحاد السوفييتي وملايين الشهداء في أوروبا الغربية.

لن يفوتنا أن نذكر أن الوعي العربي والتسامح الرفيع جعل العرب يترجمون روايات المقاومة الفرنسية والروسية وقصائد الشعر المقاوم، ويحترمون مآثر المدافعين عن قلعة بريست، وقوات ديغول في النورماندي، وسمود لينينغراد

وستالينغراد. ويعجبون برواية الطلقة الواحدة والأربعين، وبرواية لمن تدق الأجراس، وتحست أعواد المشنقة. لأنهم كأحفاد حضارة قدمت للعالم العلوم والعمارة والفلسك والرياضيات والأرقام والأبجدية، يؤمنون بأن تراث المقاومة الإنسانية تراث عام تستقوي به الشعوب كلها.

ومن السخرية أن يدفع العرب ثمن تحرير أوروبا من النازية، فيفرض عليهم الرحيل من مدنهم وبيوتهم في فلسطين، وتدمر حوالي خمسمائة قرية عربية.

وبيين قرار التقسيم نفسه انتزاع مدن عربية كاملة من أهلها. وفي الوقت الذي كان العرب فيه يترجمون مآثر المقاومة الوطنية الأوروبية، كان ستار من العسمة ينزل على تهجير الشعب الفلسطيني من بيوته ومدنه ومزارعه، وعلى المقاومة العربية التي استندت إلى البطولة الفردية التي ما كانت لتزد جيشاً محتلاً منظملاً جهزه الانتداب وأمن له الخبرة والسلاح الحديث خلال الحرب العالمية الثانية.

اغتنى الأدب الإنساني بأدب المقاومة. فبدأ أن أجمل آثاره تلك التي تناولت مادتها من وهج ظروف استثنائية. يستنتج الناقد، في يسر، أن أدب المقاومة من جواهر الأدب العالمي. وكان الظروف غير العادية تقدم للكاتب إمكانية كشف القوى الخارقة والعواطف الغنية في الإنسان، وتدفع الكاتب إلى صياغة القضايا الكبرى، ورسم تداخل قرار الاختيار الشخصي والعام في ضوء الحياة والموت.

أصبحت قصيدة سيمونوف نشيداً وطنياً وجدانياً لصدقها وبساطتها وقوتها، ولرمزها إلى حاجة الجبهة في عمقها البشري: "انتظريني وسأعود، لكن انتظريني زمناً طويلاً.. انتظريني عندما لا ينتظر الذين نسوا الأمل أحداً". وما تزال روايات الحرس اللقي، ومصير إنسان، ولمن تفرع الأجراس تشر وتقرأ.

يواجه العرب اليوم العنصرية، وخطر القوة المسلحة الحالية بالسيادة على العالم. لذلك يستعيد هذا العدد من الآداب الأجنبية دفاع الشعوب عن أوطانها وسيادتها، ومقاومتها عنصرية المحتلين. معبراً عن إيماننا بأن المقاومة العربية المعاصرة وريثة المقاومة الوطنية الإنسانية، وأن المحتلين والحالمين بالسيطرة على العالم ورثة النازية المهزومة والإمبراطوريات الغارية.



# امنحوا شارون (( نوبل القتل )) بقلم: غابرييل غارسيا ماركيز

■ عن الأنترنت ■

شجبت الكتائب العالمي جابرييل غارسيا ماركيز، الحائز على جائزة نوبل للآداب، المجازر التي يرتكبها مجرم الحرب ارييل شارون ضد الشعب الفلسطيني، ورشحته لنيل جائزة نوبل في القتل. وأعرب ماركيز، في مقال نشرت "الرأي" الأردنية ترجمة له، عن إعجابه ببطولة الشعب الفلسطيني الذي يقاوم حرب الإبادة التي يتعرض لها، واعتبر أن حصول مناحيم بييجين على جائزة نوبل للسلام تكريماً لجرائمه بمثابة إحدى عجائب الدنيا. وتالياً نص ما كتبه ماركيز:

إنه لمن عجائب الدنيا حقاً أن ينال شخص، كمناحيم بييجين جائزة نوبل في السلام، تكريماً لسياسته الإجرامية التي تطورت في الواقع كثيراً خلال السنوات الماضية على يد مجموعة من أنجب تلاميذ المدرسة الصهيونية الحديثة، إلا أن الموضوعية تفرض أن نعترف بأن الذي تفوق على الجميع هو الطالب المجد ارييل شارون. وعلى أي حال، فإن فوز مناحيم بييجين بجائزة نوبل للسلام يظل من عجائب الدنيا حقاً، ولا يخفف من دهشتي القول إن الدنيا مليئة بالطرائف، إن هناك ما هو أغرب.

المهم أن هذا ما حدث، ولا طريقة الآن لتبديله، فاز مناحيم بيجين بجائزة نوبل للسلام لسنة 1978، مناصفة مع أنور السادات، رئيس جمهورية مصر في حينه، جاء ذلك كنوع من المكافأة على اتفاقية برامة أرست قواعد السلام من طرف واحد هو العربي.

الرجلان اقتسما الجائزة، لكن المصير اختلف من أحدهما إلى الآخر، الاتفاقية ترتب عليها في حالة أنور السادات انفجار بركان الغضب داخل جميع الدول العربية، فضلاً عن أنه، ذات صباح من أكتوبر 1981- دفع حياته ثمناً لها. أما بالنسبة لبيجين، فلقد كانت هذه الاتفاقية نفسها بمثابة الضوء الأخضر، ليستمر بوسائل مبتكرة في تحقيق المشروع الصهيوني الذي لا يزال حتى هذه اللحظة يمتضي قدماً. أعطته الجائزة أول الأمر الغطاء اللازم حتى يذبح- بسلام- ألفين من اللاجئين الفلسطينيين في المخيمات داخل بيروت سنة 1982.

المؤكد أن اتفاقيات كامب ديفيد، بالإضافة إلى جائزة نوبل للسلام، تجاوزت شخص مناحيم بيجين، لتشمل أنجب تلاميذ المدرسة الصهيونية الحديثة، خاصة ناظرها الجديد إرييل شارون. جائزة نوبل في السلام فتحت الطريق على مصراعيه لقطع خطوات متزايدة السرعة نحو إبادة الشعب الفلسطيني، كما أدت إلى بناء آلاف المستوطنات على الأرض الفلسطينية المغتصبة.

لن ننسى- نحن الذين نقاوم فقدان الذاكرة- الوعاء الفكري لممارسات النازية، ارتكز هتلر على نظرية المجال الحيوي لتحقيق مشروعه التوسعي باحتلال أرض الغير، وقد قال بيجين صراحة أن الأراضي المحتلة في 1967 هي ممتلكات يهودية ليس من حق أحد أن يطالب باستعادتها، الركيزة الثانية هي ما سماه الحل النهائي لمشكلة اليهود.

معسكرات الاعتقال سيئة السمعة كانت في نظره المخرج المناسب. إبادة جماعية، يولغ في سرد وقائعها لتبرير إبادة جماعية أخرى. أما حكاية الملايين الستة من اليهود ضحايا هتلر، فلقد انضمت إلى ترسانة الخرافات اليهودية، تمهيداً لإعادة ارتكابها من جديد تحت غطاء جائزة نوبل للسلام.

استندت نظرية المجال الحيوي الصهيونية إلى أن اليهود شعب بلا أرض،

وأن فلسطين أرض بلا شعب. هكذا قامت الدولة الإسرائيلية، غير المشروعة في 1948. فلما تبين أن هناك شعباً، وأن في فلسطين شعباً يسكن في أرضه، كان من الضروري حتى لا تكون النظرية مخطئة إبادة الشعب الفلسطيني، وهو ما يتم بصورة منهجية منذ أكثر من خمسين عاماً، لكن جائزة نوبل للسلام، بالإضافة إلى اتفاقية كامب ديفيد، اتخذت شكل الإذن الدولي بالقتل الذي لا يجرمه أحد. وقد تمكنت أجهزة الإعلام التي يسيطر عليها اليهود من إقناع البلهاء في الغرب بهذه الأكاذيب، مستثمرة عقدة الذنب عند القتل، فباركوا المزيد من المذابح، لولا أن العالم استيقظ فجأة على أن هناك شيئاً اسمه الشعب الفلسطيني. ولم يلفت الانتباه إليه تمثيله الدبلوماسي أو مشاركته في المحافل الدولية. ما لفت الانتباه إلى وجوده هو هذا الأئين الصادر عن شعب يتعرض للإبادة.

تهامس الجميع على استحياء، الظاهر أن هنا شعباً فلسطينياً، وأنه لسبب ما توارى عن الأعين طوال هذه السنوات، الشعب الفلسطيني بالفعل ظل مختبئاً في منطقة اسمها تجاهل الآخرين، اسمها ليل الضمير البشري، حسناً، ما العمل الآن؟ الحل عثرت عليه مجموعة من أنجب تلاميذ المدرسة الصهيونية الحديثة لتصبح فلسطين، تمشياً مع النظرية، أرضاً بلا شعب، وعلى الذين يتكاثرون كالآرانب ليقاوموا الفناء أن يبادوا بسلام.

وقد تصادف أن كنت في باريس، عندما ارتكب شارون - بغطاء من جائزة نوبل في السلام - مجازر صبرا وشاتيلا، قتل أثناء الغزو ثلاثين ألف فلسطيني أو لبناني، كما تصادف أن كنت في باريس عندما فرض الجنرال جاروزيلسكي سلطة العسكر ضد إرادة الأغلبية من شعب بولندا، أصابت الأزمة البولندية أوروبا بصدمة جعلتها تترنح من الغضب. أنا شخصياً قمت بالتوقيع على عدد كبير من البيانات التي تندد باغتيال الحرية في بولندا. كذلك، فقد شاركت في الاحتفالية التي أقيمت تكريماً لبطولة الشعب البولندي، بممرح (بيرادي بار) تحت رعاية وزارة الثقافة الفرنسية. وعلى العكس من ذلك تماماً ساد نوع من الصمت الرهيب عندما اجتاحت القوات الشارونية لبنان. علماً بأن أعداد القتلى أو المشردين هناك لا تسمح بأي مقارنة مع ما حدث في بولندا. ظهرت في الحال النظرية السوفييتية التي تدعو إلى الأخوة بين القوى العظمى على حساب أي شعب أو أي مذابح.

هناك بلا شك أصوات كثيرة على امتداد العالم تريد أن تعرب عن احتجاجها ضد هذه المجازر المستمرة حتى الآن، لولا الخوف من اتهامها بمعاداة السامية أو إعاقة الوفاق الدولي.

أنا لا أعرف هل هؤلاء يدركون أنهم هكذا يبيعون أرواحهم في مواجهة استنزاف رخيص لا يجب التصدي له بغير الاحتقار. لا أحد عالى في الحقيقة كالشعب الفلسطيني. فإلى متى نظل بلا ألسنة، ولم أجد من يومها من يدعوني إلى أي احتفال ببطولة الشعب الفلسطيني في أي مسرح تحت رعاية أي وزارة.

هكذا ما يدفعني الآن إلى التوقيع على هذا البيان بشكل منفرد، أنا أعلن عن استمزازي من المجازر التي ترتكبها يومياً المدرسة الصهيونية الحديثة، ولا يهمني رأي محترفي الشيوعية أو محترفي معاداة الشيوعية. أنا أطالب بترشيح ارييل شارون لجائزة نوبل في القتل، سامحوني إذا قلت أيضاً إنني أخجل من ارتباط اسمي بجائزة نوبل. أنا أعلن عن إعجابي غير المحدود ببطولة الشعب الفلسطيني الذي يقاوم الإبادة، على الرغم من إنكار العظمى الأعظم أو المتقنين الجبناء أو وسائل الإعلام أو حتى بعض العرب لوجوده.

بشكل منفرد، إذن، أنا أوقع على هذا البيان باسمي، جابريل جارسيا ماركيز.





## قصائد عن المقاومة

بقلم الشاعرة المولدوفية :

أنجيلا بورلاك

■ ترجمة نجيب المجلى ■

عن الروسية

سباتي الربيع

تناقلت وكالات الأنباء العالمية نبأ اعتداء الصهاينة المحتلين على كنيسة  
في بيت لحم وقتلوا كاهنها وجرحوا راهباتها... هذا النبأ أوحى للشاعرة بهذه  
القصيدة:

أزهرت بساتين الربيع  
وبابونج الحقول أزهر  
كان الجميع بانتظار رعد الربيع  
وكانت اللقالب للناس بالسعادة تحضر

\*\*\*

في الكنيسة يسود الهدوء  
وليس غير رائحة الشموع المشتعلة

وأمام الأيقونة كان أبونا العجوز يصلي  
وحوله بناته الراهبات

...

صامتاً كان الجرس في الأعلى  
وكانت الحمام تهدل في هدوء  
إنه لا يزعج نفسه، إنه لا يرن أبداً  
وبقية الأجراس كانت صامتة

...

لكن ما الذي حدث فجأة؟  
لماذا ترتجف الأرض برمتها؟  
كأن الشمس اختجبت وراء الغيوم  
لماذا يترأكض الناس كلهم؟

...

تساقطت أزهار البساتين  
ووطئت أزهار البابونج  
والناس الذي لم يكونوا في انتظار المصيبة أبداً  
يهجرون أماكنهم

...

وبدلاً من الصلوات تنهيدات رهبة  
ويسقط أبونا المبارك جريحاً

وعوضاً عن الشموع، شظايا أمام الأيقونة  
ويهتز الصليب في يده.

\*\*\*

في البيت المبارك تثن الآن راهبات  
نازفات الدماء بلا ذنب  
مثل بابونج الحقول يتألمن  
ينادين على مريم الطهور للمدد

\*\*\*

أخذت الأجراس تهتز بفعل القنابل  
بلا نظام رنت كلها معاً  
انخلعت قلوب الحمام ذعراً  
وطارت من الخوف، كل في اتجاه

\*\*\*

لأي حد تنكر العدو للإله  
فيمكن لديهم تدنيس بيت الله  
لأي حد هؤلاء الناس ساقطون  
لا شك أنهم من الله لا يهتمون

\*\*\*

سيأتي الوقت لتتحول الدبابات إلى صخور  
والقذائف إلى بساتين مزهرة

وتعود الأرض إلى الناس  
ولن يعرفوا بعدها المصائب

\*\*\*

الرصاص سيصير حقل بابونج  
والقصف سيتحول إلى رعد الربيع  
وسترفرف الحمام بحرية  
وتتحول الدموع إلى قطرات ندى باردة

\*\*\*

سيأتي زمان ترن فيه الأجراس فرحاً  
وتعود الصلوات إلى الأيقونات  
ويرحل الغضب مع زوينة الشتاء  
وإلى ضحكة تتحول التهديدات الرهيبة المخيفة

\*\*\*

إنهم سيستعيدون الصورة السعيدة  
والخوذة الفاشستية ستقبحها وردة  
سيمضون ضاحكين إلى الوادي المزهر  
ويستعيد الشعب المتكاتف سلامه

\*\*\*

## من هو الإرهابي

يجري كلام كثير  
عن الإرهاب في الأيام الأخيرة  
وتطلق أحكام كثيرة  
ويحكمون على المذنب وغير المذنب

...

حول الطاولة المستديرة أذكى المحللين  
وليس عسيراً أن تخذع بهم  
تحت القناع يقبع المعتدون الرهيبيون  
في الغرب يصعب أن تعرف الحقيقة

[http://Arch\\*\\*\\*eta.Sakhril.com](http://Arch***eta.Sakhril.com)

هناك يخلطون الأوراق  
لأجل أن يكون محرر الأرض الفلسطيني  
الذي لا يملك دليل إثبات  
مثل سارق بنوك

...

واضح أنهم لا يريدون أن يعرفوا  
من هو الإرهابي الحقيقي

لا يريدون أن ينتظروا نتائج التحقيق  
يوقعون على ورقة بيضاء

...

لا يفتؤون يخلطون الأوراق  
ويستمررون في خلطها  
لا يزالون يزينون بحسب أهوائهم  
لا يزالون يتهمون غيرهم

...

يريدون تقسيم العالم كما يشتهون  
إلى أقسام بيضاء وسوداء  
ويريدون أن يضعوا كل العالم تحت أقدامهم  
بحيث يرضون رغباتهم الدنيئة

...

إنهم يفعلون بهذا العالم ما يشاؤون  
من معهم ومن ضدهم  
هم يتكلمون مع أنفسهم بكل ثقة  
من ليس معهم فهو ضدهم

...

لذا يجمعون بنشاط زائد  
ما أمكن من سلاح

يحرقون أصابع شعبيهم  
بلعبيهم بالنار باستخفاف

...

ولكيلا يذهب تعبيهم أدراج الرياح  
فإنهم يريدون أن يجدوا "المذنب"  
استأجروا جلاديهـم  
ليقدموا أفغانستان "قرباناً"

...



عندنا يقولون: ما تزرع

تحصد

ARCHIVE

إذا زرعت الشوك

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

فلن تحصد العنب مطلقاً

...

هم يظنون أنهم إذا زرعوا العالم بالشـرور  
وأعدوا الوثائق المزورة  
فسيحصلون في المقابل على كل خيرات الأرض  
ثم تصفيق حار

...

يصلنا الصدى من كل الجهات  
أنها حرب حضارات

تحت قناع غريب يختبئ شارون  
ويلطّخ بالوحل الأمم البريئة

...

ابحثوا عن المستفيد من الحرب  
وستجدون المجرم الحقيقي  
لماذا يلحق الذنب بالعربي أو المسلم؟!  
ترتكبون ذنباً فظيلاً حين تظلمون

...

أنا ساجيبيكم يا أصدقائي الأعزاء  
إنهم مصابون بمركب نقص  
ولا يستطيعون أن يخفوا هذه الحقيقة  
ولا أن ينظفوا شرفهم القذر

...

ستظل إلى الأبد تطاردهم حذو النعل بالنعل  
أشباح  
اليابان وفلسطين وفيتنام  
مثل وشم قبيح على وجوههم

...

ومجدداً يمكن أن يولد  
الذين أيقظهم الانتقام



لا يُدفع الشر بالشر  
والشر عاقبته وخيمة

...

### قصيدة "تضامن"

يا فلسطين أنت أختنا  
نكتب إليك مؤيدين  
نحن أيضاً نتألم لنارك  
أرواحنا تحترق في أتونها

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhria.com>

أعداؤك أعداؤنا  
أصدقاؤك أصدقاؤنا  
احتفظي بشجاعتك وقوتك  
فلا يجب أن نرضخ لما يحدث

...

نتألم لأجلك كثيراً  
نشاهد التلفاز بعصبية  
قلوبنا لا تعرف الراحة مطلقاً  
لهذا المنظر المجزن

...

أرضك تتفطر دماً  
تحولت الآن إلى مقبرة  
وطغى الشر على الخير  
فلا ترحموا في حربكم أحداً

...

يغتسل بالدماء صباحاً  
أولئك الذين فقدوا أبناءهم  
يودعون حياتهم واحداً إثر آخر  
يفجر نفسه لكنه يأخذ معه آخرين

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ينطلق الابن إلى العملية  
تاركاً شبابه لغيره  
كل البلاد سارت في مسيرات  
وهي تطلق تحذيرها

...

قلقت لأجلك كل الأمم  
السود والبيض ومن جلدهم أحمر  
كل الوجوه تتجهم بكرامية  
فكلها تشبهك يا فلسطين

...

كلنا نحارب أعداءك  
كلنا نهب للمساعدة  
هذا بالدموع وهذا بالكلمات وهذا بالشعر  
وهذا بالريشة التي لا تجف

\*\*\*

كل البلاد تقف معك بشجاعة  
سورية والعراق وروسيا ومولداقيا  
في كل بلد يهتفون "ليسقط شارون"  
كل واحدة منها مستعدة للذود عنك

\*\*\*

لأجل سلامك يقاتل العالم كله  
وهم يعلمون أن التضامن شرف عظيم  
لأجلك تعصف الآن  
النار التي أشعلها الانتقام القاسي

\*\*\*

معك أفغانستان والباكستانيون  
هيروشيما وناكازاكي معك  
كلهم يعلمون أن هذا صنيع الأمريكيين  
ومن يلعبون هذه اللعبة الخسيسة

\*\*\*

المغنون يقاتلون الآن بأصواتهم  
يغنون أغانيهم الحربية  
يذمغون العدو بالقتل  
إنهم يعطونك بالكلمات قوة معنوية

\*\*\*

يا فلسطين نشجعي! تماسكي!  
نحن معك بأفكارنا وأخلاقنا وأرواحنا  
لا تتحني أمام العدو أبداً  
وستفوزين في الحرب بالتأكيد

\*\*\*

أتكلم باسم الشعوب  
باسم كل أولئك الذين يتمنون السلام لك يا فلسطين  
ومعهم أهديك قصائدي  
أنا وكله الذين يتمنون لك النصر

□□□

# وداعي الأخير

Mi Ultimo Adios

من الشعر الفلبيني

خوسه رينال (1) José Rizal

ترجمة علي إبراهيم الأشقر ■

عن الإسبانية

ARCHIVE  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وداعاً، يا وطني المعبود، يا بقعة تحبها الشمس،  
يا ذرة بحر الشرق، وفردوسنا المفقود،  
يفرحني أن أهبك روحي الذاتية؛  
حتى وإن كانت أشد ألقاً وطراوة وازدهاراً  
لو هبتكها، لو هبتها من أجل خيرك.

(1) روائي وشاعر وطبيب وفيلسوف فلبيني. ولد عام 1861 في كالامبا، ودرس الطب والفلسفة والأدب في إسبانية؛ ثم عاد إلى وطنه عام 1887 بعد أن طاف معظم أنحاء أوروبا. ولم يلبث أن غادره إلى اليابان فالولايات المتحدة فلندن. عاد مرة أخرى إلى الفلبين عام 1892. لكنه نفي لنشاطه السياسي حتى عام 1896. ولما انفجرت الثورة في الفلبين على إسبانية أعيد من برشلونة وهو في طريقه إلى كوبا ليعمل طبيباً متطوعاً. فسُجن وحُكم وحُكم عليه بالإعدام، ونفذ فيه الحكم في 1896/12/30. قبل ليلة واحدة من إعدامه كتب قصيدة "وداعي الأخير" المشهورة.

بعضهم يهتك حياته من غير تفكير بلا ريب،  
وهو يُقاتل في ساحات الوعى بجنون؛  
لا يهتم المكان، فالسروّة، والغار أو الزنبق،  
السجن أو الحقل المفتوح، المعركة أو العذاب الشديد  
كلها سواء إذا طلبها الوطن والبلد.

ساموت متى اصطبغت السماء بالخمرة  
وطلع النهار أخيراً بعد الظلام؛  
فإذا احتجّت إلى قرمز لتصبغ فجرك،  
فاهرق دمي، واسكنه في ساعة طيبة  
وليدّه شعاً منعكس من ضوءه الوليد.  
أحلامي منذ كنت فتى يافعاً قريباً،  
أحلامي منذ كنت شاباً ملئ قوة  
كانت في أن أراك درّة بحر الشرق  
وقد جف الدمع من عينيك السوداوين، وجبينك الصقيل مرفوع  
من غير تقطيب ولا غصون، ولا علانم خجل.

يا حلم حياتي، يا أمني القديم اللاهب،  
سلاماً! بذّا تهتف لك روعي التي سترحل قريباً؛  
سلاماً! آه، ما أجمل السقوط كيما تطير؛

ما أجملَ الموتَ لَتُمنَحَ حياةً، وما أحلى الموتَ تحتَ سمانك  
والرقدة الأبدية في أرضك الساحرة.

فإذا رأيتَ ذاتَ يومَ زهرةً متواضعةً  
نابتةً فوقَ قبري بين العشبِ البسيط،  
فقرّبْها من شفتيك، وقبّلْ روحي فيها.  
فأحسّ في جبهتي تحت القبرِ الباردِ  
بنفحةِ حنانك، وبدفءِ نفسك.



ARCHIVE

<http://Archivebeta.akhf.com>

دع القمرَ يرّني بسنا هاديٍ حلو،  
دع الفجرَ يرسلَ وهجَه العارض،  
دع الريحَ تئنَ بغمغمةِ رصينة؛  
وإذا ما هبطَ عصفورٌ وحطَ على صليبِ قبري  
فدع العصفورَ يعزفَ لحنه، لحنَ السلام.

دع الشمسَ الحارقةَ تقشعِ المطرَ  
والسماةَ تصفُ، فتصفو صيحةُ احتجاجي إثرها؛  
دع صديقاً لي يبكِ نهايتي المبكرة؛  
وإذا ما صلى أحدٌ من أجلي في الأماشي الصباحية  
فصلِّ يا وطني لله من أجلِ راحةِ نفسي.  
صلِّ من أجلِ كلِّ الذين ماتوا غيرَ سعداء:

من أجل كل الذين عانوا عذابات لا مثيل لها،  
صل من أجل أمهاتنا البائسات اللاتي يتأوهن مرارة؛  
من أجل الأيتام والأرامل، ومن أجل الأسرى المُعذَّبين،  
صل من أجل نفسك بأن ترى خلاصك الأخير.

وإذا ما تَلَفَعَتِ المقبرة في الليل البهيم  
وظلُّ الأموات وحدهم ساهرين فيها،  
فلا تَعَكَّرْ صفو راحتهم، ولا صفاء السر.  
فإذا ما سمعت أَلحانَ قيثارة أو سالتيريو  
فسوف أكون، أنا يا وطني الحبيب، من يُغَنِّيك...  
وإذا ما نَسِيتُمْ جميعاً قبري  
وضاع كل صليب أو حجرٍ يشير إلى مكانه،  
فدع الإنسان يحرقه ويبعثره بالمعزقة  
وسوف يكون رفاقي قبل أن يصير هباءً  
ذلك الغبار الذي يكسو بساطك.

لا أبالي، حينئذٍ بأن تنساني  
فلسوف أعبرُ جوك وفضاءك ووديانك،  
سأكون نغمةً مرتعشة، نقيّة في مسمعك،  
سأكون عطراً، نوراً، ألواناً، وحقيقاً، غناءً،



أنة دائماً تردّد جوهر إيماني

اسمع يا وطني المعبود، يا أَلَمَ أَلامي  
اسمع يا وطني الحبيب وداعي الأخير.  
أودّعكَ هنا كل شيء، أودّعكَ آبائي وحبّي  
فأنا راحلٌ إلى حيث لا عبيد ولا جلاّدين ولا طُغاة،  
إلى حيث الإيمان لا يُقتل، إلى حيث مملكة الله.

وداعاً يا أبوي وإخوتي، يا قطعاً من روحي،  
يا أصدقاء الطفولة في الوطن المفقود؛  
قدّموا الشكر بأن استرحت من العناء اليومي؛  
وداعاً يا صديقتي الأجنبية الحلوة، يا فرحي.  
وداعاً يا كائنات حبيبة. فالموت راحة.

□□□

# قصائد ونصوص من أدب المقاومة الفرنسية

■ ترجمة نبيل أبو صعب ■



باريس  
ARCHIVE

جيل سيرفيت

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

إيه باريس، أيتها المدينة المفتوحة  
كما يفتح جرح  
ما الذي صرت إليه  
يا من كنت الريف الأخضر .  
هأنت ينظر إليك  
بعيون عدوة  
وآذان جديدة  
تستمع إلى ضجيجنا القديم.

السين تحت المراقبة  
كما من فوهة بئر  
ومياهه، ليلاً ونهاراً  
تجري حبيسة  
كل العصور الفرنسية  
الملتصقة عميقاً في الحجر  
ألن نتركنا مغادرة  
ساخطة غاضبة؟؟  
الظل متقل برؤوس  
من بلاد أجنبية  
تريد أن تظل خفية  
وسط الخطر  
تنطفئ معجزة ما  
مفضلة أن تموت  
على أن تخوننا  
ببقائها متشابهة..

• •

#### إديث توما

تفاسمت إديث توما مع جان بولان وكلود مورغان إعادة بعث مجلة  
الآداب الفرنسية السرية. وفي بيتها كانت تنعقد اجتماعات اللجنة  
القيادية لـ (اللجنة القومية للكتاب) السرية. نشرت أشعار إديث توما

في الآداب الفرنسية، تحت الاسم المستعار آن، وفي (شرف الشعراء)، وفي (أوروبا).

## قمّ.. وامش..

أيها الشعب الميت، أيها الشعب الصامت،  
أيها الشعب المحاصر، أيها الشعب المجوع،  
تقل الأحجار فوق رأسك  
وفوق قلبك،  
يا شعب الشوارع، يا شعب الحقول  
والطواير أمام المتاجر  
يا من تخبّ خاوي المعدة، وسط البرد القاتر  
يا شعب المترو اليومي  
بأحذيتك الخشنة  
وكتابك بين يديك، كمن يهرب  
عبر نافذة مفتوحة، في أحد أيام الربيع.  
أيها الشعب الفرنسي، أيها الشعب الروماني،  
أيها الشعب البلغاري، أيها الشعب اليوناني،  
أيها الشعب المصري، وأنت أيها الشعب الألماني.  
متى سيحين الوقت؟  
ألم يعد للحرية اسم

تلك التي كانت كل يوم تزداد جمالاً  
مثل المرأة التي نعشقها  
تعود كل يوم أكثر شباباً.  
الحرية التي جعلت القصور تنهار  
وجعلت المناجل ترتفع  
لندك العدالات الزائفة  
الحرية، ألم يعد لها اسم لديك، هذا الصباح؟  
أيها الشعب الرازح تحت أحجار الصمت.  
أيها الشعب المطبق الشفاء،  
أيها الشعب المحطم الأعضاء،  
والجسد المختلج تحت الأحذية الثقيلة  
التي تباعد فوق الرصيف،  
المعجزة لن تأتي إلا من فعل يدك  
ولا أحد سواك سيمكنه أن يقول  
كما قيل لعازار في قبره:  
،، قم.. وامش...،،

تموز 1943

• •

إيلاداي فورونكا

قصيدة منشورة في مطلع كتاب ،،الحرب المهزلة،،. أنشئت فورونكا،  
وهي من أصل روماني، للأخوة والحنين والوحشة والحب وجمال

الكون. جمعت قصائدها الرئيسية في (قصائد مختارة)  
منشورات seghers.

## إعادة خلق العالم

أولئك القابعون في السجون يريدون أن يعرفوا إذا كانت الشجرة  
لا تزال تنمو نحو السماء وإذا كان النهر، والريح  
يجوسان بعد حول المدن وإذا كان الفجر  
لما يزل له بعد هسيس عربة التكتيف.  
أولئك الذين غطوا في النوم ألم يخشوا عند يقظتهم  
أن لا تلتحم ثانية قطع العالم المتناثرة؟  
هاهم بنهضون وينظرون عبر زجاج النوافذ  
كم هو حسن أن الشوارع والجدران لم تزل في مكانها.  
لكن للسجناء الذين بنت أصابعهم  
في داخل زجاجة قصراً أو سفينة  
والذين قرض النسيان على مهل أشياءهم  
كما البحر يغيّر على مهل وجه الصخور،  
غدت الشجرة عصفوراً والحقل غيمة  
وللصباح ارتعاشة الطبقي اللطيفة  
ولكي يدخل الأموات القمح إلى زرناناتهم  
غيّروا مجاري المياه وغيّروا الحدود.

حينما سيصفع رغيف الخبز كالسوط وجوهنا  
حينما الأشجار كقطعان الرنة هاربة في الليل  
حينما المقاعد والموائد والخزائن، دونما خجل  
ستتنافس، بحضورنا، على تضبيعنا،  
حينما ستطالب الوحشة بأجرها  
عبثاً سنحاول أن نتذكر أمثالنا  
في القمرات، في الكهوف، وفي الخنادق  
ولن يكون قد ظل إلا القليل من الدم والصدأ فوق القيود



آب 1942  
ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أسألكم العفو، أيها الرجال الذين تقاتلون  
من أجل الحرية، أنتم يا من تجدلون من دماكم  
سياطاً لطرد المحتلين  
أسألكم العفو لأنني أختبئ في مزرعة  
الأشجار والبهائم سعيدة في هذا الصيف  
وأنا أكتب هذه القصيدة قرب حقل اللاوند  
يفوح عطره ويملاً رأسي  
كما تتجه صاعدة نحوكم روحي أيها الرجال الذين تقاتلون  
ليست روحي ما تحتاجون إليها بل جسدي

وقلمي ينبغي أن يكون سلاحاً وكلماتي رصاصاً  
ويداي الناقهتان ينبغي أن تجدلا الأسلاك الشائكة  
لكني أكتب هذه القصيدة أيها الرجال الذين تقاتلون  
أولئك الذين يطأون أرضكم ألا يحقدون على أفكاركم  
وحل نظراتهم لوث وجه النهار  
ولأجل الحق بالخبز والأشعار  
تصبون صدوركم أيها الرجال الذين تقاتلون

••

جان فال

مدرس للفلسفة في جامعة السوربون، اعتقل في عام 1944 وسجن  
وقد نشرت قصائده في منشورات fontaine

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

### قصائد المناسبة إلى جسدي

لن يمتلكوني لا بالجوع ولا بالخوف  
وإذا ما امتلكوني يوماً فإنه هيكلي العظمي  
وإذا اجروا يوماً (التنظيفات الأخيرة)  
سيرون أنهم غيروا جسدي وليس قلبي.



### بعد

في السجن، لكن أقسم أنني مازلت فيه  
ففي كل مكان ثمة بالجدران والقوانين والبرد

### زمن عفن

هذه الأيام في السجن مثل زمن عفن  
الرائحة المقززة تلتف حول ذاتها  
وكل شيء فاقد لونه، مدمر، شبه ميت شاحب  
وثمة أمل قديم يتأرجح وسط الهواء المقرور

## ARCHIVE

<http://Archive.org/details/SaharAlkhalil>

### أمل

سيغمي عليّ وسط تلك الفرحة الغامرة  
ربما حين يحلّ اليوم الذي سيحررني  
وسأشعر فجأة مثل رجل ثمل  
خارج زمن السجون والحسرات والدموع  
"سجن فرسنة"

• • •

### جان كاسو

وضع جان كاسو، الذي اعتقله بوليس حكومة فيشي في تولوز في  
الثالث من شهر كانون الأول 1940، قيد الاعتقال الاحترازي، في  
سجن فيرغول العسكري. ولما لم يكن يحق للسجناء لا القراءة ولا

الكتابة، فقد شغل جان كاسو ليلاليه بنظم مطالع سوناتات ثم حفظها في ذاكرته. وقد استمر يكتب بهذا الأسلوب إلى أحد أيام شباط 1942 حيث أطلق سراحه واثنين من رفاقه إطلاقاً مؤقتاً بانتظار محاكمته. فارتفع حينئذ عدد السوناتات المكتوبة بهذه الطريقة إلى ثلاث وثلاثين سوناتا.

نسخ جان كاسو هذه السوناتات وعمل على إيصالها إلى دار نشر (مينوي) السرية التي نشرتها بسرية تحت اسم مستعار هو: جان نوار مع مقدمة لفرانسوا لاكولير (أراغون).

## سوناتات



أشربي قدح الشيطان هذا ثم نامي  
سنرفع بؤسك كما لو أنه تاج  
وسنحمله إلى حذائق الموت

بينما أنت، مثل مسرّم يرتعش،  
منزلة عبر الباب الذي لا يعبره أحد  
ستنطلقين لجمع الأس ذي البراعم الذهبية.  
بريقه وبريق شقائق النعمان القانية،  
في الليل المتجدد، سيقودانك إلى شواطئ  
الحياة الحقّة، والكمال المحض  
هناك تنضج الأحلام، مرعبة وقوية.  
وعبر الزرقة الصباحية لغد أبدي.

سيأتون جميعاً للقائك، أيتها الروح المتعافية،  
وستتعرفين إليهن، متماسكات بالأيدي،  
شقيقاتك الكبيرات: الحب، والحرية، والشعر.

• • •

منذ الأزل، وفي كل البلاد، العمال  
يموتون، ودم العمال يغسل الطرقات.  
العمال يهتفون ويسقطون في السخام.  
النار والبرد والجوع، والقتل والتعذيب يفتكون

بالعمال. في كل بلد ثمة حجارة عارية  
وأشجار متعفنة، وشباك ملاجئ صدئة  
منذ الأزل، بسبب يؤس النهارات،  
قطيع النهارات الدامية، والمقهورة <http://Archive>

يا رب العدل، يا من تحكم، ليس في السماوات  
إنما في قلب الإنسان، في قلب غضبه  
ألن تنشر ملكوتك أبداً فوق الأرض؟؟  
يا سيد الأقوياء والقوة، افتح عينيك.  
الأفواه مكمنة، والقبضات مقيدة،  
والسلسلة طويلة طويلة، لكن العمال؟

• • •

الجرح الذي، منذ زمان الكرز  
أحمله في قلبي، ينفث كل يوم.

وعبثاً تداعب أزهار الليلك والشموس والأنسام  
أسوار الضواحي.  
يا بلاد السطوح الزرق والأغاني الرمادية  
يا من تتألمين دوماً في ثوب الحب،  
فسري لماذا شغفت حياتي  
الشبهة الصدئة لساحاتك القديمة  
للجنيات التي سألتقيها في الطريق  
أسير راوياً حكاية فانتين وكوزيت  
وشجرة المدرسة، بدورها، تكرر  
حكاية جميلة حيث يقال: غداً..  
آه، فليسفر أخيراً فجر العيد  
أن على البنادق ستتفuzz القبضات!

• •

### إيمانويل داستي دو لا فيجيرتي

كان ضابطاً في البحرية عام 1940، وهو مؤسس حركة مقاومة  
باسم "التحرير"، أوفد إلى الولايات المتحدة الأمريكية كان في لندن في  
مطلع عام 1943 وهناك التقى الجنرال ديغول وأنا مارلي، وهي  
موسيقية من أصل روسي "كانت أنا تنقر على غيتارها نغمات تنويحة  
لا تزال دون كلمات، كانت قد ألقتها. وبمساعدة الحنين نظمنا شيئاً  
فشيئاً كلمات اللحن". وهكذا ولدت تنويحة البارتيزان التي لا ينبغي

الخلط بينها وبين أغنية البارتيزان، التي كتبها في الوقت ذاته تقريباً  
جوزيف كيسل وموريس دريون ولحنها أنا مارلي أيضاً.

## تنويحة البارتيزان

دخل الألمان ساحي

فقبل لي: "استسلم"

غير أنني لم أنم

والتقطت ثانية سلاحي

لم يسألني أحد

من أين جئت وإلى أين أمضي

وأنتم يا من تعرفون قصدي

امحوا آثار خطوي

غيرت منه مرة اسمي

وفقدت زوجتي وطفلي

لكن الأصدقاء لدي

وفرنسا كلها كلها لي.

رجل عجوز في قبو

خبأنا، ليوم واحد، خبأنا

أخذه الألمان

ومات ولم يفاجئه الموت

أمس أيضاً كنا ثلاثة  
لم يبقى بعد إلا أنا  
وها أنا أنتقل دون جدوى  
بين سجون الحدود  
الريح تهب فوق القبور  
والحرية من جديد ستعود  
وسوف ينسانا الجميع  
لكننا خلال الظلال نعود.



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

دارجيتا

لعله اسم مستعار. تلقى بول إيلوار هذه القصيدة التي أدخلها ضمن  
مختارات القصائد التي ظهرت في أوروبا عام 1944 ضمن  
منشورات مبنوي السرية. هنا، مرة أخرى لم يكشف لنا اسم الشاعر.

لم يعد ثمة وقت للدموع

لم يعد ثمة وقت للدموع،  
وللتحسر عما فات  
ها امتشقنا الأمل والرفض

سلاحاً.  
أسلحة نقية أسلحة قوية  
مثل حب طاغ،  
الوقت يفر، آلامنا تستمر  
دون أن تخمد نيرانكم الصامتة.  
تشعّون وسط الغبش  
رماحاً فضية  
وبوهجكم قلوب كثيرة  
أفلتت من طوق الحصار.  
كل الآلام بدت  
وكل حب حنى الجبين؛  
نتطلع إلى أيدينا العارية  
التي ستعود مفيدة عما قريب.  
،، قبل أوراق الخريف“  
قال صوت القدر  
لكن صوت المدافع هدر  
والأرض، في البعيد، ترتجف.  
لا تظاهر بعد ولا خدع.  
بل هو القتال المحتّم  
حيث اسم سرقوسة  
يجيب اسم أوريل

ما الذي سيحدث غداً؟ لا يهم  
إذا جاء الإعصار من عمق الأفق  
جاء يدق على أبواب  
أوروبا، أبواب سجنى.  
من يتحدث الآن عن التروى  
حين يتوجب العيش والإرادة  
وحين تتعق الروح وترقص  
على وقع أغلى آمالها؟  
أستطيع إسكات هذا الفرح  
الذي يملنى كما الخمرة  
أخيراً وقد اكتست السماء بالحمرة  
لأجل فجر يوم قديمي القسمات،  
حين، وسط لهيب اليوم الطويل المستعر،  
وبعد أن صمّ سمعه عن ندائنا طويلاً  
يمتشق ملاك العدالة المرح  
يمتشق سيفه الناري الصقيلا،  
حين تحترق الأرض وترتجف  
على لهاث عاشق ولهان،  
وقد تجمعت الشعوب  
لأجل يوم الدينونة والديان؟؟؟

••



## لويس كوشوا

أهو اسم حقيقي، أم اسم مستعار؟ اختيرت هذه القصيدة من  
الأنطولوجيا الوحيدة لأشعار المقاومة: دم الشعراء، المنشورة في  
بخارست (رومانيا)

## تنوينة لأطفال أوروبا

نم بجوعك، نم بدموعك.

نم، يا صغيري. نم بهدوء

نم، وسط ضجيج الأسلحة البعيد

نم، يا مولود متأخراً، نم يا مولود مبكراً.

نم لأجل زمن الشؤم.

نم لأجل الملوك. نم لأجل الأندال.

نم لأجل السماء. ذات الطوالع المينة

لأجل المحيط الذي تحمره النيران

نم لأجل الرقصة الكئيبة

للأفواج المينة والملعونة.

تستطيع النوم: فالأرض مجنونة

وأملك تقول لك

نم لأجل العصفور الغبي الذي يغني

زرقة السماء التي لم تعرفها.

هيا! فالنجوم كئيبة:  
فقد عاد من جديد زمن الجريمة.

نم لأجل الصيف الذي يرعيني  
بأزهاره المزدهوة الألوان،  
لأجل الشمس، تلك الغبية  
التي تبسم لأي شيء.

نم لأجل الثلج، هزل  
الأموات وقد اكتسوا البياض النقي.

نم لأجل القمر، هذه البغي  
التي تضاجع أي كان.

نم لأجل أصابعي المشققة،

لأجل الموقد البارد الصموت،  
لأجل المرق والقشارة،

وليمة لأسابيع الرعب المميت.

نم لأجل قرقرة العلب الفارغة  
ولأجل البياضات الممزقة،

لأجل شحوبي وتجاعيد وجهي.  
لأجل صوتي موشك الهديان.

أنا أحكي، وأحكي.. وأنت الذي تبكي  
لا تدرك ما الذي أحكي.  
ما زالت أمامي بضع ساعات،  
ذلك أن حقدي الساطع آت.

نم لأجل عالم دون عجائب،  
لأجل طواحين دون قمح أو حب.  
نم لأجل أقبية دون نبيذ.  
لأجل إهراءات حرقوها.  
نم لأجل مدن لا ضوء فيها.  
لأجل مخازن دون زخارف،  
لأجل جنث تحت الحجارة،  
لأجل غرقى مترنحين،  
نم لأجل محطات دون مسافرين.  
نم لأجل شواطئ دون أطفال.  
نم لأجل عصر الستارات الحديدية  
وأشكال الصمت الخائفة.

نم لأجل السرير الذي شهد مولدك.  
حيث ألعن البرد القارص  
في الليل، أرى فيه موت الخائنين.

وأرى أحلاماً تعبق بالدم.  
وحين يأتي النصر مكفهرأً وعسيرأً  
يأتي لينقر على نوافذنا،  
سأرفعك فوق ذراعي الناحلتين:  
وستراهم، الأبطال جميعهم  
والفجر سيلوح عاجاً نقياً  
لكن قبل أن تدق ساعة الظهيرة  
ستكون قد وقعت مجازر كبيرة.  
أمك من تقوله لك.



ARCHIVE

ليون بوبيان

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

نكر موريس تيريار هذا الشاعر وأضاف: لقد اصطفى ليون بوبيان،  
هذا الرجل المقتود من صخر وفولاذ، لنفسه روح شاعر وسط  
الظروف المأساوية لمعتقل شتروتوف.

لو كنت حراً

لوددت تنغيم صوتي

على نغمة صوتك

في نشيد عظيم

كـ \_\_\_\_\_ ان سـ \_\_\_\_\_ يخرجنا مـ \_\_\_\_\_ ن الأرض

لوددت أن أضبط خفق قلبك  
على خفق قلبي  
في إيقاع مجنون  
كـ \_\_\_\_\_ ان سـ \_\_\_\_\_ لب مـ \_\_\_\_\_ نا الألبـ \_\_\_\_\_ باب  
لوددت أن أضبط اهتزاز خصرك  
على اهتزاز خصري  
في رقصة وحشية  
كـ \_\_\_\_\_ نـ \_\_\_\_\_ سـ \_\_\_\_\_ تـ \_\_\_\_\_ و \_\_\_\_\_ حـ \_\_\_\_\_ دنا إلـ \_\_\_\_\_ ي \_\_\_\_\_ الألبـ \_\_\_\_\_ د  
لوددت أن أضبط رعشتي  
على رعشتك  
في ارتعاش طويل  
كـ \_\_\_\_\_ ان سـ \_\_\_\_\_ عـ \_\_\_\_\_ جن جـ \_\_\_\_\_ دينا  
لوددت أن أضبط لذاذااتي  
على لذاذاك  
في نوم وديع  
كـ \_\_\_\_\_ ان سـ \_\_\_\_\_ يضـ \_\_\_\_\_ منا، متلاصـ \_\_\_\_\_ قين  
لوددت معك نسيان  
ما كان ينبغي لعيون بشرية  
ألا تراه مطلقاً

## رسالة موجهة إلى السيدة لوسيان بالاس دي غيد

### صديقتي

لقد اخترتك من بين صديقاتي جميعهن، لأحيطك علماً برغباتي الأخيرة، فأنا أدرك في الواقع أنك تحبينني بما يكفي لكي تعملني على احترام هذه الرغبات من قبل الجميع. سوف يقولون لك إنني مت دون فائدة، معاندة، منهورة، وستكون تلك هي الحقيقة.. التاريخية. لكن ستكون ثمة حقيقة أخرى حقيقة أنني مت لأثبت أن المرء بوسع أن يعيش الحياة لدرجة الجنون وفي الآن ذاته أن يرتضي موتاً ضرورياً...

ستقع على عاتقك مهمة التخفيف من أحزان أُمي. وستقولين لها أني مت لكي تغدو سماءً بلجيكاً أكثر صفاءً، ولكي يستطيع من سيأتون بعدي العيش أحراراً، كما أردت ذلك لنفسك كثيراً، وأني لست بنادمة على أي شيء على الرغم من كل شيء. في الوقت الذي أكتب لك فيه هذا، أنتظر بهدوء الأوامر التي ستوجه إلي. كيف ستكون تلك الأوامر؟؟ لا أعرف، ولذا أكتب إليك الوداع الذي سيبلغك موتي. لأشخاص مثلك أهدي موتي كله لأشخاص سيسطيعون أن يولدوا ثانية ويعاودوا البناء من جديد. أني أفكر بأطفالكم الذين سيغدون أحراراً. وداعاً

مارغرييت بيرفويه 13 تشرين الثاني 1941

بطلة.. مارغرييت بيرفويه

□□□

## الحرية – الشجاعة

بول ايلوار

جان جوريس

■ ترجمة : د. يارا معصراني ■

الحرية

بول ايلوار - عن الفرنسية

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

على دفاتري المدرسية،

على مقعد المدرسة، على الأشجار،

على الرمل وعلى الثلج

أكتب اسمك

...

على الصفحات المقروءة كلها

على الصفحات البيضاء كلها

على الحجر والدم والورق أو الرماد

أكتب اسمك

...

على الصور المذهبة  
على أسلحة المقاتلين  
على تيجان الملوك  
أكتب اسمك  
...

على الأدغال والصحراء  
على الأعشاش وعلى الوزال  
على صدى طفولتي  
أكتب اسمك  
...



على روائع الليالي  
على خبز الأيام الأبيض  
على الفصول المتلازمة  
أكتب اسمك  
...

على جميع خرفي اللازوردية  
على الغدير كالشمس العفنة  
على البحيرة كالقمر الحي  
أكتب اسمك  
...



على الحقول على الأفق

على أجنحة الطيور

على طاحونة الظلال

أكتب اسمك

...

على كل هبة فجر

على البحر على السفن

على الجبل المعنوه

أكتب اسمك

...



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

على زبد الغيوم

على عرق العاصفة

على المطر الغزير الناهت

أكتب اسمك

...

على الأشكال المتألقة

على أجراس الألوان

على الحقيقة المتجسدة

أكتب اسمك

...

على الدروب الصاحبة

على الطرقات المنتشرة

على الساحات الطافحة

أكتب اسمك

• • •

على المصباح الذي يضاء

على المصباح الذي يطفأ

على بيوتي مجتمعة

أكتب اسمك

• • •



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.org>

على الفواكه الممسومة نصفين

من المرأة ومن عثرتني

على سريري كالصدفة الفارغة

أكتب اسمك

• • •

على كلبي النهم واللطيف

على أذنيه المنتصبين

على قائمته غير الرشيق

أكتب اسمك

• • •

على عتبة بيتي  
على الأشياء الأليفة  
على تدفق النار المبارك  
أكتب اسمك  
...

على كل لحم متآلف  
على جبهة أصدقائي  
على كل يد تمتد  
أكتب اسمك  
...



على زجاج المفاجآت  
على الشفاه المننبهة  
أعلى من الصمت  
أكتب اسمك  
...

على ملاجئي المهدومة  
على مناراتي المنهارة  
على جدار مللي  
أكتب اسمك  
...

على الغياب دون رغبة  
على الوحدة العارية  
على خطوات الموت  
أكتب اسمك  
...

على الصحة العائدة  
على الخطر الزائل  
على الأمل دون ذكرى  
أكتب اسمك  
...



وبقدرة كلمة  
أبدأ حياتي من جديد  
ولدت كي أعرفك  
وكي أسمىك  
أيتها الحرية

..

### الشجاعة

جان جوريس - عن الفرنسية

ينبغي على الأخص، ألا ننتهم بأننا نحط من قدر  
الشجاعة أو نوهنّها. ملعونة هي البشرية إذا كان عليها، لكي

تبرهن على الشجاعة، أن تكون قائلة إلى الأبد. ليست الشجاعة اليوم في وضع العالم تحت شبح الحرب القاتم، هذا الشبح الرهيب، إنما النائم، وأن نهني أنفسنا دوماً بأن شره سيصيب الآخرين. ليست الشجاعة في أن ندع في أيدي القوة حل الأزمات التي يمكن أن يحلها العقل، لأن الشجاعة هي مجد الإنسان، بينما في تلك تنازله.

الشجاعة بالنسبة لكم جميعاً هي شجاعة كل ساعة. هي أن تتحملوا مختلف المحن، المحن الجسدية والنفسية التي تصيبنا بها الحياة، دون أن تنحنوا أمامها. الشجاعة هي ألا نسلم الإرادة لصدفة الانطباعات والقوى، هي أن نحافظ أثناء إرهابنا، الذي لا بد منه، على عادة العمل والفعل. الشجاعة، هي أن يختار الإنسان مهنته وأن يتقنها كائنة ما تكون، بالرغم من فوضى الحياة اللانهائية التي تتجاوزنا من كل صوب. هي ألا نهرب من العمل الدقيق أو الرتيب. هي أن نصبح بقدر ما نستطيع، فنيين مهرة. هي أن نقبل ونفهم قانون التخصص في العمل هذا، وهو شرط الفعل المفيد، وأن نوفر في الوقت نفسه، لنظرنا ولروحنا، أوقات صحو نرنو فيها إلى العالم الفسيح وإلى الآفاق الأكثر اتساعاً.

الشجاعة هي أن يكون كل منا، في الوقت نفسه، مهما كانت مهنته، عملياً وفيلسوفاً. الشجاعة هي أن يفهم المرء حياته الخاصة وأن يحددها ويعمقها وأن ينظمها ويجعلها منسجمة مع الحياة العامة. الشجاعة هي أن يراقب المرء بدقة آلة حياكته فلا يدع خيطاً واحداً ينقطع، وأن يحضر خلال ذلك

نظاماً اجتماعياً أرحب وأكثر أخوة حيث تصبح الآلة الخادم المشترك للعمال المحررين. الشجاعة هي في قبول الظروف الجديدة التي تفرضها الحياة على العلم والفن. هي في قبول واستكشاف تعقيد الوقائع والتفاصيل الذي يكاد يكون لا نهائياً، وخلال ذلك توضيح هذا الواقع الضخم والمشوش بأفكار عامة وتنظيمه والارتقاء به بجمال الأشكال والإيقاعات المقدس. الشجاعة هي التغلب على الأخطاء الشخصية. هي المعاناة منها ولكن دون أن نقيدنا وتمنعنا من متابعة طريقنا. الشجاعة هي حب الحياة والنظر إلى الموت نظرة هادئة، هي التوجه نحو المثالي وفهم الواقع، هي السعي وتكريس النفس للأهداف النبيلة دون معرفة ما هو الجزاء الذي سيجازي به العالم العميق جهودنا ولا في ما إذا كان هناك أي جزاء. الشجاعة هي البحث عن الحقيقة وقولها، هي عدم الخضوع لقانون الكذب المنتصر الذي يمر، وعدم الانجرار بروحنا أو بقمنا أو بأيدينا لتصفيق الأغبياء وصراخ المتعصبين.

\*\*\*

اغتيال جان جوريس في بداية الحرب العالمية الأولى.

□□□

# خوف على الطريق

بقلم:

ايتالو كالفينو

■ ترجمة : معن مصطفى الحسون ■

عن الإيطالية



في التاسعة والربع وصل إلى "كوالا براكا" برفقة القمر، في التاسعة وعشرين دقيقة كان عند تقاطع شجرتين. يجب أن يصل النبع في التاسعة والنصف، في سان فاوستينو قبل العاشرة، العاشرة والنصف في بيراللو، منتصف الليل في غريتيو، وحوالي الواحدة ربما انتهى إلى فينتيا دي كاستانيو. عشر ساعات من المسير بخطوات عادية، ست ساعات كافية لقول الكثير لهم، إنه بيذا، الماعي، أسرع ساع بين صفوف المجاهدين. كان بيذا يسير بقوة، جسد ميت يجتاز أقصر الطرق، دون أن يخطأ أبداً كل المنعطفات المتشابهة ينهض صدره صاعداً نحو الأعلى. صدر ثابت لا يغير ارتفاع التنفس، عزيمة الساقين المطفأتين أشبه بصمام أمان...

-تشجيع يابندا...

يقول له الرفاق ما إن يلمحوه من بعيد صاعداً نحو معسكرهم. يجاهدون في سبيل قراءة تعابير وجهه لمعرفة ما إن كانت الأخبار أو

الأوامر التي يحملها سيئة أم حسنة، لكن وجه بيندا مثل قبضة يد. وجه جبلي ضيق ذو شفتين نما عليهما الزغب وجسم قصير عظمي كأنه جسد فتى أكثر من كونه ليافع، عضلات كالعظام.

كانت مهمة عسيرة وفريدة، أن يظل متيقظاً كل الساعات، مرسل من سيربه، من بلله، لذا يتوجب عليه المضي عبر ليل الوادي وعلى كتفيه سلاح فرنسي خفيف كأنه بندقية من خشب، يتوجب عليه الوصول إلى معسكر والمضي إلى آخر، ثم العودة مع الجواب. لذا يوقظ الطباخ، يفتش في القدور الباردة، ثم يمضي وما تزال في حلقه بقايا من قطعة كستناء، لكن هذه المهمة لم تكن غريبة عنه، لم يكن ليتبه في الغابات، محيطاً بكل الدروب، كان يذهب عبرها منذ الطفولة، يرعى الماعز، كان قادراً على اجتياز كل هذه الممرات الوعرة والخصباء، والتي كانت عسيرة على باقي المجاهدين القادمين من المدن، ومن البحر.

شجرة كستناء ذات ساق مجوف، خشب أزرق اللون فوق صخرة، فسحة عارية لحقت من الكربون، وأشياء كثيرة تثير في دخيلته ذكريات بائدة. تهرب عنزة، نمس يخرج من جحره، ملابس داخلية لفتاة، وإلى كل هذا تنضاف الذكريات الجديدة، الحرب الدائرة في الأصقاع التي يقطنها، كل هذا استمرار لحكايته، لعب وعمل، صيد يتحول إلى حرب، رائحة دخان القصف على جسر لوريتو، عمليات الإنقاذ هناك أسفل المنحدر، سهول ملغومة حبلى بالموتى.

كانت رحي الحرب تدور في هذه الوديان، كأنها كلب بهم بعض ذيله، المجاهدون في مواجهة القناصة والعساكر، إذا صعد فريق منهم الجبال، يهبط الفريق الآخر نحو الوديان، ثم، فريق في الوديان، والآخر فوق الجبال، لقد دأب كل منهم على الدوران ليتجنب جنون الآخر، ليتجنب نيران الآخر، وعلى الدوام، فوق الجبال أو في الوادي. هناك من يموت. كانت بلدة



بيندا في الريف، إنها سان فاوسيتونو، ثلاث كتل من البيوت. أحدهما هنا والآخر هناك، وفي أسفل الوادي تقع نافذة ريجينا<sup>(1)</sup>، غطاء سريرها يفرد في أيام السذرية. كانت بلدة بيندا عبارة عن استراحة تتوسط الصعود والهبوط، جرعة حليب، وكنزة نظيفة تهيئها أمه له، ثم الجهاد في سبيل الهرب المستمر لكي لا يصلوا إليه بغتة، الآن لقد مات الكثير من المجاهدين في سان فاوسيتونو...

الشتاء لعبة بين التساقق والاختفاء، القناصة في بابرودو، العسكر في موليني، الألمان في برينا، وفي الوسط يقف المجاهدون عند كوعي الوادي، متجنبين أماكن السذرية وهم يتجولون هنا وهناك في الليل، عبر أماكن مألوفة. في تلك الليلة بالضبط كان ثمة سرية من الألمان تسير من بريغا، ربما تتوجه إلى كارمو، يهبط العساكر أنفسهم للصعود من موليني، فريق المجاهدين يرقد مدفوناً في منزل مهجور وقصي. بيندا يسير في الظلمة عبر الغابات، كانوا قد اطمأنوا إلى سماع صوت أقدامه، ثم الأوامر "إخلاء السوادي على الفور، وعند الشفق يهبط الفريق عدته وعتاده للرحيل عن بيليفرنو، كان القلق رفرقة أجنحة خفاش تدق في رنني بيندا، تحذوه رغبة عارمة في مد يده وإمساك ذلك المنزل الذي يبعد كيلو مترين، في العتمة، دون أية إشارة موجهة أو علامة دالة. يجب أن يصل هناك، أن ينفخ الأوامر، ليرسمهم يغادرون حتى فيذتا، سيربه، غوريليا. ومن ثم حفر بؤرة في أوراق شجرة الكستناء، والدلوف إلى الداخل هو وريجينا، ولكن يتوجب بادئ ذي بدء نزع الإبر التي انغرست في جسد ريجينا، طالما استمرت الحفريات داخل الأوراق يصادفهم الألمان، من المستحيل إذاً إيجاد مكان لريجينا بينهم، ريجينا ذات الجلد الرقيق والناعم...

تتكسر الأوراق اليابسة تحت قدمي بيندا، تصدر ما يشبه الشخير،

(1) ريجينا: اسم فتاة، ويعني الملكة..

حيوان الجيرو ذو العينين المدورتين والمضيئتين يهرع للاختفاء في أعالي الشجر - تشجع يا بيندا، هذا ما قاله له فيكانو القائد وهو يعطيه الأمانة. يصعد النعاس من قلب الليل ويحوم حول الأجفان، لقد رغب بيندا في التيه عبر الدروب. والغوص في بحر من أوراق الشجر اليابسة، ثم السباحة نحو العمق حتى الانغماس الكلي،  
-تشجع يا بيندا.

يسير بيندا الآن على طول ساحل تومينا، ما تزال متجلدة، تنطبع آثار الأقدام على الجليد. كان تومانا هو الوادي الأوسع في هذه الأرجاء، ذا شواطئ عالية وبعيدة. أما الشاطئ الآخر فقد كان يلهث في الليل، حيث يسير بيندا في المنحنيات، بين الدغلات التي تحيط به. يخيل لبيندا أنه يرى ضوءاً قصياً، بالضبط في تومانا، ضوء يسير أمامه. ما ينفك الضوء يتحرك أحياناً بخط متعرج كأنه يعطف، يختفي، ثم ما يلبث أن يظهر بغتة في مكان غير متوقع. من غناه يكون هذا الساعة؟ أحياناً يترأى لبيندا أن الضوء جد قصي، على الضفة الأخرى، أحياناً يتوقف الضوء عن الحركة ثم ما يلبث أن ينقل خلف بيندا. ها هي الآن عدة أضواء مختلفة، ربما كانوا يمشطون كل دروب تومانا السفلى، ربما خلفه أو أمامه في تومانا العليا، أضواء تشعل ثم تطفئ. الألمان!

ثمّة بهيمة تسير فوق آثار أقدام بيندا، لقد استيقظت من الأعماق، هذه الأضواء ليست سوى ألمان يمشطون تومانا، جنب غب جنبه. كتيبة إثر أخرى. شيء مستحيل، كان بيندا يعرف هذا، ولكن مع ذلك خالجه شعور بأنه ربما كان الاعتقاد بشيء كهذا أمراً محبباً، يجب النأي عن خداع هذه البهيمة الطفلة التي تتبعه منذ أمد، يدق الزمان في حلق بيندا بإيقاع متواتر، لقد تأخر الوقت، لم يعد من الممكن تحذير الرفاق من الخطر الداهم لم يعد من الممكن الوصول قبل الألمان، وهكذا أخذاً بيندا بتخيل منزل فيندته الواقع في كاستانيو وهو يحترق، أجساد الرفاق المخضبة بالدماء، رؤوس بعضهم

معلقة على جذوع الأشجار اللاريشي....

-تشجع يا بيندا..

يشير المكان الذي هو في داخله دهشة عارمة، يتراءى له أنه قطع مسافة قصيرة في زمن طويل، ربما تباطأ إيان سيره بل ربما كان واقفاً لم يتحرك. لكنه لا يغير طريقه وهو عارف بشكل جيد أن خطواته كانت على السدوم هادئة وثابتة لم تتغير، ولا يجب الوثوق البتة بهذه البهيمه التي تقوم بزيارته ليلاً، بيندا يثق بنفسه كثيراً مذ كان طفلاً، لذا تراه ذا عزيمة، حتى ولا كان يحمل هذه الهبته التي تتعريش على رقبته مثل قرد....

بدا سهل تولا براك طرياً تحت سنا القمر. "الألغام"، فكر بيندا، هناك في الأعالي لا توجد ألغام إنه يعرف ذلك جيداً، ولكن هنا في السهل كانت الألغام تنتشر متباعدة، وما هو ذا يعتقد بأن الألغام تتحرك تحت الأرض، تسير من جهة إلى أخرى، من الجبال إلى السهل، تتبع خطواته، كأنها عناكب ضخمة تحت أرضية، كانت الأرض فوق حقل الألغام مغطاة بفطر غريب، سيكون أمراً سهلاً لو وطأها بقدميه، سينفجر كل شيء في وهلة، ولكن ها هي ذي الثواني تتحول إلى قرون، ويبدو العالم ثابتاً كأنه مسحور ينحدر بيندا نحو الغابة يحيط به النعاس والليل البهيم، كان قد دأب على وضع إشارات تمويهية على جذوع الأشجار وعلى الدغلات، الألمان يحيطون بالمنطقة، هذا حقيقي ومن المؤكد أنهم رأوه وهو يعبر سهل كوللا براكا تحت ضوء القمر.

وما هم الآن يتبعونه، إنهم ينتظرونه عند المعبر، يتصاعد صراخ بوم من بعيد، إنه الصفير الذي يطلقه الألمان المتمرسون حوله، وما هو ذا صفير آخر يتردد، تتحرك بهيمة من بين إحدى الدغلات، ربما كانت ثعلباً أو ذئباً، بل ربما كانت ألمانيا متخفياً وراء سيقان الشجر وهو يهم بالتصويب على، خلف كل دغلة هناك ألماني فوق قمة كل شجرة يثوي ألماني مع

حيوانات الغيرو. التي تستعربش قمم الأشجار عادة، الصخور مليئة بالخوذات، تنصب البنادق بين أغصان الشجر تنتهي جذور الأشجار تحت أقدام إنسانية، يمشي ببدا الآن على طول سياج حيث يثوي الألمان يحدقون فيه، بنظرات لامعة كأنها أوراق شجر ندية، وكلما أوغل في المسير ازداد ولوجه بين الألمان، وعند الصراخ الثالث أو الرابع، أو السادس. سيهب الألمان متحلقين حوله، الأسلحة مصوبة نحوه، يخرق صدره حديد ساخن...

أحد هؤلاء الألمان كان يدعى غوند، له ابتسامة بيضاء مرعبة تحت الخوذة، ربما مد يديه الهائلتين إليه، كي يحوله إلى حديد صلد، وها هو ذا ببندا يخشى الاستدارة ليتجنب رؤيته فوق كتفيه، أو ربما تقدم غوند عبر الدرب، مشيراً بإصبعه نحوه. أو ربما سمعه يضرب الأحجار بقدميه فتتدحرج حول ببندا، تسير الأحجار على جانبيه بصمت وسكون.

في لحظة ماء، خيل له أنه تآم عبر الطريق حتى ولو كان قادراً على التعرف عليه. الصخور، الأشجار، نوافح المسك، ولكن حتى الصخور والأشجار والمسك العطر يبدو أنها تنتمي إلى مكان آخر، مكان بعيد، ثمة الآلاف من الأماكن المختلفة والقصية، بعد هذه الحصباء توجد طرق فرعية، ربما كان المستنقع الذي خبره هناك قد جف الآن، لا ماء ولا ضفادع، إنها ضفادع تنتمي لود آخر، ضفادع قريبة جداً من الألمان، وعندما ينعطف في الطريق سيصادف علامات خادعة وضعها الألمان. لقد وضعوها بأيديهم، قرب الألمانسي الكبير الذي يثوي في داخلنا، إنه يدعى غوند، محملاً بالخوذات، المدافع، أفواه أسلحة مصوبة، حيث يفتح يديه الهائلتين ليغلطنا بداخلهما، ولا مجال لنا أبداً للتملص منهما...

ولطرد غوند يجب التفكير بريجينا، ويجب التفكير بحفر محراب في الثلج برفقة ريجينا، لكن الثلج قاس ومتجدد، لا يمكن لريجينا الاستلقاء عليه وهي ترتدي ملابس رقيقة مثل الجلد، ولا يمكن لها أن تثوي تحت أشجار

الصنوبر، حيث الإبر طويلة ولا نهاية لها، التراب مليء بالنمل، وغوند فوقنا يبسط كفه فوق رؤوسنا، حول حلقنا، يضغط على صدورنا، يوغل غوند في بسط يده، نصرخ، يجب التفكير بريجينا، اللغاة التي بداخلنا، ريجينا التي نكرس كل حياتنا لنحفر لها محراباً في أعماق الغابة ولكن المسباق في النهاية كان بين بيندا وغوند، لم يبق سوى مسيرة خمس عشرة دقيقة، عشرين دقيقة للوصول إلى معسكر فيندتا، يجب الركض، ركض الأقدام وتتابع الأفكار، ولكن ها هي ذي خطواته تتابع على الدرب بنفس الانسجام والرتابة، وعندما يصل إلى الرفاق، ربما زال الخوف، ربما محي من أعماق الذاكرة، يجب أن تقذفه حتى حدود المستحيل. يجب التفكير بإيقاظ فيندتا وشابولا، لقد شرح له مفوض المنطقة أوامر فيكاتو، ويجب الذهاب بعد فيدنا إلى جيريونه انطلاقاً من سيربه..

ولكن هل عساه سيصل المنزل هناك؟ ألم يكن مشدوداً إلى خيط سحب، ورويداً رويداً يقترب المنزل منه؟ وإذا وصل ألن يسمع كلمات الألمان وهي تتردد، وهم ثابرون حول نار موقدة، ومنهمكون في التهام بقايا الكسقاء؟ ها هو ذا بيندا يتخيل نفسه وقد انتهى إلى منزل الرفاق ليجده وسط الحريق متصحراً، يدخل المنزل، إنه خاو، ولكن في زاوية من زواياه يثوي جندي معتمراً خوذة هائلة تملأ المكان، إنه غوند، عيناه مستديرتان ومضيتتان كعيني غيرو، ابتسامة الأسنان البيضاء تظهر بين شفاة متضخمة، يشير له غوند أن أجلس.. ربما جلس بيندا...

ها هو ذا، بعد مائة متر، ثمة ضوء إنهم هم، من هم؟ داهمته الرغبة في العودة والإياب إلى الورا، الرغبة في القرار، كأن كل أخطار العالم تكمن هناك في منزل بين كاستانيا، لكنه يواصل المسير، الوجه صارم ومغلق مثل قبضة يد.. الآن يبدو له أن النار تقترب بسرعة مفرطة، تتحلق حوله؟ هل يبتعد، هل يهرب؟ لكنه كان واقفاً في مكانه لا يريم، إنها نار المعسكر ولم تطفئ بعد، بيندا يعرف ذلك جيداً.

- من هناك؟

بصرخ الحارس ثم يردف:

- هذا أنت يا بيندا، هل من أنباء جديدة؟

- أنتم يا فيندتا؟

هاهو ذا بيندا داخل المنزل حيث ينام الرفاق، هذا طبيعي، ومن عساهم يكونون إن لم يكونوا رفاقه؟

- الألمان وصلوا إلى برافيا، والفاشيون في موليني، ارحلوا، عند الشفق يتوجه الجميع إلى بليرينو.

فيندتا الذي استيقظ للتو، والوسن ما زال يداعب أجفانه، قال:

- لتتحرك قداماً..

ثم ينهض. يخبط كفيه ويصرخ:

- استيقظوا لقد أزعج أوان الرحيل.

يتحلق بيندا حول قدر من الكستناء يغلي، يقشر الغشاء الذي يحيط بالثمرة. يهرع الرجال، يوزعون المهام فيما بينهم، يهيئون متاع الرحيل.

يقول بيندا بينما ينصرف:

-إني ماضٍ إلى سيربه، ثم إلى جيريونته...

يرد رفاقه:

-تسجع يا بيندا.

□□□

## صمت البحر – ذاك اليوم

للكاتب الفرنسي

فيركور<sup>(1)</sup>

■ ترجمة : مازن محمد علي المغربي ■

عن الفرنسية

صمت البحر

في ذكرى سان - بول - رو Saint-Pule-Roux

(شاعر كان قد اغتيل)

سبق قدومه عملية واسعة لنشر قوات عسكرية.

جاء أولاً نفران<sup>(2)</sup>، شديدا الشقرة، الأول طويل وبحيل والثاني ربعة،  
لهما أيدي عمال. راقبا المنزل دون أن يدخله. بعد ذلك جاء ضابط صف  
يرافقه نفر النحيل. تحدثا معي بلغة افترضوا أنها فرنسية. لم أفقه أية كلمة.  
ومع ذلك جعلتهم يرون الغرف الشاغرة. وبدا عليهم السرور.

في الصباح التالي افتحمت الحديقة عربة عسكرية مكشوفة. السائق  
جندي شاب نحيل، أشقر وبشوش. أخرج من العربة صندوقين ورزمة  
ضخمة ملفوفة بقماش رمادي. نقلوا الأمتعة إلى أوسع الغرف ورحلت  
العربة.

(1)- الاسم المستعار للكاتب الفرنسي جان برونلر.

(2)- استعملنا كلمة نفر الشعبية للدلالة على أنهما عسكريان دون أية رتبة وقد جاء هذا في  
النص الأصلي.

بعد بضع ساعات سمعت وقع حوافر خيل. ظهر ثلاثة فرسان. ترجّل أحدهم وزار المبنى الحجريّ القديم. رجع، ودخل الجميع، فرسانا ومطايًا، مخزن الحبوب الذي استُخدمه كمُشغل.

رأيت لاحقاً أنهم استعملوا مسند طاولة النجارة وأدخلوه في ثقب في الجدار وشدوا إليه حبلًا ربطوا به الخيل.

مضي يومان دون أن يحدث شيء. لم أعد أرى أحداً. كان الفرسان يخرجون على خيولهم منذ الصباح الباكر ويرجعون عند المساء وكانوا ينامون على التبن الذي فرشوا به الفسحة تحت الدرج.

في صباح اليوم الثالث رجعت السيارة الكبيرة. حمل الشاب البشوش جعبية كبيرة على كتفه ونقلها إلى الغرفة. ثم حمل حقيبتيه الخاصة ووضعها في الغرفة المجاورة. نزل وخاطب ابنة شقيقتي بفرنسية سليمة وطلب منها أعطية.

كانت ابنة أختي هي التي ذهبت لفتح الباب، عندما قرع. بعد أن قدمت لي القهوة للتو مثل كل مساء "القهوة تجعلني أنام". كنت جالساً في آخر الغرفة في ظلام نسبي.

بابنا يفتح على حديقة على مستوى أرض الغرفة وحول البيت رصيف من مربعات حمر، تظهر فائدته العملية عند المطر.

سمعنا خطوات، وقع أعقاب على المربعات. رمقتي ابنة شقيقتي ووضعت فنجانها من يدها.

أنا تركت فنجاني بين يدي.

لم تكن ليلة شديدة البرودة، تشرين الثاني من هذا العام لم يكن شديد البرد. رأيت الخيال الضخم، القبة المسطحة، والمعطف الواقي من المطر مرمياً على الكتفين مثل عباءة.



فتحت ابنة أختي الباب وظلّت صامته. شرعت الباب حتى التصق بالجدار، ثم استندت إلى الجدار وعيناها تحقان في الفراغ، أنا أرشفت قهوتي.

قال الضابط الواقف على العتبة: "إذا سمحتم". أوما برأسه محيياً. بدا أنه يقيس الصمت، ثم دخل.

انزلق البرنس على ذراعه، حيى بأسلوب عسكري ثم نزع قبعته. التفت إلى ابنة شقيقتي، ابتسم ابتسامة خفيفة وهو ينحني قليلاً بصدرة. ثم التفت إليّ وانحنى باحترام بشكل جديّ. قال: "أدعى" فرنر فون ابرناك" راودتني على الفور فكرة أن الاسم ليس ألمانياً ربما كان من سلالة مهاجر بروتستانتية؟. ثم أضاف: "أنا آسف".

نطق العبارة الأخيرة ببطء وبصوت خافت لذا سقطت عبارته في هوة الصمت. أغلقت ابنة أختي الباب وظلّهما مستند إلى الجدار، محدقة في الفراغ أمامهما. وضعت بيضاء فتجاني القارغ على الأرغن. شبكت يدي وانتظرت.

استأنف الضابط حديثه، قال: "كان هذا ضرورياً، ما كنت لأقدم عليه لولا الضرورة. سيبدل مرافقي كل جهودهم للحفاظ على طمأنينتك". كان واقفاً وسط الغرفة، ناحلاً وطويلاً، ولو رفع يده للمس عوارض السقف. رأسه منحني قليلاً نحو الأمام كما لو أن العنق ليس مغروساً بين الكتفين بل على الصدر. لم يكن أحذب لكنه بدا كذلك. فساعداه وكتفاه الضيقة كانت ملفنة للنظر.

وجهه مليح. كان رجولياً يميّزه أخدودان عند الوجنتين. لم تكن عيناها، المختبئتان في ظل حاجبيه مرتئيتين. خيل إليّ أنهما فاتحتا اللون. شعره أشقر أملس وممشط إلى الخلف ويلمع تحت نور النّريا. طال الصمت. صار أشد وطأة، تقبلاً وساكناً مثل ضباب الصباح.

جمود ابنة أختي في مكانها، وجمودي أنا زادا من وطأة الصمت،  
جعلاه في ثقل الرصاص.

أما الضابط المرتبك فقد ظل ثابتاً في مكانه دون حراك إلى أن رأيت  
ابتسامته تولد على شفثيه. كانت ابتسامته جادة دون أية سخرية. أتى بيده  
حركة فالتني إدراك دلالتها. توقفت عيناه عند ابنة شقيقتي، نظرته ظلت  
قاسية ومباشرة وتمكنت من التمعن في منظره الجانبي النافر وأنفه البارز  
النحيل. لاحظت بين شفثيه شبه المطبقتين بريق سن ذهبية. أزاح نظرته  
وحذق في نار المدفأة وقال: "أكن تقديراً عميقاً للأشخاص الذين يحبون  
وطنهم". رفع رأسه بصورة مفاجئة وتأمل تمثال الملك المنحوت فوق  
النافذة، وقال: "يمكنني الآن الصعود إلى غرفتي ولكني لا أعرف الطريق".  
فتحت ابنة أختي الباب الموصول إلى الدرج الصغير وارتقت الدرجات دون  
أن تلقي أية نظرة نحو الضابط كما لو كانت وحدها.

تبعها الضابط وعندها انتبهت أن إحدى ساقيه متصلة.

سمعتها يجتازان الباردة، صدى خطوات الألماني ملأت الممر،  
صوت خفيف يتلوه آخر قوي. فتح باب ثم أغلق. وعادت ابنة أختي. أخذت  
فنجانها واستأنفت شرب قهوتها. أشعلت غليوناً وظللنا صامتين بضع دقائق.  
قلت: "شكراً لله، يبدو أنه مهذب". رفعت ابنة أختي كتفيها وضعت سترتي  
المخملية فوق ركبتيها وأنهت خياطة الرقعة التي كانت قد بدأتها.

صباح اليوم التالي نزل الضابط أثناء تناولنا الإفطار في المطبخ. ثمة  
درج ثان يصل بين الطابق العلوي والمطبخ ولا أعلم إن كان الضابط قد  
سمعنا أم أنه سلك هذا الطريق بالصدفة.

توقف على العتبة وقال: "قضيت ليلة ممتعة، أمل أن ليلتكما كانت  
جيدة". نظر مبتسماً إلى المطبخ الواسع. فنظراً لكوننا لا نمتلك إلا قليلاً من  
الحطب وكمية أقل من الفحم، قمت بطلاء المطبخ ونقلت إليه بعض الأثاث

وبعض القدور النحاسية والأواني القديمة بحيث نندبر أمرنا لقضاء فصل الشتاء. تفحص الوضع وكنا نرى لمعان حواف أسنانه ناصعة البياض.

رأيت أن لون عينيه لم يكن أزرق كما ظننت بل ذهبي. أخيراً عبر الغرفة وفتح الباب المؤدي إلى الحديقة. خطا خطوتين ثم التفت ليتأمل منزلنا الواسع المغطى بالدوالي، وسطحه المرصوف باللبن. اتسعت ابتسامته.

-مختاركم العجوز قال لي أنني سأسكن في القصر، قال ذلك مشيراً بظاهر يده إلى المبنى الفخم هناك على التل والذي يمكن رؤيته عبر الأشجار العارية. ساهني رجالي على خطنهم. البيت هنا هو قصر أبيي.

ثم أغلق الباب وحيانا عبر الزجاج ومضى.

فسي المساء رجع في نفس موعد الليلة السابقة. كنا نشرب قهوتنا. قرع الباب لكنه لم ينتظر أن تفتح ابنة أختي الباب. فتح الباب بنفسه: "أخشى أنني أزعجكم، يمكن أن أمر عبر المطبخ إن كنتم تفضلون ذلك، في هذه الحال يمكنكم إحصاء هذا الباب". اجتاز الغرفة؛ وقف لبرهة ويده على مقبض الباب، وأجال بصره في كل أركان زاوية التدخين. وأخيراً حيّاناً بانحناءة خفيفة وقال: "أتمنى لكما ليلة هنيئة"، وخرج.

لم نوصد الباب. لمست متأكداً من أن عزوفنا عن ذلك كان له مبررات واضحة أو صافية تماماً.

باتفاق ضمني قررنا أنا وابنة أختي عدم إجراء أي تغيير على نمط حياتنا مهما كان تأقها كما لو أن الضابط غير موجود، كما لو أنه شبح. لكن من الوارد أنه كان هناك وراء هذا شعور آخر اختلج في صدري.

فلم يكن من السهل عليّ جرح امرئ حتى ولو كان عدواً.

تكرر المشهد يومياً لزمناً طويلاً، تجاوز الشهر. يقرع الضابط الباب ثم يدخل. يستقوه ببضع كلمات حول الطقس والحرارة أو حول مواضيع ذات أهمية مماثلة تشترك بأنها لا تقترض رداً. كان يتمهل على العبث ويدير

نظره في الغرفة. وابتسامة خفيفة تعبر عن متعته في هذا التفحص الذي تكرر يومياً بذات التلذذ. كانت نظراته تتمهل عند ابنة أختي المنحنية والتي لا يمكن أن يخطئ المرء ملاحظة جدبتها ولا مبالاتها. وعندما كان يحول نظره عنها كنت واثقاً من رؤية نظرة تحمل تقديراً ترافقه ابتسامة. بعدها كان يومئ برأسه ويقول: "أتمنى لكما ليلة هنيئة"، ثم يمضي.

تغيرت الأمور بشكل مفاجئ ذات مساء. في الخارج ندف ثلج مصحوبة بمطر غزير شديد البرودة. وضعت في الموقد حطباً سميكاً احتفظ به لمثل هذه الأيام. وعلى الرغم مني تخيلت الضابط يدخل مغطى بالثلج، لكنه لم يأت. تجاوزت الساعة موعد قدومه.

أزعجني إقراره أنه يشغل تفكيره. كانت ابنة أختي تحيك الصوف ببطء ويبدو عليها الانهماك في عملها.

وأخيراً؛ سمع وقع خطوات أتت من داخل المنزل. تعرفت على صدى خطوات الضابط غير الموزونة، أدركت أنه ولج من الباب الثاني وأنه قادم من غرفته. بدون شك لم يرغب في أن نراه يزي عسكري مبلل ينقص هيئته ولهذا بدّل ثيابه.

تناوبت خطوات ثقيلة وخفيفة على الدرج. فتح الباب وبان الضابط. كان في زيّ مدني، سروال من قماش سميك رمادي وسترته واسعة فضفاضة من السويد الأزرق موشى بحلقات بنية ارتداها بأناقة. وتحت السترة كنزة من الصوف النخين ملتصقة بجذعه الناحل مثل جذع مصارع الثيران.

عذراً، هذا ما قاله، أشعر ببرد. كنت مبللاً وغرقتي باردة، سألني بضغ دقات أصطلي ناركم. فرفض بصعوبة قبالة النار ومد يديه وصار يقلبهما متمتماً: هذا ممتع. دار حول نفسه معرضاً ظهره لوهج النار وظل مقرصاً ممسكاً بإحدى ركبتيه بيديه.

هذا شيء لا يذكر، الشتاء في فرنسا فصل لطيف. في بلادي الشتاء قاس. قاس جداً. الأشجار عندنا من السرو، غابات كثيفة، ينقلها الثلج. الأشجار هنا ناعمة يكسوها الثلج مثل ثوب خفيف. في بلادي يجب أن يكون المرء بقوة الثور كي يعيش، صلباً وقوياً. هنا نجد الروح والفكر الثاقب والشاعري.

كان صوته أجوف دون نبرة مميزة. اللحن في فرنسيته خفيف يشند عند لفظ الأحرف الساكنة القوية. مجمل حديثه مثل وشوشة ذات نغم. نهض. أسند ذراعه على العارضة فوق المدفأة وأراح جبينه على ظاهر يده. كان طويلاً إلى حد يجبره على الانحناء ليستند إلى العارضة التي كان ارتفاعها يتجاوز قمة رأسي.

ظل ثابتاً لبرهة دون كلام أو حراك. ابنة أختي تحيك بحويوة آلية. لم تتجه إليه بنظراتها ولو لمرة. كنت أدخن وأنا شبه مضطجع في أريكتي الواسعة اللينة. فكرت أن ثقل صمتنا لا يمكن اختراقه وأن الرجل سيحيينا ويمضي.

لكن الوشوشة الصماء ذات للحن علت من جديد دون أن تكسر الصمت بل كما لو أنه ولدت منه.

أحببت فرنسا على الدوام، قالها الضابط دون أن يتحرك. كنت طفلاً إبان الحرب الماضية وما جال في فكري حينئذ لا يمكن الاعتداد به. لكن بعد ذلك واطّبت على حبها لكنه كان حبا عن بعد، مثل أميرة بعيدة. توقفت لوهلة قبل أن يقول بصوت مجهذ: بسبب أبي.

التفت ويداه في جيبتي سترته. استند إلى عارضة المدفأة ورأسه ملتصق بالجدار. كان من حين إلى آخر، يحك مؤخرة رأسه مثل وعل. ثمّة أريكة بالقرب منه لكنه لم يجلس. أبداً لم يجلس حتى اليوم الأخير. لم ندعه نحن للجلوس ولم يقدم هو على أي تصرف يستشف منه نية رفع الكلفة. كرر:

بسبب أبي. كان يشتعل وطنية. أصابته الهزيمة بجرح أليم. لكنه أحب فرنسا. أحب بريان Briand وأمن بجمهورية فايمار وبرياند. كان حماسه شديداً وكان يقول عنه: "سيجمع بيننا مثل زوج وزوجة" أعتقد أن الشمس ستشرق في سماء أوروبا.

كان ينظر إلى ابنة أختي وهو يتكلم. لم ينظر إليها نظرة رجل إلى امرأة بل نظرته إلى تمثال. وفي الواقع كانت تمثالا، تمثالا حيا لكن يبقى تمثالا.

-هزم برياند. رأى أبي فرنسا تسلم قيادها لكبار بورجوازيكم القساء أشخاص مثل Wendell ومثل Henri Bordeaux ومثل مارشالك العجوز. قال لي: "يجب ألا تذهب لزيارة فرنسا إلا بعد أن تدخلها بزيك العسكري". اضطرت أن أقطع له وعداً بهذا فقد كان على مشارف الموت. وعندما نشبت هذه الحرب كنت أعرف سائر أنحاء أوروبا باستثناء فرنسا. ابتسم وقال كما لو أنه يقدم تفسيراً: -أنا موسيقي.

تهشمت حطية وتخرجت جمرات. انحنى الألماني وجمع الجمرات بملقط وتابع:

-أنا لست عازفاً. أؤلف قطعاً موسيقية. الموسيقى هي حياتي ولهذا أستغرب نفسي في دور المحارب ولكني لا أندم على نشوب هذه الحرب. لا.. أظن أنها ستؤدي إلى نتائج عظيمة.

رفع جذعه وأخرج يديه من جيبه وتركهما شبه مرفوعتين:

-اعذراني. ربما أسأت إليكما. لكن ما قلته هو ما يدور في ذهني عن حسن نية ومنطقي حب فرنسا. سيكون لهذه الحرب نتائج باهرة لكل من ألمانيا وفرنسا. وأظن، مثل أبي، أن الشمس ستسطع فوق أوروبا.

خطا خطوتين وانحنى ومثل كل مساء قال: "أتمنى لكما ليلة هنيئة"، ثم خرج.

أنهيت تدخين غليونني في صمت، سعلت وقلت: "ربما أنه من غير اللائق ألا نرد عليه ولو بكلمة واحدة". رفعت ابنة أختي وجهها ورأيت حاجبين مرفوعين يظللان عينيّين براقتين ومستاعيتين شعرت أنا بالخل.

منذ ذلك اليوم تغيّر نمط زيارته. لم نعد نراه في زيه العسكري إلا فيما ندر. كان يبذل ثيابه ثم يقرع بابنا. هل أراد إعفائنا من رؤية زي الأعداء؟ أو ربما أراد منا أن ننمسه؟ أراد كلا الأمرين دون شك. صار يقرع الباب ثم يدخل دون انتظار رد يعرف أنه لن يناله. فعل ذلك ببراءة طبيعية وكان يصطلي قُرب النار التي كانت حجة قدومه وهي حجة لم تتطل علينا أو عليه، ولم يسع هو لإخفاء طابعها الاتفاقي.

لم يأت كل مساء بالضرورة ولكني لا أذكر أية مرة جاء فيها وتركنا دون أن نتكلم.

كان ينحني باتجاه النار ويعرض جسمه لنفخ اللهب وتعلو وشوشته بلطف. استمر هذا لعشيات أفصح خلالها عن مكونات صدره.

تطرق إلى مواضيع شتى مثل وطنه والموسيقى وفرنسا، في مونولوج لا ينتهي. لم يسع أبداً للحصول على إجابة أو على موافقة ولا حتى على نظرة. لم يكن يطيل الحديث، لم يتجاوز أبداً مدة حديثه في الليلة الأولى. كان يتقوّه ببضع جمل يتخللها الصمت أحياناً أو متسلسلة برتابة صلاة أحياناً أخرى. كان يظل ثابتاً لصق المدفأة ويتقرب أحياناً من شيء ما أو من لوحة دون أن يقطع حديثه ثم يصمت وينحني متمنياً لنا ليلة هنيئة.

ذات مرة قال (كان هذا في بدء زيارته):

-أين يكمن الفرق بين النار عندنا وناركم هذه؟ يكمن الفرق في نوع الخشب لأن المدفأة واللهب متشابهان. لكن هذا لا ينطبق على الإنارة التي ترتبط بالأمشياء التي تغمرها ويسكن المكان وبالأثاث والجدران والكتب الموجودة على الرفوف..

لماذا أحب هذه الغرفة إلى هذا الحد؟ قال هذا بعد تفكير. ليست فائقة الروعة، عذراً، ضحك؛ وقال: قصدت أنها ليست غرفة في متحف.. لا يمكن القول أن أثاثكم رائع.. لا.. لكن لهذه الغرفة روحاً. هذه الدار بكاملها تمتلك روحاً.

كان قرب رفوف المكتبة وإصبعه تمرُّ على عناوين الكتب بلطف. "بالزك، بريس، بودلير، بولو، بوفون.. شاتوبريان، كورنيل، ديكرات، فينيلون، فلوبيير.. لافونتين، فرانس، غوتيه، هوغو.. ولم أصل بعد إلى موليير أو إلى رابليه أو راسين أو باسكال أو ستانداي أو فولتير أو مونتيني<sup>(١)</sup> ولا لكل الآخرين!..".

استمر في متابعة العناوين بإصبعه وأصدر بين فينة وأخرى صوتاً ينم عن دهشته، ربما بسبب قراءته لاسم لم يخطر بباله.

عندما نذكر الإنكليز يتبادر إلى الذهن على الفور شكسبير. وعندما نذكر الإيطاليين نفكر في دالتي، والنسبة لإسبانيا نجد سرفانتس. أما فيما يخصنا نحن فهناك غوته. وبعدها يجب إسماعيل الفكر لكن إذا ذكرنا فرنسا؟ من أول من يتبادر إلى الذهن على الفور؟ موليير؟ راسين؟ هوغو؟ فولتير؟ رابليه؟ ومن غيرهم؟ يتدافعون مثل جمهور محتشد أمام المسرح لا ندري من هو الأجدر بالدخول أولاً.

التفت وقال بصوت جاد:

-أما فيما يخص الموسيقى فهذا مجالنا نحن باخ، هايندل، بيتهوفن، فاغنر، موتزارت.. أيهم يأتي في المقدمة؟

ومع هذا نحاربنا! قالها ببطء وهو يهز رأسه. رجع قرب المدفأة واستقرت عيناه، مبسمتين، على جانيبة ابنة أختي. لكن هذه هي المرة

(١)-كتاب فرنسيون من عهود مختلفة.



الأخيرة" لن نتحارب بعدها؛ سنرتبط معاً" انطبقت أجفانه وازداد بروز الأخدودين على وجنتيه وبانت الأسنان البيضاء.

قال بفرح: "أجل.. أجل!" وأكّد كلامه بإيماءة من رأسه. تابع: "عندما دخلنا مدينة سانت ساعدت لكون الشعب استقبلنا بترحاب. كنت سعيداً للغاية"، فكّرت أن الأمر سيكون سهلاً ثم ما لبثت أن رأيت أن الوضع مختلف تماماً، لم يكن الأمر سوى محض جبن". اكتسى وجهه مظهراً جدياً؛ وقال: احتقرت أولئك الأشخاص، انتابتنى المخاوف فيما يخص فرنسا وفكّرت هل صحيح أنها وصلت إلى هذا الدرك؟ هز رأسه: "لا! لا. وفيما بعد، الآن، سعدت لمرأى وجه فرنسا الصارم".

التقت نظرته بنظرتي -أشحت بنظري- تأمل عدة مطارح في الغرفة، وعاد بنظره إلى ذاك الوجه الذي ظل صارماً دون أية رحمة.

-أنا سعيد لأنني وجدت هنا كهلاً محترماً وآمنة صمونة. يجب قهر هذا الصمت. يجب قهر صمت فرنسا. هذا يروق لي. نظر بصمت، إلى ابنة أختي، نظر إلى السن الجانبيّة الجميلة العنيدة والصارمة، كانت نظرته تحمل إصراراً وجدية وتبدو فيها آثار ابتسامة. أحست ابنة أختي بالأمر. لحظت احمراراً خفيفاً على وجهها، وبدت عقدة بين حاجبيها. كانت أناملها تعمل بحدة وبقسوة، بحيث صار من الوارد انقطاع خيط الصوف.

-أجل، استأنف الصوت ببطء، الأمر أفضل هكذا. أفضل بكثير. سيكون اتحاداً متيناً يضيف عظمة على الطرفين.. هناك حكاية جميلة تحكي للأطفال، قرأتها أنا وقرأتموها أنتم وكل العالم. لا أعرف إن كانت تحمل ذات العنوان في البلدين. في وطني نسميها "الحساء والوحش". يا للحساء المسكينة! كانت تحت رحمة الوحش، كانت عاجزة وحبيسة، فرضت عليه طوال اليوم وجودها المحتوم.. والمزعج.. الحساء ذات كبرياء وفخورة، تظاهرت بالقسوة.. لكن معدن الوحش كان أفضل مما ينم عنه مظهره. لم

يستلق ما يكفي من قواعد التهذيب! كان أخرق وفضاً وبدا مفتقداً للياقة بالمقارنة مع الحساء فاتقة الرقة!.. لكنها لم تكن بلا قلب، بلى روحها تصبو إلى السمو لو شاعت.. استغرق الأمر وقتاً حتى أرادت الحساء ذلك، وشيئاً فشيئاً وجدت في أعماق عيني السجان الكريه بريقاً يمكن أن يستشف منه الرجاء والحب.

شعرت أن سلطته أقل إزعاجاً وأن سلامتي قيودها أقل ثقلاً.. كنت عن السبغ ومستها إصراره فمدت يدها.. وسرعان ما تحول الوحش. تلاشي السحر الذي كان يسجنه في شكله الهمجي وصار فارساً جميلاً ونقياً، مهذباً ومعتزلاً وكانت كل قبلة جديدة من الحساء تظهر مزاي أكثر بريقاً.. اتحداً في سعادة سامية. أما أولادهما الذين ورثوا مزاي كلا الوالدين فقد كانوا أروع ما أتجته الأرض..

«ألا تحبون هذه الحكاية؟ أحببتها على الدوام. قرأتها مراراً، وأبكتني. أحببت الوحش بشكل خاص لأنني كنت أفهم معاناته. وحتى الآن أشعر بالانفعال عند الحديث عنها»

<http://Archivebeta.Sakhi.com>

سكت، أخذ نفساً عميقاً وانحنى: "أتمنى لكما ليلة هنيئة".

ذات مساء كنت قد صعدت إلى غرفتي لأجلب ثيغاً، سمعت صوت الأرض يعلو بمقدمة باخ الثامنة وكانت ابنة شقيقتي تتدرب عليها قبل انهياب الجيش "الفرنسي". دفتر النوتة ظل مفتوحاً على هذه الصفحة ولم تكن ابنة أختي قد عادت للتدريب حتى هذه العشية. استئنافها التدريب ولدي شعوراً بالسعادة والدهشة، ما الدافع الداخلي الذي انتابها فجأة؟

لم تكن هي، لم تبرح أريكتها ولم تترك كتابها. التقت نظراتها بنظراتي برسالة لم أفقه كنهها. تأملت الجذع الطويل المنحني أمام الأداة الموسيقية، الرقة المشربنة والأيدي الطويلة الرقيقة العصبية وأصابعها تنتقل على الآلة مثل أشخاص مستقلين.

عزف المقدمة ثم توقف. نهض واتجه إلى المدفأة.

لا يوجد ما هو أعظم من هذا، قالها بصوته الذي لم يكن يعلو الهمس. "عظيم؟.. حتى هذه الكلمة لا تكفي. إنه يفوق قدرة الإنسان ويتجاوز حدوده. هذا يجعلنا نفهم، لا بل يجعلنا نستشف.. أعني نستشعر، بلى نستشعر كنه الطبيعة.. الطبيعة الإلهية العسية على المعرفة.. وطبيعة الروح الإنسانية. أجل هذه موسيقى أسمى من البشر."

بدا في صمته كأنه يسير أغوار فكرته. عض على شفته ببطء.

سأخ لا يمكن أن يكون إلا ألمانياً، فأرضنا تمتلك هذا الطابع، هذا الطابع اللإنساني، أعني الذي يتجاوز حجم الإنسان.

فترة صمت ثم قال: أحب هذه الموسيقى وأقدرها، فهي تملأ كيائي، تخترقي مثل الوجود الإلهي، لكنها ليست موسيقاي.

أريد أن أضع موسيقاي الخاصة، موسيقى على قياس الإنسان، هذه إحدى الطرق لبلوغ الحقيقة. إنها طريقي أنا. ولا أريد اتباع طريق أخرى. هذا أمر أدركته الآن، أعرف هذا. أعرفه تماماً. منذ متى؟ منذ أن سكنت هنا.

أعطانا ظهره وأسند يديه على عارضة المدفأة. شد أصابعه عليها ومن بين ذراعيه، عرض وجهه للهب، كما لو كان خلف قضبان سياج. صوته صار أكثر وشوشة:

-الآن أحتاج فرنسا. ولكني أطلب الكثير. أطلب أن ترحب بي. فمن غير المفيد أن أكون هنا كغريب مثل مسافر أو غازي. فهي لا تقدم شيئاً في مثل هذه الحالة لأنه من غير الممكن انتزاع شيء منها. ثراؤها، ثراؤها الفائق عصي على الفاتح. يجب أن نرضع منها. أن نعطينا أئدائها بأموه.. أدرك أن الأمر منوط بنا نحن، لكنه يتعلق بها أيضاً. يجب أن نفهم مدى عطشنا وأن نقبل إرواءه.. أن نرضي بالاتحاد معنا.

شدُّ جذعه دون أن يلتفت إلينا وأصابه مشدودة على الحجر.  
-أنا، قالها بصوت أكثر علواً، يجب أن أعيش هنا لمدة طويلة، في بيت مماثل لهذا. كما لو كنت ابن قرية مثل هذه.. يجب أن..  
صمت. التفت نحونا. كان فمه مبتسماً، أمّا عيناه فلا! كانتا محدقتين في ابنة أختي.

-سيتم تجاوز العقبات. فالنوايا الطيبة تتجاوز العوائق دوماً.  
"أتمنى لكما ليلة هنيئة".

لا أقدر، في يومنا هذا أن أتذكر كل ما قيل خلال ما يزيد عن مائة عشيبة خريفية. فقلما كانت المواضيع تتغير. كانت مثل تلك القصائد التي غناها الشعراء الجوالون. تطرق فيها لاكتشافه فرنسا ولحب الذي حمله لها عن بعد قبل أن يتعرف إليها. والعشق المتصاعد كل يوم الذي كان يشعر به منذ أن ذاق سعادة العيش فيها.

كنت معجباً به. أجل لم تكن همنة تفكر. ولم يحاول البتة هز الصمت العنيد بأية عبارات عنيفة.. بل على العكس، ففي المرات التي ترك فيها الصمت ينتشر إلى كل زوايا الغرفة ليملأها مثل غاز ثقيل على النفس كان يبدو أكثرنا استرخاء. في مثل تلك الحالة كان يراقب ابنة أختي بنظرة تقدير مبتسمة وجادة هي تلك التي امتاز بها منذ اليوم الأول.

كنت أحسُّ بروح ابنة أختي مهتاجة في ذاك السجن الذي رفعت هي أسبواره، كنت ألحظ هذا عبر العديد من الدلالات، ألقها ارتجاف خفيف في الأصابع. وعندما كان "فرنفون ايبيرناك" يبدد هذا الصمت بلطف دون عنف عبر صوته الموشوش، كنت أحسُّ بقدر أكبر من حرية التنفس.

كثيراً ما تكلم عن نفسه:

-ولدت في بيتنا في الغابة. درست في مدرسة القرية في الطرف الآخر ولم أغادر القرية إلا إلى ميونيخ بسبب الامتحانات وإلى سالسبورغ بسبب

الموسيقى واستقرت فيها. لم أكن أهوى المدن الكبيرة. عرفت لندن وفيينا وزوما وفارصوفيا إلى جانب المدن الألمانية طبعاً. لم أحب العيش فيها. أحببت براغ كثيراً. ليس هناك من مدينة أخرى تتمتع بمثل هذا القدر من الروح. كم أحببت نورنبرغ؟ هي بالنسبة للألماني أكثر المدن قدرة على دغدغة المشاعر؛ حيث يجد فيها الأشباح العزيزة على قلبه، وحيث كل حجر يحمل ذكرى أولئك الذين صنعوا أصالة ألمانيا القديمة. أظن أن الفرنسيين ينتابهم إحساس مماثل أمام كاتدرائية شارتر<sup>(١)</sup>، لا بد أنهم يحسون هناك وجود أجدادهم ويحسون بعظمة الروح والإيمان وكذلك يحسون مدى لطفهم.

قادتني الأقدار إلى شارتر. كم هي رائعة عندما تبين مشرفة على القمح الناضج. تبدو عن بعد زرقاء وشفافة، روحانية، يا له من إحساس عظيم! تخيلت إحساس أولئك الذين كانوا يأتونها فيما مضى، سيراً على الأقدام، أو على ظهور الخيل أو في عربات. قاسمتهم مشاعرهم وأحببتهم ولكم وددت مؤاخاتهم.

ARCHIVE

أظلم وجهه: <http://Archivebeta.Sakhril.com>

- لا شك أنه من الصعب سماع هذا من شخص زار شارتر في عربة مدرعة.. لكنه حقيقي. كم هي كثيرة الأمور التي تتداخل في نفس الألمان، حتى أخيرهم. وكم يمتنى الألماني الشفاء من هذا الوضع. ابتسم ثانية، ابتسامة خفيفة أنارت وجهه تدريجياً ثم تابع:

- في القصر المجاور لبيتنا كانت هناك فتاة.. رائعة الجمال ورقيقة. سعد أبي لفكرة زواجي بها. عند وفاته كنا شبه مرتبطين بخطبة، سمح لنا بالقيام بنزهات طويلة دون رفيق.

انتظر، قبل أن يكمل، أن تنتهي ابنة أختي من تمرير خيط جديد بدلاً من

(١) - تحظى هذه الكاتدرائية بمكانة مميزة في التاريخ الفرنسي فيها كان يتم تنويع ملوك فرنسا القدامى.

ذاك الذي انقطع. أنجزت ذلك باهتمام واضح.

لكن النقب كان فائق الصغر وكان الأمر صعباً وأخيراً أنجزت الأمر.

- ذات يوم كنا في الغابة.. تقالت أرانب وسناجب أمام ناظرينا. كان هناك مختلف أنواع الورود، مختلف أنواع النرجس. كانت الفتاة تصيح فرحاً. قالت: "أنا سعيدة يا فرنر أنا أحب عطايا الله". كنت سعيداً بدوري. تمددنا على العشب وسط السرخس. كففتنا عن الحديث. نظرنا إلى قمم أشجار الصنوبر تتمايل والعصافير تتقاذف فوق الأغصان. صرخت الفتاة قائلة: "لقد قرصت ذنبي هذه الحشرة القذرة، الناموسة اللعينة!". رأيتها تأتي بحركة سريعة بيدها "قبضت على واحدة يا فرنر. انظروا! سأعاقبها سأنتزع أرجلها الواحدة تلو الأخرى، وقامت بذلك.. لحسن الحظ، -تابع كلامه- كان لديها معجبون آخرون فلم أشعر بتأنيب الضمير. لكن أصابني رعب دائم فيما يخص الفتيات الألمانيات".

نظر بتمعن إلى باطن يديه؛ وقال: هكذا هم السياسيون عندنا.

ولهذا السبب لم أود أبداً الانضمام إليهم على الرغم من دعوات أصدقائي الذين كتبوا إلي طالبين مني الاشتراك معهم إلا أنني فضلت على الدوام البقاء في منزلي. لم يكن هذا مفيداً على سعيد الموسيقى لكن هذا غير مهم، فأهمية النجاح لا تقارن براحة البال. في الواقع أعتقد أن أصدقائي وقائدنا يحوزون أعظم الأفكار وأنبليها ولكني مقتنع أنهم سينتزعون أرجل البعوض الواحدة تلو الأخرى.

هذا ما يصيب الألمان عندما يكونون معزولين، وتتصاعد حدة الوضع باستمرار، وهل هناك من هو أشد عزلة من أشخاص ينتمون لحزب واحد ويهيمنون على السلطة؟

"لحسن الحظ لم يعودوا وحيدين لقد دخلوا فرنسا وهم يعرفون أن فرنسا ستعلمهم أن يكونوا رجالاً عظماء وأنقياء فعلاً". اتجه نحو الباب وقال

بصوت متحفظ كأنه يكلم نفسه: لكن هذا يتطلب الحب. ظلّ لوهلة ممسكاً  
بالباب المفتوح ووجهه ملتفت، ينظر من فوق كتفه إلى مؤخرة عنق ابنة  
أختي المستغرقة في عملها، عنقها الرقيق الشاحب حيث ترتفع خصلات  
شعرها البنيّ.

أضاف بنبرة تقريرية هادئة: حب متبادل.

ثم أدار رأسه وانغلق الباب وهو يتمتم عبارته اليومية: "أتمنى لكما ليلة  
هنيئة".

جاءت الأيام الربيعية الطويلة. صار الضابط ينزل مع آخر خيوط  
الشمس. ظلّ يرتدي سروالاً من القانيل الرمادية، واستبدل سترته بأخرى  
أخف من الصوف البني السميك فوق قميص كتاني مفتوح الياقة.

نزل ذات مساء ممسكاً بكتاب أغلقه على سبابته. لاح على وجهه  
مشروع ابتسامة أفضحت عن أمل في إبعاد شخص آخر. فتح الكتاب وقال:  
- جلبت هذا لأريكم إيّاه. هذه صفحة من ماكيب<sup>(١)</sup>. يا للعظمة!

فتح الكتاب: هذه هي الخاتمة. قوة ماكيب نقلت من يده هاربة مع أولئك  
الذين أدركوا أخيراً مدى قتامة طموحاته. للسادة النبلاء المدافعون عن شرف  
اسكتلندا ينتظرون دمارها القريب. واحد منهم يصف أعراض انهيارها  
المأساوية..

قرأ يتمهل، بفخامة وقورة:

أنغوس

الآن يحس بجرائمه السرية ملتصقة بيديه. في كل دقيقة يقوم رجال  
شرفاء ناقمون بلومه على سوء طوئته أتباعه يطيعون الخشية ولم يعودوا  
يطيعون الحب. صار يرى لقبه يدور حوله فضفاضاً مثل ثوب عملاق على

(١) - من مسرحيات شكسبير.

جمد قزم قام بسرقة.

رفع رأسه وابتم. تساءلت بدهشة إن كان يفكر بالمستبد الذي تبادر إلى ذهني. لكنه قال:

-أليس هذا ما يقلق ليل أمير الكم؟ أشفق علي هذا الرجل على الرغم من الاحتقار الذي يولده في نفسي وفي نفوسكم أيضاً. أتباعه يطيعون الخشية لا المحبة. القائد الذي لا يحظى بحب أتباعه هو تمثال حقير. إنما هل كان بإمكاننا أن نأمل إلا بياتس طموح ليرضى بهذا الدور<sup>(١)</sup>؟ كان هذا ضرورياً. أجل كان من الضروري العثور على أحد ما يرضى ببيع وطنه حيث أن فرنسا لن ترضى اليوم ولمدة طويلة بالاستسلام لنا طوعاً دون أن تفقد احترامها لذاتها. أحياناً يلعب أكثر سماسرة الهوى قذارة دوراً في إنجاح أسمى العلاقات.

وهذا الدور لا يجعل رسول الهوى أقل جدارة بالاحتقار، ولا يجعل التحالف أقل سعادة.

أغلق الكتاب مكدداً صوتاً ودفنه في جيب منتراته وبحركة آلية ربت مرتين على جيبه براحة يده، أشرق وجهه الطويل بتعبير سعيد وقال:

من واجبي إخطار مضيفي بغيايبي لأسبوعين. أنا سعيد لأنني ماض إلى باريس. حل دوري في الإجازات سأقضيها في باريس للمرة الأولى. إنه يوم عظيم من أيام حياتي بانتظار يوم آخر أمل من كل قلبي قدومه والذي سيفوقه عظمة. سانتظر سنوات إن اقتضى الأمر قلبي قادر على صبر طويل.

أظن أنني، في باريس، سأرى ثلثة من أصدقائي يحضر عدداً منهم المفاوضات التي تجريها مع سياسيينكم بهدف التحضير للاتحاد الرائع بين شعبينا. وهكذا ساكون بمثابة شاهد على هذا القرن.. أود أن أنبئكم بأنني

(١)-إشارة إلى زعيم المتعاونين مع المحتل النازي.



مسعيد لفرنسا التي ستبرأ جراحها سريعاً بفضل هذا، كما أنني فرح لألمانيا ولنفسى!

لم يحقق أحد مكاسب من مبادرته الحسنة بمقدار ما ستحققه ألمانيا عندما ستعيد لفرنسا عظمتها وحريتها!  
 "أتمنى لكما ليلة هنيئة".

### القسم الثاني

لم نره عندما عاد.

عرفنا بوجوده لأن وجود ضيف في البيت يكشف نفسه بالعديد من الدلائل ولو كانت غير مرئية. لكن لأيام عديدة تجاوزت الأسبوع لم نره.

هل عليّ الإقرار أن غيابه أقلقني؟ فكرت فيه، لا أدري إلى أي مدى شعرت بالقلق. لم نتطرق أنا أو ابنة أختي للموضوع. لكن عندما كنا نسمع أحياناً في الأعلى، وقع الخطوط غير المتساوية كنت ألاحظ من انهماكها المفاجئ بعملها ومن تبدلات قسماات وجهها المعبرة عن العناد والاهتمام أنها بدورها لم تكن بمنأى عن هواجس مماثلة.

ذات يوم كان عليّ الذهاب إلى مركز القيادة الألمانية للتصريح عما أمتلكه من عجلات سيارة<sup>(١)</sup>.

وبينما كنت أملاً الاستمارة التي أعطوني إيّاها خرج فرنر فون اببرناك من مكتبه. لم يرني في البداية، كان يكلم الرقيب الجالس إلى طاولة صغيرة مقابل مرآة مثبتة في الجدار. سمعت صوته الأجوف المنغم وظللت في مكاني على الرغم من أنه لم يعد هناك ما أفعله ولم أدرك سبب انفعالي الغريب منتظراً مخرجاً ما. رأيت انعكاس وجهه في المرآة بدا لي شاحباً

(١) - عرضت سلطات الاحتلال النازي على المواطنين التصريح عن كل ما يمتلكونه من أشياء يمكن أن تفيد المجهود الحربي.

وناحلاً. ارتفعت عيناه والنقّتا بعينيّ، اشتبكت أعيننا لثانيتين، وفجأة استدّار على كعبيه وصار في مواجهتي. انفرجت شفّاه ببطة، ورفع يده بحركة خفيفة وسرعان ما أنزلها. هزّ رأسه خلسة كأنه يقول لنفسه "لا" دون أن يرفع نظره عني ثم أوماً بالحناءة تاركاً نظراته تنزلق إلى الأرض ورجع وهو يعرج، إلى مكتبه حيث حبس نفسه.

لم أخبر ابنة أختي بشيء مما حدث. لكن للنساء قدرة حدس عجيبة. لم تتوقف، طوال المساء عن رفع نظرها عن عملها وتركيزه عليّ في محاولة لالتقاط أية إشارة في وجهي الذي جهدت في جعله عصياً على الاختراق. أحكمت إطباق فمي على غليوني. وأخيراً أرخت يديها كما لو كانت تعباً، طوت القماشة واستأذنت بالذهاب مبكرة إلى النوم.

أسمرت أصابعها على جبينها كأنها تحاول التخلص من صداع. قبلتني وخيل إليّ أنني رأيت في عينيها الرماديتين الجميلتين عتياً ممزوجاً بحزن. بعد ذهابها أحسست بغضب غامض بجفاحتي، غضب سببه أنني غريب وأن ابنة أختي غريبة. ما هذه الحمافة؟ لم أكن أملك رداً. إن كان الأمر حمافة فيبدو أنها حمافة متجذرة.

بعد ذلك بأيام ثلاث، وكنا قد فرغنا لتونا من شرب قهوتنا سمعنا وقع الخطوات المعهودة. تذكرت فجأة العشية الخريفية التي سمعنا فيها، قبل ستة أشهر، تلك الخطوات للمرة الأولى. راودتني فكرة أن هذا اليوم ماطر أيضاً.

كان المطر ينهمر بغزارة منذ الصباح. مطر عنيد ومنظم أغرق كل ما في الجوار وغطى داخل البيت بجو بارد ولزج. كانت ابنة أختي غطت كتفها بمربع حريري مطبوع عليه صورة أيدٍ عشر تتبادل الاتهام بحركة تعوزها الشدة رسمها جان كوكتو، وكنت أحاول تدفئة أصابعي بنار غليوني رغم أننا كنا في شهر تموز!

اجتازت الخطوات الممر وبدأت الدرجات تهتز تحتها. نزل الرجل بببطء، بببطء متصاعد لكن دون تردد، مثل شخص يخضع لإرادته لامتحان عسير. رفعت ابنة أختي رأسها ونظرت إلي، ركزت علي، خلال كل ذاك الوقت، نظرة لا إنسانية تخترق المرء مثل نظرات طائر البوهة. أطلقت آخر الدرجات صرخة تلاها صمت، عندها طارت نظرات ابنة أختي، ورأيت جفنيها متناقضين، ومال رأسها واستند جسمها بتعب إلى ظهر الأريكة.

لا أظن أن ذاك الصمت طال أكثر من ثوان. لكنها ثوان طويلة. خيل لي أنني أرى الرجل خلف الباب يرفع سبابته مستعداً لقرع الباب وأنه يؤخر حركته كأنه، عندما سيقرع الباب، سيكيل المستقبل بالتزام.. وأخيراً قرع الباب دون خفة أو تردد ودون العنف الناتج عن قهر الخجل كانت ضربات ثلاث حازمة وبطيئة، قرعات وثيقة وهادئة<sup>(١)</sup>. تعلن قراراً لا رجعة فيه. توقعت أن أرى الباب يفتح كما حدث عليه العادة في السابق، لكنه ظل مغلقاً، وهكذا اجتاحتني انفعال لا يمكن كبحه اختلط فيه تساؤل ورغبات متعارضة وبدأت أظن أن كل ثانوية تمرُّ أسرع من سابقتها مما زاد من اضطرابي. هل يجب أن أجاوب برد؟ لم هذا التغيير؟ لماذا ينتظر منا في هذا المساء قطع حبل الصمت الذي أظهر هو غير تصرفاته السابقة مدى تقديره لـه ولاستمراريته؟ ما هي الالتزامات التي تفرضها الكرامة هذا المساء وأركز على هذا المساء؟؟

نظرت إلي ابنة شقيقتي لالتقط من عينيها بادرة تشجيع أو إشارة لكني لم أصادف إلا جانب وجهها كانت تراقب قبضة الباب. راقبته بثبات لا إنساني بنظرة البوهة، التي سبق أن صدمتني، كانت شديدة الشحوب، ورأيت بياض أسنانها، وشففتها العليا متقلصة ألماً. وهكذا فقدت ما تبقى من قواي أمام هذه المأساة الحميمة، التي كشف عنها النقاب فجأة، والتي تجاوزت

(١) - الضربات الثلاث كانت تستعمل في الماضي لإعلان بدء العرض.

تجاوزت بمداهها قلقي البسيط. في هذه اللحظة قرع الباب مرتين.

فقط ضربتتين، ضربتتين خافتتين وسريعتين، قالت ابنة أختي: "سوف يمضني" صوتها كان خافتاً ومحبطاً فلم أتمكن أكثر وقلت بصوت واضح: "تفضل يا سيد".

لماذا أردفت دعوتي بعبارة يا سيد؟ هل لأبَيّن أنني أدعو الإنسان وليس الضابط العدو؟ أم بالعكس لأبرهن أنني لا أجهل من الطارق وأني أوجه خطابي إليه؟ لست أدري. هذا غير مهم. المهم أنني قلت تفضل يا سيد وأنه دخل.

توقعت رؤيته في زي مدني، ولكنه كان يرتدي الزي العسكري. يمكنني القول إنه لم يكن قد بدا بمظهر عسكري أكثر من هذه المرة فقد بدا لي واضحاً أنه قصد أن يفرض علينا رؤية اللباس العسكري. أسند الباب إلى الجدار وظل واقفاً في الفتحة، منتصباً القامة وقاسياً بحيث راودني شك في كوني أمام ذات الرجل الذي وجدته في اللقاء الأول شبيهاً إلى حد مدهل بالممثل لوي جوفيه.

ظل هكذا عدة ثوان منتصباً، مشدوداً وصامتاً، للقنمان متباعدتان قليلاً واليدان مرخيتان على امتداد الجسد، والوجه بارد وجامد القسما؛ بحيث بدا لي أن كل المشاعر هجرته. كنت جالساً على أريكتي الطرية ووجهي عند مستوى يده اليسرى. كنت أرى تلك اليد، انجذبت عيناى إلى تلك اليد وظللتا عالقتين بها بسبب مظهرها المعبر الذي يكذب ظاهر تصرفات الرجل..

أدركت عندها أن اليد يمكن أن تفصح للمراقب، مثلها مثل الوجه، عما يعتمل من انفعالات فهي تفلت من سيطرة الإرادة. تتقلص الأصابع وتسترخي، تتشابك مظهرة بدقة ما يجول في السريرة في حين يبقى الوجه وسائر الجسد جامدين بتصنع.

ثم بدا أن الحياة دبت مجدداً في العينين اللتين توقفتا عندي للحظة،

راودني شعور أن عين صقر تراقبني، عينان برّاقتان بين أجفان متشنجة، أجفان متجعدة وجافة تتم أن صاحبها عانى الأرق. انتقلت العينان نحو ابنة أختي واستقرتا هناك. وجمدت اليد.. الأصابع كلها مثنية ومتقلصة، انفرجت الشفتان وأصدرتا صوتاً مماثلاً لصوت نزع فليئة تسد زجاجة فارغة، قال الضابط بصوت أجوف أكثر من المعتاد:

-عليّ أن أقول لكم عبارات خطيرة.

كانت ابنة أختي في مواجهته لكنها أرخت رأسها. كانت تلف حول أصابعها خيط كرة صوف صارت تتدحرج على السجادة. كان ذلك هو العمل الوحيد الملائم لحالتها والذي يوفر عليها الإحراج.

استأنف الضابط حديثه وكان الجهد المبذول واضحاً كما لو كان حديثه سيكلفه حياته:

"كل ما قلته خلال هذه السهرة، كل ما سمعته جدران هذه الغرفة.." أخذ نفساً بجهد مثل مصاب بالربو، وحبسه للحظة نافخاً صدره.. "يجب.." وزفر قاتلاً: "يجب تسياته".

تركت الفتاة يديها تسقطان ببطء في وهدة ثوبها حيث استقرتا خامدتين مثل جذعين على الرمال، رفعت رأسها ببطء وللمرة الأولى، أجل للمرة الأولى قدمت للضابط نظرة من عينيها الشاحبتين.

قال بصوت بالكاد سمعته وبلغته الألمانية: يا له من نور، لم يكن ما قاله همساً كما لو أن عينيهِ لم تقدر حقيقة على تحمل ذلك النور، فسترهما بقبضته لثانيتين ثم ترك قبضته تسقط بعد أن أسدل جفنيه وصار دوره هو أن يرخي بصره إلى الأرض..

انفرجت شفتاه عن صوت غريب: رأيت أولئك الرجال المنتصرين. واستأنف بعد ثوان بصوت أشد خفوتاً: حادثتهم، وأردف هامساً بمرارة لقد سخروا مني. رفع نظره إليّ وهزّ رأسه مرات ثلاث، ثم أسدل الجفنين:

قالوا: "ألم تترك أننا نخدعهم؟" قالوا هذا بالحرف. وقالوا: "هل كنت تتوقع منا أن نتصرف بغيا ونترك فرنسا تنهض مجدداً عند حدودنا؟ لا؟" ضحكوا ملء الأثدق. ربتوا بفرح على ظهري محدقين في وجهي وقالوا لسنا موسيقيين!

عند هذه الكلمات أفصح صوته عن احتقار لست أدري إن كان يعكس مشاعره الحقيقية تجاه أولئك الرجال أم تجاه أقوالهم.

تكلمت مطولاً، بكثير من الانفعال. لم يعجبهم حديثي، قالوا: "السياسة ليست حلم شاعر. ولماذا برأيك شئنا الحرب؟ من أجل عيني مارشالهم العجوز؟" (١) ضحكوا من جديد، وقالوا: لسنا مجانين ولا سذجاً. في يدنا فرصة لتدمير فرنسا ولن نضيعها. لن نكتفي بتدمير قوتها بل روحها. روحها في المقام الأول. روحها مصدر الخطر الأكبر. هذا ما نفعله حالياً فلا نخدع نفسك يا عزيزي! سنقضي عليها بانقساماتنا وبأساليبنا وسنجعل منها كلباً مطيعاً".

صمت. وبدأت أفقد أنفاسه. أطبق فكيه بقوة شدة وجنتيه وأبانت وريداً سميكاً وملنوياً مثل دودة صار ينض بقوة تحت صدغيه.

وفجأة انتفضت قسما وجهه كما لو هزها زلزال، مثل بحيرة ساكنة ألقي فيها حجر، ومثل طبقة قشدة تتشكل على سطح حليب بعد غليه. تعلقت عيناه بعيني ابنة أختي الشاحبتين والمتسعتين؛ وقال بصوت خافت رتيب وكثيف ومختنق، وببطء من يعاني: ليس هناك من أمل. وأردف بصوت أخف وأبطأ كما لو أنه يعذب نفسه بهذا الإقرار الذي لا يمكن تحمله: "لا أمل.. لا أمل" وفجأة صاح بصوت قوي فاجأني وضوحه ونبرته كما لو كان صوت بوق: ليس هناك أمل.

(١) - تلحج إلى المارشال بيتان بطل الحرب الأولى والذي قاد حكومة "فيشي" التي تعاونت مع الحكم النازي إثر الهزيمة.

تلا ذلك صمت.

خيل لي سماعه بضحك، جبينه المعقود والمتغضن يشبه حبلًا ثخينًا، شفاه مضطربتان مثل شفاه عليل، محمومة وشاحبة.

-لاموني بشيء من الغضب، قالوا: ترى جيدًا! أنت ترى مدى حبك لها! لكننا سنشفي أوروبا من هذا الطاعون! سنطهرها من هذا السم!". شرخوا لى.. لم يتركوا شيئاً لم يقلوه. هم يمدحون كتابكم لكن في ذات الوقت أقاموا سدا بينهم وبين بلجيكا وهولندا. لم يعد من الممكن مرور أي كتاب فرنسي باستثناء الكتب التقنية مثل كتب الفيزياء أو معادلات استخدام الإسمنت.. أما مؤلفات الثقافة العامة فلا! طارت نظراته من فوق رأسي واصطدمت بركن الغرفة مثل طائر ليلى تائه. وبدا أخيراً أن نظراته وجدت ملجأ فوق الرفوف الممتدة حيث يرتاح راسين ورونسار وروسو<sup>(١)</sup>.

ظلت عيناه عالقين هناك وعاد صوته باضطراب عنيف:

- "لا شيء، لا شيء، لا أحد!". وكما لو كنا لم نع بعد جسامه التهديد: "لا يقتصر الأمر على كتابكم المعاصرين مثل: بيغي وبروست وبرغسون<sup>(٢)</sup>.. بل يشمل كل الآخرين! كلهم! كلهم!".

مرت نظراته مجدداً، مثل لمسة يائسة، على الكتب التي تلمع بنعومة في العتمة.

-سيطفنون الشعلة! صرخ. ستحرم أوروبا هذا النور. اخترق صوته الأجوف الحاد أعماق صدري، تلك الصرخة غير المتوقعة والأخاذة والتي

(١)- Ronsar أحد أهم شعراء النهضة.

Racine

Rousseau جان جاك روسو: م، أهم الفلاسفة الفرنسيين.

(٢)- Peguy شارل بيغي ناقد أدبي وناشط سياسي سلمي الفزعة.

Proust كيب فرنسي صاحب البحث عن الزمن المفقود.

Bergson فيلسوف.

تردد مقطعتها أخيراً بشكوى مرتعشة: - ليس بعد الآن<sup>(١)</sup>.  
 خيم الصمت مجدداً. لكنه كان أشد حلكة ومشوداً. أنا واثق أن تحت  
 غياهب فترات الصمت السابقة، المشابهة في هدوئها سطح المياه؛ حيث  
 تضحج الكائنات المائية حياة وحركة، تصارعت مشاعر دفيئة متعارضة. لكن  
 هذه المرة لم يكن هناك وراء الصمت سوى شعور بقر مريع..  
 كسر صوته جليد الصمت، كان ناعماً وتعبساً:  
 لديّ صديق، كان مثل أخي. درسنا سوية. سكنا ذات الغرفة في  
 شونتغارث<sup>(٢)</sup> قضينا معاً ثلاثة شهور في نورنبرغ.  
 لم يكن واحداً يأتي بأي عمل بدون رفقة الآخر. كنت أعزف الموسيقى  
 في حضرته وكان يثلو عليّ قصائده.  
 كان حساساً ورومانسياً لكنه تركني. ذهب بنشد قصائده في ميونيخ في  
 حضرة رفقة جديدة. هو من يكتب لي دون توقف لأتحق به. هو من التقيت  
 في باريس مع أصدقائه. شاهدت ما الذي فعلوه به.  
 هزّ رأسه ببطء كما لو كان يرفض بالعمى بعض التوسّل. كان أسعهم،  
 كان يخلط بين الغضب والضحك. كان ينظر إليّ حيناً بحدة ويصيح: "إنه  
 سم. يجب استئزاف سم الحيون".  
 وكان في حين آخر يربت على معدتي برأس سبابته: "إنهم مذعورون  
 الآن يخشون على جيوبهم وعلى بطونهم يخافون على صناعاتهم وعلى  
 تجارتهم. لا يفكرون إلا في هذا.. سيكون الأمر سهلاً.  
 كان يضحك حتى يتورد وجهه: "سناقض على روحهم يطبق عدس".  
 أخذ "فرنر" نفساً:

(١) - Nevermore

(٢) - مدينة ألمانية.



-قلت له هل تدركون أبعاد أفعالكم؟ هل درستموها؟ قال لي هل تظن أن هذا سيرد عنا؟ إن ذكاعنا من معدن آخر. فقلت إذن ستردمون هذا القبر إلى الأبد؟

-أجاب: إنها الحياة أو الموت. القوة تكفي لتحقيق النصر لكنها لا تكفي لفرض السيطرة. ندرك تماماً أن الجيش لا يفيد شيئاً في فرض السيطرة".  
-صحت قائلاً: لكن هذا على حساب الروح، لا يجوز أن يكون هذا هو الثمن.

ردّ بقوله أن الروح لا تموت أبداً، لقد شاهد حالات مماثلة، فالروح تبعث من أنقاضها. يجب أن نبني لألف سنة قادمة ولهذا يجب أن نبداً بالهدم.

كنت أنظر إلى أغوار عينيه الفاتحتين. كان صادقاً، أجل، كان هذا أرهب ما في الأمر. انفرجت عيناه على مدهامها كما لو كانتا تشهدان حادثة قتل مفزعة وقال:

سينفذون أفعالهم، قال هذا صارخاً كما لو كنا لم نصدقه.. سيقومون بذلك بمنهجية وتصميم. أعرف هؤلاء الشياطين المسعورين".

هزّ رأسه مثل كلب تؤلمه أذنه. أفلتت همسة من بين أسنانه المنطقية فيها تأوه العاشق المخدوع. لم يتحرك. ظلّ ثابتاً، متصلباً ومنصبباً في فتحة الباب. اليدان مرخيتان كما لو كانتا اضطررتا لحمل كفين في ثقل الرصاص، وكان شاحباً بلون الجص على جدران متداعية، لون رمادي تشوبه بقع أشد بياضاً. رأيته يحني جذعه ببطء، ورفع يدا باطنها إلى الأسفل وأصابعها منتشية قليلاً، وأشار بها إلى ابنة أختي ونحوي أنا. شذها ثم حركها قليلاً وكانت قسمات وجهه تتقلص بطاقة عنيفة. انفرجت شفتاه وظننت أنه سيوجه إلينا عبارات تشجيع.

ظننت أنه سيحدثنا على التمرد لكن لم تنفرج شفتاه عن أية كلمة. أغلق

فمه وأسدل عينيه من جديد. نهض وارتفعت يده على طول جسمه إلى مستوى الوجه بحركة غير مفهومة تشبه حركات بعض الرقصات الدينية في جزيرة جاوا، ثم أمسك بصدغيه وجبينه وسحق جفنيه تحت الأصابع الممتدة.

-قالوا لي: "هذا حقنا وواجبنا" واجبنا! يا لسعادة من يجد بهذه الثقة درب واجبه!  
سقطت ذراعاه من جديد.

-عند المنعطفات يُقال لنا: "خذوا هذا الطريق!" هز رأسه. "إنما هذه الطريق لا يبدو أنها توصل إلى القمم العالية المنيرة بل هي تقود إلى وادٍ حزين وتغوص في ظلمات غابة كئيبة! يا ربي أرني أين هو واجبي!".

قال بشيء من الصراخ: إنها المعركة للمعركة الكبرى بين الزماني والروحي! كان ينظر بشأت يدعو للشفقة إلى الملاك الخشبي المنحوت فوق النافذة، ذلك الملاك الفرح والمبتسم المشع بهدوء سماوي.

فجأة بدا أن قسلماته تتفوح استرخى الجسم وأمال وجهه قليلاً نحو الأرض ثم رفعه:

"طالبت بحقوقى وطلبت الالتحاق بفرقة في الجبهة وجرت الموافقة وسمح لي بالمغادرة غداً. خيل إلي رؤية شبح ابتسامه على شفتيه عندما أردف قائلاً المغادرة إلى الجحيم وأشارت يده نحو الشرق إلى تلك السهول الواسعة حيث سيتغذى قمع المواسم القادمة من جنث الموتى<sup>(١)</sup>.

وجال في فكري: "أخيراً إنه يخضع. هذا كل ما يحسنون فعله، يخضعون جميعهم! حتى هذا الرجل".

شعرت بالآلم لمراى قسماوات وجه ابنة أختي. كان شاحباً مثل القمر

(١)- إشارة إلى الجبهة الروسية حيث كانت الحرب على أشدها.

والشفتان ببياض إناء من الأوبلين وكانتا متباعدين كما نرى على الأقنعة اليونانية المأساوية. ورأيت عند ملتقى الشعر بالجبين لمعان لآلى العرق.

لا أدري إن كان "قرنر فون ايبرناك" قد رأى ذلك، فعيناه مشدودتان إلى عيني الفتاة الشابة، مثل قارب مثبت إلي الضفة، يسحبه تيار النهر والحبل مشدود لأقصاه، حتى أن المرء لا يجرؤ على تمرير إصبع بين تلك الأعين.

أمسك "ايبرناك" قبضة الباب بإحدى يديه واستند بالأخرى إلى إطار الباب، لم يدع بصره يحيد قيد أنملة وجذب الباب نحوه ببطء، كان صوته خاوياً من أي تعبير إلى حد غريب:

أتمنى لكما ليلة هنيئة.

ظننت أنه سيفلق الباب ويمضي. لكن ذلك لم يحدث كان ينظر إلى ابنة أختي. كان ينظر إليها وقال همساً: الوداع.

لم يتحرك. ظل بلا حراك، وفي وجهه الجامد والمتوتر عينان أشد جموداً وتوتراً، عالقتان بعيني ابنة أختي المشدودتين والشاحبتين. دام ذلك ودام، كم طال الأمر؟ إلى أن حركت الشابة شفاها. لمعت عينا "قرنر" وسمعت صوتها يقول الوداع. ترقبت هذه الكلمة وسمعتها.

وأخيراً؛ سمعتها. سمعها "فون ايبرناك" بدوره وشد قامته وبدأ أن وجهه وكل جسده قد استرخيا مثلما يحدث أثر حمام ساخن.

ابتسم بحيث أن آخر صورة رأيته عليها كانت صورة شخص مبتسم. أغلق الباب وغابت خطواته في أعماق المنزل.

كان قد رحل عندما نزلت في الصباح التالي لأشرب كوب الحليب الصباحي. كانت ابنة أختي حُضرتَ الإفطار مثل كل يوم. قدمته لي بصمت. شربنا بصمت. في الخارج وعبر حجب الضباب لمعت شمس شاحبة. وبدأ لي أن اللطس شديد البرودة.

تشرين الأول 1941

## ذاك اليوم

دس الصبي الصغير يده في يد والده، لم يعجب لذلك. مع أنه مضى زمن طويل لم يخرجها فيه. عبرا الحديقة.

وضعت "ماما" حوض الجيران يوم قرب نافذة المطبخ كعادتها في كل مرة يغادر فيها "بابا" البيت.. أمر غريب!

الطقس جميل، ثمة غيوم مبعثرة عديمة الشكل لا يشعر المرء برغبة في النظر إليها. راقب الصبي الصغير مقدمة حذائه الصغير تطرد حصي الدرب، لم يعلق بابا بكلمة، بابا يغضب عادة عند سماع صوت الحصى ويقول: "ارفع قدميك!" وكان الصبي الصغير يرفع قدميه لوهلة ثم يعود خلسة إلى جر قدميه بنوع من التعمد دون أن يدرك السبب. لكن بابا لم يقل شيئاً هذه المرة. كف الصبي عن جر نعليه، تابع التحديق في الدرب، أفلقه امتناع بابا عن توبيخه.

تستعرج الدرب بين أشجار تعرى معظمها. ثمة أشجار مخضرة قليلاً، اكتست أوراقاً صغيرة يانعة الخضرة يتساعل المرء إن لم تكن حلوة المذاق. بعد مسافة تستعطف الدرب ويرى المرء المدى مفتوحاً من على صخرة ضخمة ذات منحدر شاقولي تطل على وادي "غريزيفودان"<sup>(١)</sup>، ويرى المرء في الأسفل أشجاراً بالغة الصغر والبيوت الضئيلة وطرقات مثل الخدوش ونهر إيزير يتلوى متدثراً بضباب خفيف.

في العادة نتوقف لننترج. كان بابا يقول: "انظر إلى ذلك القطار" أو "هل ترى تلك البقعة السوداء التي تتحرك هناك على الطريق؟ إنها عربية، ثمة أشخاص داخلها، هم أربعة، سيده وكلب صغير، وسيد ذو لحية كثة".

(١) - Gresivaudan وادي نهر الإيزير، منطقة زراعية غنية بزرعات متنوعة.

كان الصبي الصغير يقول "كيف تقدر أن تراه؟"  
زرعت منظراً صغيراً في عيني اليسرى، تعرف هذا، انظر..  
يقول هذا وهو يباعد أجفانه، ألا تراه؟  
وبما أنه لم يكن واثقاً من صحة الأمر كان يقول حسناً ولكن لا أراه  
بوضوح.

ربما ضحك بابا وقتها وحمله على كتفيه وتكدت ساقاه على الجانبين.  
لكن بابا راقب، وهو واجم، الأفق الواسع ولم يتوقف.  
احتفظ بحزم براحة الصبي الصغير في يده، وبعد مسافة عندما بلغا  
المكان حيث حافة الدرب تصعد وتنزل لم يقدر الصبي الصغير أن يتملص  
من قبضة أبيه ليستلق المنحدر الصغير ويقول: "انظر.. أنا أكبر منك، والآن  
هالنا أصغر.. أصغر".

ARCHIVE

أضجره الوضع نوعاً ما فهو شديد التعلق بالطقوس.

<http://Archive> عن سابقاتها

كانت نزهة مختلفة عن سابقتها.  
على مسافة قصيرة صخرة مربعة تجلس عليها في العادة. تسأل إن  
كانا سيجلسان عليها هذه المرة.. الصخرة تقترب ويتسأل الصبي إن كانا  
سيجلسان عليها.

انتابته مخاوف، خشي ألا يجلسا. شيء من خوف، خوف حقيقي، شد  
بلطف على يد أبيه لدى محاذاتهما الصخرة.

لحسن الحظ تجاوب بابا وجلسا. لم يقلوا شيئاً، في أغلب الأحيان لا  
يقول بابا شيئاً لدى جلوسهما على الصخرة.

أحياناً (عندما يكون الجو حاراً) يقول هذا منعش.. الطقس اليوم ليس  
بالحار. الأمر الوحيد غير الاعتيادي كان. أن بابا لم يفلت اليد الصغيرة.  
عادة يفلت بابا هنا يد الصبي الصغير الذي لا يهوى الجلوس طويلاً.

يتسلق الصبي ويمضي نحو الأشجار باحثاً تحتها عن أكواز صنوبر أو عن الفراولة التي قد يصادف أحياناً أن يعثر على بعض منها.  
ظلاً جالسين ولم يأت الصبي بحركة حتى أنه حرص على عدم أرجحة ساقيه لماذا؟ لم يدرك.

هل كان ذلك لأن أباه يمسك يده بذلك الطريقة؟ لم يشأ أن يفكر في أكواز الصنوبر أو الفراولة ولم يكن ليقدّر على ذلك. من ناحية أخرى كان واثقاً من عدم وجود الفراولة أما أكواز الصنوبر فليست بذات بال.

عادت به المخاوف بسبب امتناعه عن الحركة، لم تكن مخاوف شديدة، قليل من الخوف كما هو الحال عندما يكون راقداً ويسمع في الظلمة صوت تحطم شيء ما ولكن يسمع معه صوت ماما وبابا يتحدثان في غرفتهما.

مر لأن بابا يمسك يده فهذا يطرده الخوف لكنه في الواقع خائف لأن بابا يمسك يده.. عندها وللمرة الأولى خلال الفترات يمتنى الصبي الصغير العودة إلى البيت.

نهض الولد كما لو أنه سمعه ونهض الصبي الصغير متسائلاً إن كانا سيعودان إلى البيت أم سيمضيان مثل المرات الأخرى إلى الجسر الصغير على نهر Grisone، لم يدرك أي الأمرين يفضل. مضى إلى الجسر الصغير، هذا أفضل.

من فوق الجسر راقب السيل، الذي يسميه بابا الجدول، ينساب مخرخراً فوق الحجارة التي تشبه حبوب ملبس كبيرة.  
ذات يوم جلب له بابا كيساً مملوءاً حجارة صغيرة مثل هذه، كانت حلوى.

مضى على هذا زمن طويل، حدث هذا قبل عيد الميلاد. لم يعد يذكر بدقة، على كل حال لم يحصل على حلوى منذ ذلك الحين.

كان شديد الولع بمراقبة السيل، يمكن القول إن هذا يسعد عينيه بقدر ما أسعدت الحلوى لسانه.

قال بابا: مضي زمن بعيد جداً، وهذا الماء يجري.. وجد الصبي الصغير الأمر مضحكاً، من المؤكد أن الماء يجري منذ زمن بعيد، كان يجري في أول مرة، زد على ذلك أنه ما كان الجسر ليبنى لو لم يكن هناك ماء.

-وعندما سيأتي ولدك الصغير وتكون لك لحية بيضاء طويلة سيتابع الماء جريانه. لن يتوقف أبداً، قال بابا هذا وهو ينظر إلى الماء. إنها فكرة تبعث الراحة، تابع بابا، لكن من الجلي أنها مريحة له هو لا للصبي الصغير.

ظلاً زمناً طويلاً، زمناً بالغ الطول، ينظران إلى الماء وأخيراً قفلا راجعين، سلكا طريق القنفذ، سمياها هكذا منذ أن عثرا فيها على قنفذ. الدرب صاعدة شيئاً ما. مر أمام نبع الخشب، النبع الذي ينساب مأوه إلى حوض هو جذع سنديانة عجوز، ينساب فيه ماء زرقاق ذو خريز رائع يجعلك تحس بالعطش لرؤيته.

لكن الجو لم يكن حاراً. عند القمة تلف الدرب قليلاً لتتحدّر عند الجانب الآخر للهضبة. هناك في الأعلى نرى الدار، نراها بجلاء. نافذة المطبخ هي أوضح ما سنراه وسنرى حوض الجيران يوم بخضرتة واللون البرتقالي يلمع تحت أشعة الشمس ومما من خلفه. لم نر الحوض.

يبدو أن بابا تعب لأنه جلس قبل بلوغنا القمة. عادة لم تكن نجلس على هذا الجذع. جلس وجذب صبيه الصغير وأحاطه بركبتيه وقال: ألسنت تعباً؟

-لا، قال الصبي الصغير.

ابتسم بابا، كانت ابتسامة مفتعلة، داعب شعر الصبي الصغير ووجنته، أخذ نفساً عميقاً وقال:

يجب أن تكون عاقلاً، عاقلاً تماماً مع أمك.. هزّ الصبي رأسه لكنه لم يدر ما عساه يقول: "صبي صغير مطيع"، تابع الوالد ثم أمسكه من تحت إبطيه ورفعته حتى حاذى وجهه وقبله على وجنتيه.

أنزله أرضاً، وقال بصوت حازم: "هيا بنا" واستأنفا مسيرتهما.  
بلغا القمة وشاهدوا سور الحديقة والصنوبر ثين، ونافذة المطبخ. اختفى حوض الجيران يوم.

لاحظ الصبي الصغير اختفاء الحوض من نافذة المطبخ. من المؤكد أن بابا لاحظ الأمر لأنه وقف وشد على يد الصغير أقوى من أي وقت مضى؛ ثم قال: "قضي الأمر راودني شعور بهذا".

ظل ساكناً ينظر وينظر متمتماً: "يا رب كيف طاوعتني نفسي.. مع أنني كنت أعرف، كنت أعرف".

ودّ الصبي الصغير أن يسأل عن الأمر الذي عرفه بابا ولكنه لم يستطع لأن بابا شد بقوة على يده، وبدأ يحس بالألم في قلبه<sup>(١)</sup>. كما جرى معه يوم أكل طحينة الكسنة.

عندها قال بابا: "تعال"، وبدلاً من الانحدار قفلاً عائدين بخطوات سريعة. إلى أين نمضي يا بابا؟ أين سنذهب؟ قال الصبي الصغير والألم يعتصره: مثلما كان حاله يوم طحينة الكسنة.

إلى بيت السيدة "بوفيراند" قال بابا. كان صوته غريباً مثل صوت مساعي البريد يوم دهمته سيارة أوقعت عن دراجته.

"هي بالغة اللطف، أردف بابا: "تعرفها، أنت ستنام عندها".

رغب الصبي أن يسأل عن السبب لكن بابا كان يشد بقوة على يده لذا لم يستطع أن يسأل. اشتدّ الألم في قلبه حتى أنه ود الارتماء أرضاً مثل يوم

(١) - من عادة الأطفال قول كلم في القلب بدلاً من كلم في البطن.



طمحينة الكستناء لكن بابا كان يشدُّ بقوة على يده ويجد في السير .

يحبس الآن ألماً في قلبه، ليس في القلب وحسب بل في القلب في كل مكان.. في البطن، في الساقين إن لم يكن من الحمق القول أنه يحس ألم قلبه في ساقيه.

عندما رأتهما السيدة "بوفيراند" الهرمة ومتغضنة الوجه صالبت يديها فوق صدرها وقالت: "يا ربي!!"

قال بابا: "أجل قضي الأمر" ثم دخلا الدار. في الزدهة الصغيرة العيقة برائحة القرنفل كف الصبي عن مقاومة تعبهِ ونام على السجادة.

لم يعد يسمع بوضوح ما يقال. الظلام حالك بحيث يعجز عن السمع.

تكلمت السيدة بصوت منكسر جاءه كما الحلم. رفع بابا الصبي الصغير وحمله إلى سرير. مسدَّ شعره طويلاً ثم قبله بقوة أقوى وأطول من عادته في المساء.

أعطته السيدة "بوفيراند" حقينة. عانقها ومضى.

<http://ArchiveBeta.Sakhril.com>

جاءت السيدة "بوفيراند" لتعنى بالصبي الصغير، وضعت على رأسه منديلاً مبللاً وأعدت له شراب البابونج. لاحظ أنها تبكي وتمسح دموعها فور انسياقها لكن بكاءها كان واضحاً.

في اليوم التالي؛ كان يلعب بالمكعبات، عندما سمع صوت السيدة "بوفيراند" في غرفة الطعام. يفترض بالمكعبات عند جمعها تشكيل صورة سيد يرتدي باقة وقبعة لها ريشة. ما يزال ينقصه العين والقبعة.

نهض الصبي الصغير ووضع أذنه على ثقب المفتاح الذي كان على مستوى رأسه إن هو وقف على رؤوس أصابعه.

لم يسمع بوضوح لأن السيدات لم يتكلمن بصوت عال، بل كن يهمسن. تكلمت السيدة "بوفيراند" عن المحطة، قالت: "أجل؛ هو بدوره سعى لرؤية

امراته في إحدى المقصورات وعندها تعرفوا عليه.  
أيها الربُّ العظيم، علّقت سيدة أخرى، لم يقدر أن يتمالك نفسه.. لا، لم يقدر، قالت السيدة "بوفيراند" ومن كان يقدر؟ كان طوال الوقت يردد: "إنها غلطتي، إنها غلطتي!".

ثم تحدثوا عنه هو، الصبي الصغير.  
لحسن الحظ أن السيدة "بوفيراند" كانت هنا، قالت سيدة. تَمَتَّت السيدة "بوفيراند" بكلمات لكن شيئاً ما بلل عبارتها، ولم يكن من الممكن فهم ما قالتها.

رجع الصبي الصغير إلى مكعباته. جلس أرضاً ويبحث عن مكعب العين. بكى بصمت، انساب دموع لم يقدر أن يكبحها.  
وجد مكعب العين ووضع مكانه. القبة كانت أسهل. تنهد محاولاً عدم إحداث صوت. اتحدت دمعة حتى زاوية فمه النقطها لسانه، كانت مالحة. الريشة أصعب ما في الأمر. من الصعب معرفة اتجاهها الصحيح. سقطت دمعة على الريشة، انزلقت، ترددت، ظلت معلقة مثل قطرة ندى.



# من "قصص ايفان سودارييف" أقاصيل عن المقاومة ألكسي تولستوي

■ ترجمة : عدنان جاموس ■

عن الروسية



تعريف بالكاتب:

ألكسي نيكولايفتش تولستوي 1882/1883 - 1945 من كبار الكتاب  
السوفييت الروس الرواد. كتب الرواية والقصة والأقصوصة والمسرحية والمقالة  
النقدية الأدبية والفنية والثقافية العامة.

ولد في أسرة من فئة النبلاء لأب "كونت" من ملاك الأراضي وأم أدبية تكتب  
للأطفال. عمل إبان الحرب العالمية الأولى مراسلاً حربياً وزار بهذه الصفة في  
العام 1916 إنكلترا وفرنسا. وعند قيام ثورة أكتوبر في العام 1917 انحاز إلى  
صفوف معارضيه وهاجر روسيا إلى أوكرانيا في العام 1918، ثم هاجر إلى  
باريس (1919) وانتقل منها إلى برلين (1921) حيث التقى مكسيم غوركي  
وصانقه.

ولم يلبث الخلاف أن دب بينه وبين زمر المهاجرين الروس، وتغيرت نظرتة  
إلى الثورة في روسيا، وعاد مع أسرته الصغيرة إلى الوطن في العام 1923  
ليناصر النظام الجديد ويشارك في بناء الوطن.

تأثر في أولى تجاربه الإبداعية بكتابات الشعراء الرمزيين ثم غلب على أسلوبه تأثره بمذهب "الواقعية الاشتراكية". وقد أصدر العديد من المجموعات القصصية والروايات والمسرحيات من أشهرها: مجموعة قصصية بعنوان "ما وراء الفولغا" (1911) ومجموعة أخرى بعنوان "تحت الزيزفونات القديمة" (1923)، وروايته "غريبو الأطوار" (1911) و"المسيد الأعرج" (1912)، ومسرحيات "الغاصبون" (1912) و"السنونو" (1916) و"الظلاميون" (1917). وكتب في أوروبا قصته الرائعة "طفولة نيكيتا" (1919-1920) التي يستعيد فيها ذكريات طفولته في الوطن بشاعرية أسرة.

وهو من أشهر كتاب رواية الخيال العلمي في روسيا (روايات: "أيليتا" 1922-1923، و"هيسر بولونيد المهندس شارين" 1925)، كما اشتهر بكتابة الرواية التاريخية (رواية "بطرس الأول" الجزء الأول 1929-1930 والثاني 1933-1934 والثالث الذي لم يكتمل 1944-1945؛ ورواية "إيفان الرهيب" في جزأين 1942-1943)، وكتب قصصاً للأطفال من أشهرها "المفتاح الذهبي أو مغامرات بوراتينو" (1936).

أما قمة إبداعه فتتمثل في ثلاثيته: "دروب الآلام" (1) و"الشفقيتان" 1925، 2- "العام الثامن عشر" 1927-1928، 3- "صباح غائم" 1940-1941) وهي ملحمة تتحدث عن الوطن المضيق والمستعد وطريق المثقفين إلى الثورة. ونشر الكاتب في العام 1942 سلسلة من الأقاصيص عن المقاومة عرفت باسم "قصص إيفان سوداريف"، ثم أضاف إليها في العام 1944 أقصوصة بعنوان "الطبع الروسي" وهي آخر أقصوصة كتبها.

وقد كتب أ. تولستوي الأقاصيص الخمس الأولى من هذه السلسلة (التي تقدم فيما يلي ترجمة ثلاث منها) بعد أحاديثه مع طلاب إحدى المدارس العسكرية الذين شاركوا في الحرب الوطنية (الحرب العالمية الثانية) ورووا للكاتب وقائع حقيقية عن العمليات القتالية على الجبهة وفي مواقع المقاومة التي كان ينشط فيها الأنصار في مؤخرة العدو.

وقد نكسر للكاتب بعض من شاركوا في هذه الأحاديث بأسمائهم الحقيقية، واستفاد من مذكراتهم التي كتبها بعضهم على شكل يوميات منذ بدء الحرب وحتى شباط 1942.

...

## كيف كانت البداية

كان جذع البتولا يتكسر كالزجاج تحت ضربات الفأس. يوم رائع من أيام كانون الثاني؛ دخان هادئ يرتفع فوق السطح المغطى بالثلج ويذوب في السماء الفيروزية التي توشّت حوافها بشعاع لطيف يوحي بأن من المستحيل أن يكون هناك مثل هذا البرد. كانت الشمس غير العالية تنظر بملء العين إلى شجرة البتولا التي تدلت أغصانها وتلاّلت فيها حبات الندى المتجمد.

الإنسان وحده هو الذي يعذب الإنسان هنا. وليت هذه الفأس كانت تهوي وتهوي على رؤوس الألمان هكذا، فتنكسر هذه الرؤوس كالزجاج... مسح فاسيلي فاسيليفتش أنفه بقفازه المغطى بالجلد، وأرعى الفأس ونظر حوالبه. ثمة فتى قصير القامة يعتمر قبعة من الفرو تغطي الأذنين كان قادماً من جهة القرية في طريق خلفت فيه الزحافات أثراً ضارباً إلى الزرقاء. لم يكن الفتى يسير بل كان ينزلق انزلاقاً وقد فك أزرار فروته القصيرة وراح يلوح بيديه لمساعدته ذلك على الانزلاق بسهولة.

عند السياج غمره الثلج حتى الحزام، وما لبث أن تمسك السياج وتجاوزته إلى داخل الغناء ونزع قبعته دون أن يلقي التحية فتصاعد البخار من رأسه الحليق، وتناول من داخل القبعة ورقة بضرب لونها إلى الزرقاء. قال وهو يختطف الفأس ويهوي بها وهو يزفر على الجذع الكثير الفروع كي يتخلص من فيض التهيج:

-ألقوا بهذه الأوراق من الطائرة!

كان هذا الفتى هو أندريه يودينكوف. وقد أنهى دراسته الثانوية ذلك الربيع في مدينة يلنيا، وكان فاسيلي فاسيليفتش هو مدير مدرسته، وقد بدأ الفتى يستعد لتقديم امتحانات القبول في الجامعة، ولكنه استدعي إلى الخدمة العسكرية ووقع في الأسر في تلك المعارك المشؤومة التي جرت قرب مدينة فيازما. وفي ذلك الوقت كانت ما تزال حية تلك المفاهيم التي تجاوزها الزمن حول كيفية التصرف في الحرب: إذا حوصرت فقد خسرت وعليك أن ترمي سلاحك. ولم يكن الطبع الألماني آنذاك قد عُرف على حقيقته: فالألماني ظاهرياً صلب كالصخر، ولكنه في الحقيقة هستيري وهش إذا ضربته بقوة وحزم. ولكن للعلم ضربيته.

وقد دفع أندريه يودينكوف الضريبة المفروضة. فقد ساقوه مع أسرى آخرين إلى مستنقع مسور بالأسلاك حيث وقفوا جميعاً تحت المطر وبلا طعام في وحل مائع يصل حتى الركب طوال أربعة أيام. بعضهم لم يصمد؛ انهاروا وغرقوا. وفي اليوم الخامس ساقوا الناس المهلكين إلى الغرب. وفي الطريق انهار كثيرون أيضاً، وكانت تُسمع طلقات في أثناء ذلك ولا يلتفت إليها أحد.

وعندما مرّوا عبر القرية راحت أعين النساء الروسيات الشفوفة تنظر إلى حشد الأسرى الكئيب من كل جانب:

من وراء الأسيجة، ومن خلف الأبواب المواربة، وعبر زجاج النوافذ الصغيرة، وكن يمددن أيديهن إليهم بالخبز أو بقطعة فطيرة، وبعضهن كن ينتظرن إلى أن يمر الخفير المرافق المتجه الذي يسند رشاشه إلى عنقه، ويخرجن من تحت مناديلهن وعاء فخارياً: "اشربوا حليباً يا أحيائي".

وكان بعض هؤلاء الأسرى الذين ألقوا سلاحهم متخاذلين بسبب عدم قدرتهم على التفكير السليم يحسون الآن بالخجل، ويمنعهم الحق من ازدراد قطعة الخبز التي تقدم لهم. ولكن العديد من الأسرى الأكثر صلابة، بدؤوا

يفرون في أوقات الغسق عندما يبدأ الخفراء المرافقون يسوقون الناس إلى داخل العناير. وهذا ما فعله أندريه يودينكوف عندما تأخر بحجة قضاء حاجة، واندفع من خلف ظهر الخفير إلى داخل دغل من أشجار التوتوب الصغيرة وزحف طويلاً وسط الطلقات النارية، واستمر في سيره متجنباً الطريق الرئيسة إلى أن وصل إلى قرية "ستاريا بودا". وكما يفعل الفارون الآخرون دق باب دار لا يعرفها وقال: "خذوني صبراً....". كان القانون الألماني ينص على معاقبة من يتمسك على أسير حرب بالشنق. خرج من الدار شخص أعرج ذو شفة مشقوقة وشاربين وخطهما الشيب، وأجاب بصوت منخفض: "لا، إننا نخاف، ابتعد يا عزيزي". أما في الدار الثانية فقد قبلوا به وأدخلوه. خرجت إليه امرأة كهلة كانت تغسل طفلاً أصلع في طست. فكرت قليلاً وأجابت: "ولم لا! عندنا صبية، وعندنا طفل -ابن ابنتي الكبرى... لقد فقدت ابنتي، ساقها الألمان إلى الماخور.. ابق عندنا، اعمل ضمن أسرتنا".

كان في القرية عدة أصهار مثل أندريه، يعيشون مع أسر، ويقتسمون معهم كسرة الخبز، ولم يكن من دافع إلى ذلك سوى الرحمة الروسية العظيمة. وكان العمدة نوسكوف الذي أرسله الألمان إلى هنا من منطقة أخرى شخصاً قاسياً ولكنه جبان، ولم يكن يتشدد في التحري عن حقيقة هؤلاء الأصهار، كان كل همه أن يتأكد من تسليم السلاح ويستولي باسم القيادة الألمانية على الأمثلة الدافئة، والخناييص والدواجن التي لم تصل إليها أيدي الجنود الألمان.

بدأ أندريه، بعد أن تعرف الظروف المحيطة، يتحدث مع هؤلاء الناس. كلهم كانوا شديدي الحقد على الألمان، ولكنهم كانوا جميعاً يرون أن قضيتنا خاسرة وميؤوس منها. فموسكو قد سئمت منذ مدة طويلة -هكذا كان رؤساء البلديات والعمد يبلغون السكان، وقلول الجيش الأحمر تقضي نحبها في بعض مناطق الأورال..

رفع أندريه بحنق الفأس التي انغرزت في الجذع وهوى بها على الأرض فانفلق الجذع في الحال)، وأخذ فاسيلي فاسيليفتش يقرأ بعينين متقدبتين سطور الورقة الزرقاء التي أبلغته أن الجيش الفاشي الذي يعد مليون شخص قد هُزم على طول الجبهة المسكوفية وتقهقر إلى الخلف تاركاً وراءه دباباته ورحبات مدفعيته وسياراته، وقد غطت جثث جنوده التي لا تُحصى الطرقات والأجمات... كان هذا يشبه العفو غير المتوقع بعد صدور الحكم بالإعدام... ذهب بصحبة أندريه إلى الدار، وعند الموقد أمسك بكتفي امرأة شمطاء ممثلة قصيرة القامة، مقصوصة الشعر، وهي ربة الدار التي يعيش عندها في القرية على أنه ابن أختها، وأدارها نحوه وصاح في وجهها المرتعش: -كابينولينا ايفانوفنا، دعي الكابية، واصنعي لنا قطناف... هناك أخبار عظيمة... الرب الروسي حي!

تجاوز الحاجز وقرأ عند الطاولة، الورقة الزرقاء مرة أخرى بصوت عال... خبط الطاولة براحة يده وقال مقيتها: و من الذي لم يكن يؤمن بروسيا؟ أ من الذي كان يهيم بتقنها؟ لقد نهضت أمنا!

واندفع أندريه يروي كيف سمع قبل قليل دوي طائرة، وكيف هب راكضاً إلى الفناء: -يا إلهي، إنها طائرتنا! وكانت الطائرة قد مرت والمناشير تتطاير من خلفها كالحمام...

-ركضت خلفها لآلتقط أحدها والثلج يغمرنني حتى بطني والبخار يتصاعد مني... إن هذا، يا فاسيلي فاسيليفتش، يغير جوهر الأمور تغييراً جذرياً...

-طبعاً، إنه يغير كل شيء جذرياً! -صاح مدير المدرسة وركض إلى مكان ما، ثم عاد ووضع على الطاولة مسدس "بارا بيلوم" مدهوناً بالزيت وكيساً مليئاً بالطلقات -كم من الليالي لم يغمض لي فيها جفن! كنت



أنتظر فيها هذا المنشور... لقد فكرت في كل شيء! لنبدأ بأخذ الثأر يا أندريه...

-اثنان فقط ومسدس واحد، وهم: سريتان يا فاسيلي فاسيليفتش.

-يجب أن نبدأ من شيء ما، الإنسان الأول أيضاً فطن إلى أن يمسك بيده حجراً حاداً، فإلام آلت الأمور فيما بعد!

-ولكن الرشاشات لم تكن موجودة آنذاك، لم يكن هناك سوى الفؤوس الحجرية والشجاعة الشخصية...

-ها ها! الشجاعة الشخصية!

قال هذا ومد إصبعه النحيل أمام أنف أندريه... لم يشاهد أحد مدير المدرسة في مثل هذه الحالة قبل الآن... عيناه الصغيرتان كانتا تحفران ما تنظران إليه كمتقبين، ووجهه النحيل الذي يشبه الكتاب بلحيته المديبة كان يتقد ويكشر، ولا تدري هل هو يضحك ضحكة وحشية لم يتأهب للعض.

-إننا الآن في امتحان، إننا نخوض غمار تجربة تاريخية عظيمة...

قال ذلك وكان أمام إصبعه يجلس ألف أندريه..

-هل ستسقط روسيا تحت أقدام الألمان، أم أن الألمان هم الذين سيسقطون؟ لقد نهض أجدادنا من توابيتهم في مقابرنا القديمة ليسمعوا جوابنا عن هذا السؤال. والقرار قرارنا نحن! مقدساتنا الروسية التي فجرها الألمان تلوح لنا بالسنة النواقيس... أهو ناقوس الخطر؟ هل تحب بوشكين؟ هل تتألق هذه النجمة في قلبك؟ هل تحمل ثقافتنا الشريفة، الشعبية، الحكيمة في داخلك؟ كلنا مذنبون لأننا قليلاً ما رعينها، وقليلاً ما صنعناها... الإنسان الروسي مبذر... ولكن لا بأس.. فروسيا عظيمة، ثقيلة، جلدّة... وهل نعرف أية فضيلة ينطوي عليها الهدوء الروسي؟ وأية رحمة تتوي تحت المنديل القطني الملون، وأي نكران للذات!

بعد أن أفضى فاسيلي فاسيليفتش بكل هذا أصبحت نظرة عينيه ألطف قليلاً، بينما غدت عينَا أندريه الرماديتان المفتوحتان على سعتيها باردتين وحادثتين، وتطاول وجهه الفتى ذو الأنف المتحدي.

قال فاسيلي فاسيليفتش: -الآن ينبغي البدء بشكل محدد من الخطوة الآتية: اليوم ليلاً سنذهب إلى ستاريا بودا!

كان القمر المحاط بهالة قزحية شاحبة يلقي بنوره من الأعالي فوق السُلُج البيضاء، التي تستلقي عليها هنا وهناك ظلال ثقيلة من صنوبرة معوجة ومدخنة موقد ترتفع وحيدة من رماد حريق منطفئ مغطى بالثلج.

كان فاسيلي فاسيليفتش لا يكاد يلحق بأندريه الذي يسير بهمة والجلد بصر تحت جزمته اللبادية. رفع أندريه يده ووقف.

أمامه ثمة كلب يوعوع بصوت منخفض ضجر. انعطفا وسارا فوق السُلج الطازج ووصلا إلى القرية من ناحية البيادر وهما يلهتان ووقفا في ظل عنبر الغلال. كانت النوافذ الصغيرة في دور الفلاحين تبدو معوجة تحت ضوء القمر، وكان ثمة سيارة شحن في البعيد تنفث وتفرقع، وأصوات تصل متقطعة. أصوات ليست روسية. قال أندريه:

-الألمان جلبوا كونسروة وفودكا.. لننتظر.

عندما ساد الهدوء الشارع قفز أندريه عبر السياج وقال لفاسيلي فاسيليفتش الذي كان مثلياً في فروته:

-اتبعني، هيا تشجع...

وجذبه من يده. ثم دقا الباب في الرواق الخارجي وصاح أندريه:

-أيها العمدة... جاء إليك السادة الضباط.

وعندما تنأى إلى سمعها صرير الألواح الخشبية المغطاة بالصقيع في المدخل قال فاسيلي فاسيليفتش بالألمانية:

-اخرج.. أريد أن أتكلم معك.

وجاءهما الجواب من الداخل بصوت هامس متعجل:

-الآن، الآن، أيها السادة، دقيقة واحدة...

وأزيح المزلاج، وفتح الباب قليلاً، وأضاء نور القمر الوجه الذي أطل من الشق الأسود، وهو وجه ذو أنف حاد تشوبه بعض النقر ويكسوه التملق.. انقض أندريه على الباب واندفع إلى المدخل، وابتدأت هناك جلبة عنيفة.. لم يستطيع فاسيلي فاسيليفتش أن يستطلع حقيقة الموقف فوراً. قُرب قدميه كان ثمة شخصان يشخران وينخران ويتقلبان... ومع ذلك فقد استطاع أن يميز أن الذي يجثم في الأعلى هو العمدة وأنه يحرك عظمتي لوحيه، فما لبث أن وجه ضربة بالمسدس إلى نقرة هذا التملق، فصاح العمدة بصوت ممطوط: أووو وخ.. آآخ، أوغاد....

كانت درفات النوافذ مغلقة في الغرفة المدفأة بإفراط والمضاءة بمصباح أضعف نوره. وفوق المقعد المغطى بمشمع والذي وثب منه العمدة قبل دقائق ملقياً عنه فروة الصوف ومسقطاً على الأرض مخدة الشيت المتسخة كانت قد ثبتت بطاقة يبدو فيها هتلر في الزي البحري الرسمي. وعلى الطاولة العارية كانت هناك دواة زجاجية وسجل رسمي مفتوح وإلى جانبهما يستقر رشاش جديد، وهو الشيء الذي أتى صاحبانا من أجله.

سأل فاسيلي فاسيليفتش وهو يبتسم بمكر ويزيح لحيته إلى جانب:

-أنت توافقني على أننا أصبحنا الآن مسلحين على نحو لا بأس به؟ خذ الرشاش وأنا سأخذ السجل وهيا بنا إلى لينكا فلاسوف.

توخياً للحيلة نقلوا العمدة من ردهة المدخل إلى عبر الغلال وألقوا به خلف كرم حطب. كان القمر بازغاً فوق القرية الهادئة محفوفاً بأقواس قزح صقيعية، ولكنه لم يكن يروي للنايمين حكايا سحرية، كان من اللائق به أن يبزرغ أحمر قانياً كالدم المنبثق من قلب معذب، متوهجاً كالكراميه. قال

أندريه: -مالك لا تكف عن رفع رأسك إلى الأعلى، الهواء ساكن؛ اتبعني، لا يوجد كلاب في الغناء.

خرج لينكا فلاسوف بعنقه القوي ووجهه العابس لملاقتهما حافي القدمين وليس عليه سوى قميص دون حزام على الرغم من الجو الصقيعي. أخذ يتأمل الرشاش المغتنم وهو يضم قدميه إحداهما إلى الأخرى ويستمع إلى بلاغ موجز عن المنشور الذي ألغته الطائرة وعن ضرورة القيام بعمليات فدائية فورية. وعندما بدأت أسنانه تصطك قال:

-هيا بنا إلى الدار. هذه أمور جدية وينبغي أن نستدعي الشباب...

في الدار المعتمة التي تقوح فيها رائحة الفقر، أخذ الثلاثة يتحادثون همساً ويصمتون كلما تلملت النساء خلف الحاجز. وشاهدوا في النور الباهت المتسلل عبر النافذة التي يغشها الصقيع كيف خرجت إحداهن وهي تدخل يديها في كمي فروة ضبان قصيرة... همس لينكا لها ببضع كلمات، فاقتربت من الموقد ونادت بصوت فتي:

"قاسيا، ناولنسي جزمي... دمست قدميها في الجزمة اللبادية وهي واقفة وغادرت الغناء بسرعة. وشرع فاسيلي فاسيليفتش يتوسع في الحديث عن تلك الأفكار التي كان قد طرحها منذ سويغات أمام أندريه، بيد أن لينكا قاطعه بحزم: -الستريض الآن لا يمكن تحقيقه سوى بلغة القتال. إذا استطعنا أن نقضي ولو على حامية واحدة، سنحرض عشر قرى على النهوض للمقاومة. يلزمنا سلاح.

ورفع صوته منادياً: -فانيا، ارتد ملابسك وتعال إلى هنا.

انزلق الصبي من على سطح الموقد ووقف قرب الرجال الثلاثة رافعاً نحوهم عينيه الكبيرتين. وعندما وضع فاسيلي فاسيليفتش يده على رأس الصبي ذي الشعر الناعم الدافئ تنحى فانيا جانباً وكأنه يقول: هذا ليس وقت الملاطفة. قال له لينكا: - يلزمنا سلاح.

-مفهوم.

-هل يوجد في الجوار أسلحة مهمة؟ أنتم الصبيان يجب أن تعرفوا كل شيء.

-يوجد. هناك صبي اسمه أركادي يعرف أكثر مني، وهو سيقول لكم. هناك مدفعان غارقان في النهر. ونحن نعرف أين توجد الذخيرة. ويوجد في الغابة أحد عشر مدفعاً رشاشاً مطمورة في جفرة. كما يوجد في مكان آخر قتال يدوية ولغام. سنريكم كل هذا. ماذا، هل أنتم عازمون على ضرب الألمان؟

-اسمع، هذا ليس من شأنك.

-كيف ليس من شأني؟ -قال الصبي بصوت رجولي وشذ سزواله إلى الأعلى -إنني أتحمل التعذيب ولن أبوح بشيء.

فرص فاسيلي فاسيليفتش ليقين وجهه بوضوح؛ إنه وجه طفلي مدور منتفخ الشفتين، وفي الوقت نفسه يعبر عن جدية ليست طفلية.

دلف إلى الدار خمسة رجال من مقاتلي الجبهة واحداً إثر آخر، ودخلت على إثرهم الفتاة التي استدعتهم، نزعَت منديلها وتوارت خلف الحاجز.

وقف فاسيلي فاسيليفتش لصق النافذة وقرأ المنشور ثانية، ورفع أندريه راحته كالسيف وقال: إن هذا نداء يدعو إلى النضال. فردَّ أحد مقاتلي الجبهة:

-إذاً هكذا.. انظروا كيف انقلبت الأمور. فلنعاقب الألمان على ما ارتكبوه بحقنا.. هيا بنا نبحث عن سلاح.

وهكذا تحققت في تلك الليلة أمام عيون الألمان تعبئة فصيلة أنصار فدائية من ثمانية رجال، وصبيين يقومان بمهمة الاستطلاع.

قائد فانتسيا والصبي الآخر -أركادي- الذي يعرف كل شيء الأنصار المسلحين بالرفوش إلى الغابة المظلمة، واتجها مباشرة إلى المكان الذي ينبغي الحفر فيه. وأخرج المقاتلون من الحفرة -من تحت الثلج والأغصان المتكسرة- المدافع الرشاشة، ومنها أربعة جاهزة تماماً لخوض المعركة.

كما أخرجوا من حفرة أخرى قريبة صندوقاً يحتوي على قنابل يدوية ونحو عشرين لغماً. وراح الصبيان يقنعانهم بأن يسحبوا أيضاً من تحت جليد النهر المدفوعين المضادين للذبابات، وتطوعا في أثناء ذلك بالغوص في الماء بنفسيهما: -ليس عليكم يا أعمامنا سوى الذهاب وإحضار مهدة لكسر الجليد، نحن لا نخشى الغوص في المياه الباردة.

ولكنهم أجّلوا المدافع إلى وقت آخر، ونقلوا الأسلحة قبل انبلاج الفجر إلى القرية ووضعوها في دار فاسيلي فاسيليفتش.

وكان الأمر المؤسف الوحيد هو عدم حصولهم على بنادق. عاد فاسيلي فاسيليفتش صباحاً إلى تكسير الحطب وهو يغني مخمخماً:

"آه، أيها الشتاء، بارداً كنت جداً، غطيت الطرقات كلها بالثلج". جاء فانيا مترجماً بسرعة على الثلج عبر الحقل النظيف.

لم يبدُ في النهار صبيّاً صغيراً أخنس وضئيلاً كما بدا في الليلة الفائتة.

-الألمان مضطربون، لقد عثروا على العمدة نوسكوف خلف كومة الحطب، وهم الآن يطوفون ويمرون بالأفنية ويفتشون ويضربون... والصراخ يتعالى. في دار آل فيديوني أمسك أحدهم بطفل رضيع وهوى برأسه على عضادة الباب... جميع شباننا غادروا إلى الغابة... أما الصبي الذي كان معنا فلا أدري هل هو يكذب أم لا، إنه يقول إنه يفهم اللغة الألمانية قليلاً. وقد سمع أنهم ينتظرون اليوم مساء قدوم سيارات شحن... قل لي: ما الذي تريد أن تعرفه أيضاً؟

-اذهب إلى كابيتولينا إيفانوفنا، ستعطيك قطائف ساخنة.

في تلك الليلة، وعلى بعد عشرة كيلو مترات تقريباً عن قرية ستاريا بودا مرت قافلة السيارات الشاحنة الألمانية فوق الغمام، وما إن انفذت السيارة الأولى عالياً من الصدمة النارية القوية حتى أزت طلقات المدافع الرشاشة من غابة الصنوبر. ولم يجد الألمان إمكانيةً للانعطاف أو التراجع. فعلى جانبي الطريق كان ينهض جداران من الثلج. وكان عددهم (كما أحصوهم فيما بعد) سبعة وعشرين شخصاً.

أخذوا يتراكمون قرب الشاحنات وهم يصيحون بأصوات وحشية وبطلقون النار دون جدوى ويتساقطون. واندفع من قلب الظلال السود إلى الطريق الذي يضيئه القمر شخص يرتدي فروة سوداء، وآخر قصير القامة يحمل رشاشاً.

- "أر!!!!" (1) صاح الأول وهو يرفع يديه إلى الأعلى، وعندئذ تقاطر الأنصار من خلف أكوام الثلج على جانبي الطريق وهم يلقون بالقنابل اليدوية التي أخذت تنطير متقلبة في الهواء، ولم تمض بضعة دقائق حتى كان كل شيء قد انتهى. عثروا في الشاحنات الميت التي استولوا عليها - وقد احترقت السابعة الأمامية - على رشاشات وذخيرة ومواد غذائية وبطانيات. أخذ المقاتلون كل ما يحتاجون إليه وأحرقوا الباقي في السيارات. وفي الصباح عاد فاسيلي فاسيليفتش لتكسير الحطب ثانية.

وفي ذلك النهار مر بالقرب من القرية المقفرة عدد من الناس ليس بانفيل، وكان كل واحد منهم ينظر إلى مدير المدرسة ويسعل أو يفعل أي شيء يدل على نيته، ثم يسير بحذر في طريق ملتوية وينعطف أخيراً باتجاه داره. وما إن مضى أسبوع حتى تشكلت بقيادة فاسيلي فاسيليفتش فصيلة من

(1) - أراء: صحيفة حماسية يطلقها الروس عند الهجوم الحاسم في المعركة، وكذلك للتعبير عن الابتهاج بالنصر، أو عن الإعجاب الشديد، أو عند تحقيق أمنية، أو للاحتفاء بظاهرة سارة الخ....

الأُنصار يزيد عدد أفرادها على مئتي شخص ولديها مدفعان. وعندئذ أقدم المقاومون على إنجاز العملية الأساسية وهي القضاء على الحامية الألمانية في قرية ستاريا بودا.

...

## نينا

كلما كان الإنسان أكثر عافية وكانت حياته أخشن وأبسط ازدادت حساسيته. أليس كذلك؟ يهذرون زاعمين أن إيفان سوداريف لا أعصاب لديه البتة. أحياناً عندما يبدأ الحنين يذيب قلبك تطيق عليك ذكريات تملأ النفس بالأسى الشفيف، فتسرك الأحاديث، وتستلقي على العشب.... الريح تهز الأعشاب والأزهار البرية، وأنت ترى حافة السماء.... ويدق قلبك على الأرض:

أيتها الأم، يا أرض الوطن، أفتحي لي، اغمري عابر السبيل بحنانك...  
وها أنا أتذكر حادثة وقعت لي في بداية الحرب. أنتم تعرفون، ولا حاجة بي إلى أن أحدثكم عن الوضع "الجميل" الذي وجدت قواتنا الحدودية نفسها فيه عندما عمد العدو إلى قصف مطاراتنا في أول أيام العدوان. وثمة في المؤخرة من لا يكف حتى الآن عن القول إن قطعات من الجيش الأحمر قد فرت آنسذ. لا، لا تهينوا قبور الجنود المجهولين حيث ينوي أبناء الوطن الأبرار الذين جادوا بأرواحهم ليمنحونا إمكانية النصر، وعلى صدورهم بالذات تحطمت وقاحة الألمان الجامحة. كانت سبطانات المدافع الرشاشة والبنادق الآلية تجمى حتى الاحمرار - هكذا كنا نقاتل ونحن نترجع...  
طوّقنا العدو بعدد لا يحصى من الدبابات والرشاشات، وأمطرنا بالقنابل والألغام كما كان يحلو له. عملنا على اختراق طوق الحصار، واخترقناه؛ كنا



في ضيق شديد، ولكن الألمان أيضاً كان يملكهم الهلع من فداحة خسائرهم.  
لا أجادل في أنه كان بيننا متخاذلون. انبطحوا دون وعي طوال مدة  
القصيف، ثم انتفضوا وحولوا أبصارهم قائلين: "ايه، لقد انتصروا علينا....".  
هؤلاء استسلموا. وكان هناك سبب آخر.

لقد علمونا الكثير، ولكن ليس الجميع استوعبوا كما يجب أن كل مقاتل  
يجب أن يمتلك المبادرة في المعركة. كنا ننظر إلى القائد: فهو المسؤول عن  
كل شيء... وإذا قُتل؟ هل نغدو بلا رأس؟ هذا ما أودى بقطعات كثيرة  
آنذاك... وأنذاك أيضاً أخذت روح المبادرة تنمو لدينا... شعبنا لمأح،  
وشرس في العراك... لقد كانت كرامتنا تنن. وكما ننتظر العيد كنا ننتظر أن  
نصل إلى العدو لنقاتله بالأيدي.

بقي نيمان في الخلف. وفقدنا الصلة مع القطعات. وهنا أطبق الألمان  
علينا من جميع الجهات. حفرنا بسرعة شقوقاً ضيقة جئنا فيها؛ لم يكن لدينا  
حتى العيارات الخارقة للدروع. وراح العدو يلقي علينا الألغام من جميع  
الجهات، والطائرات تغلب علينا من وراء مسيرنا، والأرض ترتج من  
الانفجارات، والغبار ورائحة الحريق الكريهة يملأان الجو، والعيون والأذان  
ملاى بالرمم. أحياناً كان بعض الطيارين الأوغاد يهبطون إلى ارتفاعات  
تمكنك من رؤية سحباتهم البيضاء الكامدة ويمطرون الأرض بطلقات  
مدافعهم الرشاشة.

ونظل نحن جاثمين. هل نذكرون وصايانا؟ لا نعرف بأنك مطوق و...  
انتهى. عندئذ لا يبقى أمام العدو سوى أبغض الحلول، وهو أن يقترب منك  
للاشتباك بالأيدي. وبالفعل، هذا كل شيء، توقف إطلاق النار تماماً، ولم تعد  
تسمع في الجو أية أصوات. وابتدأنا نسمع حفيف الأشجار في الغابة. أطللنا  
من الشقوق فرأينا وهج الغروب، وكان فرص الشمس الذي يبدو كبيراً  
يضيء لنا للمرة الأخيرة من خلف السحب.

نأخذ المصابين بجروح طفيفة، القادرين على الإمساك بالبندقية أو حتى على التنقل سيراً على الأقدام... ونركض بحذر نحو الغابة. نعرف أن هناك مجموعة من حاملي البنادق الآلية والمدافع الرشاشة. نزحف فوق العشب بين نتوءات التربة وكل همنا أن نقترّب أكثر فأكثر من اللحظة التي نصيح فيها "أر!". أما العدو فقد أن له أن يطلق النار علينا.

أذكر أن قشعريرة سرت في بدني كله: ما هذا الأمر الغريب! نحن على مسافة مائة وخمسين خطوة منهم، ومن المفروض أن يكونوا قد اكتشفوا وجودنا، فلم هم صامتون؟ أنهض ملصقاً صدري بشجرة بتولا وأحدد النظر: ليس ثمة أية حركة عند طرف الغابة.

فيم تكمن الحيلة يا ترى؟ وفجأة يبدأ الأزيز في أعماق الغابة، عن اليمين من هذا المكان. ويتوالى إطلاق الرصاصات الخطاطة: زرقاء وحمرء وخضراء، تتعاقب بسرعة وتمتد خيوطاً طويلة. ونسمع صيحة "أر!!!" الروسية، انفجرت جناحرتا تلقائياً، نهضنا وصحنا بدورنا "أر!!". وتجاوزنا السبقة التي كان الألمان يقبعون فيها نهاراً، وقابلناهم في أجمة وسط الغابة، وشفينا غيلنا من حاملي الرشاشات هؤلاء.

وكان ما حدث هو الآتي: تأخّرت عن أحد الأفواج سرية غير كاملة بقيادة الملازم موسييف، وشقت طريقها شرقاً، واكتشفت أننا مطوقون، وبما أنها كانت في الجوار، لذا قرّرت أن نتجدنا، وضربت حاملي الرشاشات من المؤخرة. ومن هذا الخرق بالذات خرجنا نحن.

كان موسييف ذا طبع حار، وقد خلّق محارباً بالفطرة. لم يتسنّ لنا أن نعرف من هو بالضبط، ويبدو أنه قد خدم في مكان ما في غربي بيلوروسيا. إنّه شخص مشدود القامة، متوسط الطول، وجهه عادي، غير مُعبّر. يشمّر كمّي سترته العسكرية حتى المرفقين، ويضحك دائماً بطيبة قلب، ولكنه حاد النظرة، وذكي. أجل، يوجد في روسيا أناس من ذهب. تابعنا طريقنا مع

سرية موسييف باتجاه الشرق، وصرنا نحن الذين نبحث عن الألمان؛ وكنا نقع نارة على حامية تركت في قرية ما بصفتها نسفاً أول، ونصطدم نارة أخرى بجماعة من الجنود أنزلوا في موقع ما، فنبادر إلى مهاجمتهم، ونجعلهم يولون الأدبار. طالت لحننا وغشانا كلنا المवाद، ولا أدري هل كان هذا من الاتصاخ أم من الغضب. وكان موسييف يقول في بعض الأحيان مازحاً: تصوروا جيشاً بهذه الهيئة يجتاز شوارع برلين على هدير الموسيقى، كم سيخيف الألمانيات، يا له من مشهد...

وصلنا ذات مرة إلى مرج رطب شديد الخضرة يقع قرب محطة قطار صغيرة تقف فيها عربات قطار محطمة مهمة. كان الألمان قد غادروا المكان للتو. وقد شاهدنا هناك امرأة شابة ممددة على عشب المرج الذي لم يُحش. كانت المرأة تضع إحدى يديها تحت رأسها، بينما تضم الأخرى إلى صدرها المصاب بعيار ناري. كانت كأنها نائمة. أهدابها مرخية والهواء يحرك شعرها الكستاني، ولكن خيطاً من الدم كان يسيل من زاوية فمها الشاحب. قرب المرأة تزحف طفلة موداء العينين في الثانية من عمرها، ترتدي ثوباً منقطاً، ولا تنفك تهر المرأة وتردد: "أمي نائمة، أمي نائمة..". عندما اقتربنا التصقت الطفلة بأمها وضغطت على وجنتيها برأسيها الصغيرتين، وراحت تنتظر إلينا كفرخ غراب مذعور. سمعنا صوتاً يسل: "ماذا هناك، أيها الرفاق، ماذا هناك؟" يركض موسييف ويمزق باقة قميصه العسكري. تتحينا له صامتين. وقف وقال مندهشاً وكأنه يحدث نفسه: "أسرتي.. أسرتي، زوجتي وابنتي". اختطف الطفلة وضمها إلى صدره.. وانحنى فوق رأس زوجته وشرع يبكي ويعول كالأطفال، وهنا انفجرت الطفلة بالبكاء.

ابتعد المقاتلون قليلاً. بعضهم كان ينخر وبعضهم يمسح عينيهِ. أخذت من موسييف مسدسه، وتركناه وحيداً مع ابنته. ورحنا نحفر قبراً تحت ثلاث بتولات وريقة.

يبدو أن زوجته قد هربت — بثوبها الذي كان عليها — مع ابنتها من بيلوستوك سيراً على الأقدام تارة وفي شاحنة تارة أخرى وفي قطار عابر عرضاً تارة ثالثة، وقد قصف الألمان القطار في هذه المحطة الصغيرة قبل قدومنا بقليل، فقفزت منه وانطلقت تركض في المرج الأخضر. ولكن الطيارين الألمان، أولئك الصبية الأغرار، اعتادوا ممارسة رياضة خاصة: فهم ينقضون بطائراتهم إلى ارتفاعات منخفضة ليلحقوا امرأة تعدو بلا وعي مع طفلتها.. وربما لم يكن بينها وبين لقاء زوجها سوى ساعة أو أقل. حفرنا قبراً تحت أشجار البتولا، وكنا نظنه لشخص واحد، وإذا بنا نضطر إلى أن ندفن فيه اثنين.

وصل أحد مستطلعينا على فرس منهكة، وأبلغنا أنه اكتشف مجموعة من راكبي الدراجات النارية في الطريق الرئيسة التي تتقاطع قرب هذه المحطة الصغيرة مع السكة الحديدية. كان يمكن، طبعاً، الابتعاد خلسة وتفادي الاشتباك في معركة. بيد أن موسييف اقترب حاملاً الطفلة بين يديه وقد تغيرت ملامح وجهه، فاكتمسى بلون رمادي وانطفأ بريق عينيه. قال: "لا.. أبداً، أنا غير موافق... أجل، هكذا... فقط هكذا أيها الرفاق". مسح رأس الطفلة وسلمها إلى مقاتل مصاب بجرح في رأسه، وقال لي بنبرة أمرة: "أعد لي سلاحى الشخصى".

نفذ موسييف بنفسه العملية كلها: كدس بعض الأشجار في مكان ضيق من الطريق، وأوعز لعدد من حاملي المدافع الرشاشة والرماة بنصب كمين، وعندما توقف الألمان قرب كومة الأشجار مستعربين ولكن غير مرتابين بشيء، وانضمت الآليات الخلفية إلى الأمامية عمد إلى إبانتهم بالنار والحراش حتى آخر شخص. ولا أدري هل كان يبحث فعلاً عن الموت في هذه المعركة، أم أن الحقد كان يخنقه: لقد كان يدور في وسط المعركة وبندقيته في يده.. اخترقت طلقات رشاش بطنه بكامله، ومع ذلك فقد وجد في نفسه القوة ليجلس على الطريق ويرى كيف يُباد الألمان.. قال وقد خرج

قليلاً عن طوره كما يبدو: "انظري يا ماروسيا! هذه وليمة دفنك، هانحن ندفنك على أنغام الموسيقى.." سقط على جنبه الأيسر وأخرج بيده المزقة مسدسه من قرايه. وكان بطنه قد قطع إلى شقين.

دفننا الاثنين في قبر واحد. وتصوروا أن الطفلة التي كان يحملها أحد المقاتلين لم تَبك، بل كانت تنتظر كالكبار كيف كنا ندفن أمها وأباها. ربما لم تكن تدرك ماذا نفعل؟ ولكن لا.. فالأطفال في هذه الحرب يفهمون أكثر مما يبدو لنا. نزدحم في أذهانهم أشياء كثيرة ثم تتضح مع الزمن..

قُبيل المساء توقفنا للاستراحة في الغابة؛ غلبنا ماء في خوذاتنا وغسلنا الطفلة ولفناها بقماش شادر وبنينا لها عشاً من أغصان الأشجار، وخصصنا لحراستها مقاتلاً من حراس الحدود مسلحاً ببندقية اسمه ماتفي ماخوتنك، وهو ذو مظهر مرعب. كان نوم الطفلة قلقاً متقطعاً لا تتفك تستيقظ من برهة لأخرى وتنادي "ماما...". وكان ماتفي يقول لها: "نامي، نامي، لا تخافي.." ولكنها لم تهدأ إلا في اليوم التالي. لم يكن ماتفي يأتني عليها أحداً، كان يحملها على يديه ويحاول أن يعرف اسمها، وقد ظلت طويلاً تمتنع عن الحديث، ثم قالت فجأة في أذنه "نينا..".

تابعنا شق طريقنا نحو الشرق أياماً عديدة متجاوزين الموانع الألمانية، وعندما اقتربنا كثيراً من خط الجبهة قررنا عدم المخاطرة بالطفلة. صادفنا في مجلة نيميروفو امرأة اسمها رينا ميخالنشوك حازت إعجابنا وثقتنا فرجوناها أن تبقى طفلتنا عندها، وأعطيناها كل ما لدينا من سكر وأرغفة بيض مجففة جهازاً لنينا. وعندما غادرتنا المحلة ألقينا نظرة على بيت المرأة. كانت نينا تغفر فوق يدي أمها بالتبني، والمرأة تبكي بصمت.. هذه هي قصتي..

وقد بقيت طفلتنا نينا في الغرب، عند الألمان، وبقي القبر تحت البتولات هناك، عند الألمان.

\*\*\*

## قصة غريبة

هاهي! جاءت تزحف واحدة تلو أخرى: الأولى، الثانية، الثالثة، بدوائرها البيض وصلبانها السود... رسمت براسكوفيا سافيشنا شارة الصليب وهي تقف خلف بيوتر فيليبوفتش؛ وما إن ارتفع هدير الدبابات حتى قفز هذا على المقعد وألصق وجهه بزجاج النافذة، ولكن عندما رسمت هي شارة الصليب التفت نحوها بحيوية، وضحك بسخرية من خلال أسنانه القليلة بصوت لا يكاد يتجاوز لحيته القاسية. تبع الدبابات في الشارع الربيفي الموحد قافلة من الشاحنات الضخمة المكتظة بجنود يجلسون في صفوف منتظمة. وكانت تطل من تحت الخوذات العميقة في الضوء الرمادي الرطب وجوه الألمان التي تنتظر بعيون فارغة وتبدو رمادية، متذمرة، تعلوها صقرة الموت.

خمد ضجيج القافلة المنعدمة، وعاد يتقاهي إلى الأسماع من جديد قصف الرعد من مكان بعيد جداً. تراجع بيوتر فيليبوفتش عن النافذة، وكانت كل التعضنات حول عينيه تضحك، أما عيناه اللتان تكاد لا تراهما من خلف أجفانه المزروعة فقد كانتا تلتصقان ببريق غامض.

قالت براسكوفيا سافيشنا:

— يا إلهي، أي خوف هذا... ماذا يا بيوتر فيليبوفتش! أيمكن أن نصبح بشرًا الآن؟

لم يجب. جلس ينقر على الطاولة بأظافره. شخص ضئيل، أحمر، فتحنا أنفه عريضتان وأصلع. كانت براسكوفيا سافيشنا ترغب في الحديث عن بيتهما، بيد أن فيها كان مختوماً بالتهيب. عاشت طوال حياتها في خوف من زوجها منذ ذاك اليوم الذي أخذوها فيه وهي في الرابعة عشرة من

عمرها من أسرة فقيرة إلى أسرة غنية يعتنق أفرادها العقيدة القديمة <sup>(1)</sup>. ومع مرور السنين بدا وكأن الأمور قد استقامت. ولكن في هذا الربيع، عندما عاد بيوتر فيليبوفتش بعد أن قضى في المعتقل عشر سنوات، عاودها الخوف منه ثانية وأصبحت الآن تشعر شعوراً عميقاً بالمهانة: لم كل هذا الخوف؟ إنه لا يضربها ولا يشتمها، ولكن عند كل حركة تقوم بها لا تلقى منه سوى ضحكات ساخرة؛ كل تصرفاته أصبحت مغلفة بالغموض. سابقاً لم يكونوا يعرفون في البيت كيف تقرأ الكتب، أما الآن فقد أصبح يحضر صحفاً من المكتبة الريفية، ويشعل مصباح الكاز ليقرأ الكتب. وقد جلب نظارة من الشمال لهذا الغرض.

لتهمكت براسكوفيا سافيشنا في إعداد طعام الغداء محجمة عن الإفصاح عما في ذهنها؛ فرمت أوراق الملفوف، والبصل، والخضار، وصبت الكفاس <sup>(2)</sup> المخفف في كأس، ونادت الأولاد بصوت غاضب. تغذوا متناولين قطع خبز مجفف مسها العفن، فالحيوب، والطحين، ولحم الأوز، والخنزير المدخن خبئت كلها خوفاً من استيلاء الألمان عليها. قبل أن يتناول بيوتر فيليبوفتش المعلقة مد يديه قليلاً خارج كميته بحكم العادة، وثأهما عند المرققين ومسّد شعر رأسه برأسته. كان قد اكتسب هذه العادة من أبيه. وعندما مد يديه قالت براسكوفيا سافيشنا فجأة بتناقض أنثوي مع السياق: — لقد انتزعوا لافتة المجلس الريفي، الآن يجب أن يعيدوا لنا البيت.

(1) — مذهب أدى إلى ظهور حركة دينية — اجتماعية في روسيا أواخر القرن السابع عشر إثر الانشقاق الذي أدى إليه الإصلاح الديني الذي أجراه البطريرك "تيكون" وقد دعت الحركة إلى الحفاظ على النظم والطقوس الكنسية القديمة، وغدت حركة معارضة أو معادية للكنيسة الأرثوذكسية الرسمية. من أشهر قادتها الكاهن الكبير أفاكوم (1621 — 1682) الذي نفى ثم أحرق مع أنصاره المقربين وسيرد ذكره في النص فيما بعد.

(2) — الكفاس: مشروب شعبي روسي غير كحولي.

وضعت ملعقتها ومسحت دموعها بمنزرها، وراحت الكلمات تتدفق من فمها بلا انقطاع؛ أفضت بمكنون قلبها في شكوى طويلة سمعوها منها مائة مرة. وتابع بيوتر فيليبوفتش والولدان - صبي أحمر كأبيه، وبنت في الثانية عشرة من عمرها ذات وجه متجهم أبيض كالحليب - احتساء فتة الخضار. وأخيراً نطقت براسكوفيا شافيشنا بذلك الجديد الذي كان يتقل نفسها:

- في قرية بلا غو فيشينسكي عيّنوا أحد المجرمين - كما يقول الجميع - رئيس بلدية، وأعطوه بيتاً في طابق قرميدي وفرساً... وأنت، والحمد لله، أفضالك كلغتك الكثير من الآلام...

- يا لك من حمقاء عالمية يا براسكوفيا شافيشنا!

اكتفى بيوتر فيليبوفتش بهذا الجواب الذي نطق به بقاعة حاسمة جعلتها تقطع حديثها وتسكنين.

في اليوم التالي جاءت الشاحنات تحمل الألمان، ولكنهم لم يكونوا يعتمرون خوذات، بل سترات. احتل الضباط المبنى الجيد ذا السقف الحديدي الذي كان يملكه آباء بيوتر فيليبوفتش، والواقع عبر الشارع منحرفاً عن الدار التي يسكنها الآن. أما الجنود فقد توزعوا على دور الفلاحين. وقبل ذلك ببضعة أيام كان جميع الشباب تقريباً - الفتيان والفتيات - قد اختفوا من القرية: أحد ما اجتذبهم إلى مكان ما. وهذا لم يعجب الألمان بالمرة. ألصقوا على باب الأمرية وعند البئر إعلاناً مكتوباً باللغتين على ورقة من النوع الجيد يحددون فيه قواعد السلوك المفروضة على الروس، ومن يخالف فعقوبته الإعدام حصراً. وبعد ذلك بدأت حملات تفتيش شاملة. روت براسكوفيا شافيشنا التي استولى عليها الذعر أن لدى الألمان جندياً مختصاً بالبحث عن الخناثيص المخبأة: يدخل الفناء بهدوء ويبدأ يقيب، فلا تميز بين نخيره ونخير الخنازير، يقيب ويصغي. وبالفعل ردت عليه الخناثيص في عدد من الأحيان، مع أنها كانت مخبأة جيداً في العلية.. وقد



بكت النسوة بمرارة فيما بعد...

كان الألمان يستولون على كل شيء ويفرغون الدور من كل ما فيها. وراحت براسكوفيا سافيشنا تئن وتناؤه وهي تنقل الملابس في الليالي من الصندوق إلى القبو ومن هناك إلى تحت الرماد أو إلى تحت فرن الدار، أو تدسها في مكان ما. أخيراً صاح بها بيوتر فيليبوفتش وهو يخطب الأرض بقدميه: "اجلسي بهدوء، أو اذهبي موتي في مكان ما، ابعدي عني!". بيتهم كان كأنه يتمتع بالحصانة، فالألمان كانوا يتجنبون الدخول إليه. وأخيراً جاء اثنان مسلحان ببندقيتين. أرخى بيوتر فيليبوفتش قبعته الفرو التي ورثها عن أبيه حتى عينيه، وسار بهدوء بين الجنديين. وقف عند مدخل مبنى الأمرية ورأى هناك كيف كان شخص ألماني طويل القامة يضع نظارة ويبدو بمظهر الإنسان المنقف يجذب نحوه فتاة ذات وجه مدور في الرابعة عشرة من عمرها، وكيف كان يفتشها ويجسها وهي تتقيه بمرقبتها وتهمس: "لا يا عماء، لا تفعل... لا تفعل" حشرها بين ركبتيه وراح يضغط على نهديها بيده الكبيرتين الحمراوين. قشعرت تبكي. دقعا في قفاها، فتعذرت وابتعدت. أصلح من وضع نظارته، وتطلع إلى بيوتر فيليبوفتش، لا إلى وجهه، ولا إلى عينيه، بل إلى أعلى من الوجه. سأل وهو يلهث بعض الشيء:

— أهذا هو بيوتر غورشكوف؟

دلف بيوتر فيليبوفتش على إثر الألماني الطويل إلى البيت الذي ولد وكبر وتزوج فيه ودفن فيه أباه وأمه وثلاثة من أبنائه. لقد حمل طوال حياته هذا البيت على كاهله رازحاً تحت وطأة هذا العبء الثقيل الذي لا فكاك منه. كانت الجدران قد طليت بالكلس حديثاً، والأرضيات غسلت جيداً؛ وكانت نفوح في الغرفة ذات النوافذ الثلاث رائحة السيجار. في الأيام الخوالي كانت عائلة غورشكوف تجلس هنا إلى المائدة في

الأعياد الكبيرة. وضع الألماني الثاني القلم باحتراس، ونظر باتجاه بيوتر فيليبوفتش رافعاً بصره إلى ما فوق رأسه، وقال بالروسية:

— اقلع قبعتك واجلس على الكرسي قرب الباب.

كان هذا الألماني وسيماً، ذا شاربين أسودين، ومفرق شعر لامع. وكانت عراه السود مزينة ببروق فضية (كانت تعني في الأبجدية الرونية القديمة حرفي "C" و"C" وهي أيضاً من العلامات الرئيسية للملازمة لا له الحرب الجرمانى "تور")

قال بعد فترة صمت طويلة:

— قصة حياتك معروفة لدينا، أنت كنت معادياً للسلطة السوفيتية، وأمل أنك مازلت معادياً لها (كان بيوتر فيليبوفتش الذي وضع قبعته على ركبتيه، وأبرز لحيته إلى الأمام ينظر إلى الضابط بعينه الصغيرتين اللامعتين اللتين تطلان من خلال شقين صغيرين متغضنين).

ما الذي نريده منك؟ نريد منك أن تقتل إلينا كل ما تحصل عليه من معلومات عن السكان، وخصوصاً عن الصلات مع الأنصار، وأن تجبر السكان على العمل؛ لا يحسنون العمل، ونحن الألمان لا نحب هذا.

الإنسان يجب أن يعمل من الصباح حتى الليل طوال الحياة، وإلا فإن الموت سيكون بانتظاره؛ لدى والدي في أرض الوطن مطحنة صغيرة يعمل فيها كلب؛ إنه يركض ليلاً ونهاراً في دولا ب الطاحون. الكلب حيوان ذكي وهو يريد أن يعيش؛ وهذا لا يمكنني أن أقوله عن الروس... والآن أنت ستعين رئيساً لبلدية ميديوفكا. يوم الاثنين ستحضر تنفيذ حكم الإعدام باثنين من الأنصار. وبعد ذلك ستولى مهامك.

عندما عاد بيوتر فيليبوفتش إلى البيت هرعت إليه زوجته تسأل: —

إيه، ماذا قالوا لك؟ هل سيعيدون لنا البيت؟

أجاب بيوتر فيليبوفتش بإعياء وهو يجلس على المقعد وينزع وشاح عنقه:

— كيف إذا، كيف إذا!

— وماذا قالوا لك أيضاً؟

— أمروا بأن تحمي لي الحمام.

تلعثمت براسكوفيا سافيشنا وزمت شفيتها وهي تحمق في زوجها. ولكنها خافت أن تكرر السؤال... "وعلى كل هذا صحيح: فالיום السبت والألمان يحبون النظام.." وانتعلت جزمها وذهبت تحمي الحمام على ضفة النهر.

استحم بيوتر فيليبوفتش جيداً في الحمام البخاري، واحتسى الكثير من الشاي ونام. وقبل الفجر كان قد غادر البيت.

كانت رئاسة أركان الأنصار الذين يشغلون بال الألمانى الوسيم ذي اللياقة المزينة بالبروق قد اتخذت مقراً لها في مكان غير بعيد عن قرية ميدفيدوفكا إذا قيسست المسافة على خط مستقيم، ولكن الوصول إلى هناك كان في غاية الصعوبة: فالطرق والممرات التي لا تكاد تُرى، والتي لا يعرفها إلا السكان المحليون كانت تتعرج عبر أدغال كثيفة من التوتوب والحوار الرومى والأشجار الحراجية الأخرى وتقضي إلى مستنقع. وفي وسط هذا المستنقع يقوم مقر رئاسة الأركان على جزيرة صغيرة صلبة، وكل الطرق المؤدية إليه مخفورة بمراكز حراسة إضافية سرية؛ لم يكن الألمان يتجرؤون على التقدم ولو خطوة واحدة إلى داخل الغابة. وإذا حاول شخص غريب أن يتخطى حدود الغابة سيسمع فجأة صوت نفاث الخشب وهو ينقر الأشجار في مكان ما بجانبه، ويسمع كيف سيرد عليه الوقواق من بعيد، وكيف سترى في الغابة كلها أصوات غريبة: نقر وصغير ونعيق غرابان ونباح كلاب منقطع.. سيصاب الغريب بذعر رهيب هنا..

في ذاك اليوم كانت الريح ساكنة والمطر بهطل رذاذاً ناعماً، ولم تكن قيادة الأنصار ترى الظروف ملائمة للقيام بعمليات كبيرة. وقد انطلقت كالعادة مجموعات صغيرة تضم كل منها ثلاثة أو أربعة أشخاص، بعضها للاستطلاع، وبعضها لزرع ألغام على الطريق العام. وكانت هناك مجموعة خاصة، قد كمنت منذ المساء منتظرة مرور قطار عسكري. أقام الألمان على جانبي ردمية السكة الحديدية التي غطيت بالكس لاكتشاف آثار مرور الأنصار مراكز حراسة كل كيلو مترين، وكان الحراس يقفون في مراكزهم متجهمين وينظرون بخوف فيما حولهم. على بعد عشر خطوات من أحد مراكز الحراسة كانت تتبطح راصدة في دغل من نبات السعدى داخل مستنقع صغير ممتدة بأعصان مكسرة: فتاة مسلحة ببندقية قصيرة وقنبلتين يدويتين سوداوين لا يتجاوز حجم الواحدة حجم بيضة الأوز. وعلى مسافة قريبة منها كان يجثم صبي خلف جذر مقلوع، وكان هذا الصبي قد شاهد بأم العين كيف ساق جنود خضر — رماذيون يعتمدون الخوذات أسرته كلها — أمه وجدته وأخواته — إلى داخل عتير الدريس، وكيف شبت النار ليلاً في العنبر، وقد سمع وسط الصراخ صوت أمه تستغيث،... كان وجه الصبي أصفر تغطيه تغضنات شيخوخية، وكان هو أيضاً لا يحول بصره عن الألماني الذي كان يسير فوق الردمية، وقد ضغط خوذته على رأسه.

عندما اجتاز أحد الحراس المكان الذي كان المقاتلون الأنصار قد حددوه، قفز من خلفه فتى رشيق الحركة يرتدي سترة مضرية مشدودة بحزام شديداً وثيقاً، وتجاوز الردمية بوثبة واحدة ماداً رشاشه إلى الأمام، وفي تلك اللحظة هب شاب آخر من بين الشجيرات بلا ضجة، وبدأ يضع تحت السكة بحركات سريعة عبوة معقمة ومرعبة.

انتشر هدير القطار في الغابة، ثم ظهر بكامله للعيان عند منعطف الطريق. وراحت أعمدة الدخان البيضاء المتصاعدة منه تهبط منبسطة على الأرض وتتشابك وتتداخل بين الأرومات العالية وأشجار البتولا النحيلة

المتباعدة. كان القاطر البخاري الضخم المرفوع فوق العجلات يقترب أكثر فأكثر وهو يزفر أنفاساً حارة، ونزل الحراس عن الردمية مشيرين إلى أن الطريق حر ومفتوح. وفجأة دوى أمام القاطر صوت انفجار حاد، وارتفعت زوبعة رملية وانقذت قطعة من السكة جانباً وتطايرت منها شظايا وهي تصدر صغيراً. واصطدم القاطر بكل ثقله المندفع اندفاعاً عاصفاً بالعوارض، وراحت العربات المقطورة ترتطم بمؤخرته المنحرفة مصدرة قرعة عالية وتدخل إحداها في الأخرى، وتتحرف ثم تتقلب بتقلها الهائل على منحدر الردمية، ويتساقط منها أشخاص خضر - رماديون مطلقين صراخاً كالويل.

وعلاوة على أمثال هذه العمليات كانت لدى الأنصار أشغال أخرى كثيرة في هذا الصباح. كان رئيس أركان القيادة يفتخوف بتحدث بصوت خافت مع ضيفه رئيس سرية خيالة الاستطلاع إيفان سوداريف وهما جالسان تحت رذاذ المطر على شجرة صنوبر ساقطة قرب الملجأ الأرضي المموه بحشيان من عليتي كونسروة معدنتين شاميانيا فرنسية من التي تغنى بها بوشكين في زمانه كان الأنصار قد غنموها من الألمان.. جراح الاثنين القديمة كانت تنق في هذا الجو الرطب. وقد تحدث يفتخوف عن مختلف الصعوبات والمشكلات التي يعانون منها بسبب نقص المعلومات التي تصله حول العمليات التي يعد لها العدو وحول ما يجري في مناطق المؤخرة الألمانية.

— يلزمنا مستطلع في العمق، ولكن أين يمكن أن نجده؟ هذا هو الهم الذي يؤرقني.

— همك مبرر — قال إيفان سوداريف بتفهم وقنف من عليه الكونسروة ثمالة الشراب الخفيف — بدون استطلاع في العمق سيقاثل رجالنا الشجعان بعيون معصوبة، وهذا ضرب من العبث.

ففي أثناء هذا الحديث اهتزت أغصان تنوبية مغطاة بحبات المطر، وتساقطت منها قطرات الماء، وظهرت من خلفها فتاتان ترتديان سترتين عسكريتين قَمَ لونهما وكماهما البُلبُل وتورتين قصيرتين وجزميتين كبيرتين. كانتا تمسكان ببندقيتين ركبت حربتاها، وتسوقان ببوتر فيليبوفتش غورشكوف الذي كان يسير معصوب العينين بمندبل من الشيت وماداً يديه أمامه. قالت الفتاتان مبررتين تصرفهما وإحداهما تقاطع الأخرى إنهما قد قبضتا على هذا الرجل على مسافة ثلاثة كيلو مترات من هنا، ومن غير المفهوم كيف استطاع أن يتسلل متجاوزاً مراكز الحراسة السرية.

— هذا صيد ثمين — قال إيفان سوداريف مخاطباً رئيس الأركان — بتّ عنده مرة في ميديدوفكا. إنه ذكي، ومكار، لنستمع ماذا سيقول.

فُكَّت العصابة عن عيني ببوتر فيليبوفتش، وتكبت الفتاتان ببندقيتيهما وابتعدتا عنه على مضض. رفع ببوتر فيليبوفتش رأسه ناظراً إلى أعالي الغابة المغشاة بالضباب وزفر قائلاً:

— إليكم بالذات قصدي الوصول، لدي أمر أريد التحدث عنه معكم...

— شيء طريف، وما هو هذا الأمر الذي تريد التحدث عنه معي — أجابه رئيس الأركان وهو يرمقه بنظرة ثاقبة باردة — هل يسيء الألمان إليك.

— بالعكس، الألمان لا يسيئون إلي... وأنا قضيت عشر سنوات في السجن بتهمة التخريب.

— هل تعرف يا غورشكوف أنك تسلفت إلى هنا من غير أن يدعوك أحد، وقد أصبح من الصعب عليك الآن أن تعود من حيث أتيت؟

— وكيف لا أعرف.. أنا أتيت وروحي على كفي...

تبادل رئيس الأركان وإيفان سوداريف النظرات، ثم قال الأول وهو يفسح مكاناً على جذع الشجرة:

— تعال اجلس يا غورشكوف.. هكذا سنتحدث براحة أكبر. لماذا اخترت مثل هذا الأسلوب المعقد للانتحار؟

جلس بيوتر فيليبوفتش على الجذع المكسور واضعاً كفيه تحت بطنه..

— أخذت.. أخذت بنظر الاعتبار أنكم لن تصدقوني... لم يكن هناك مكان أذهب إليه. البارحة استدعوني وعرضوا عليّ تولي منصب رئيس البلدية... عند الألمان: مبدأ التكافل والتضامن، ولذا قرروا أن يربطوني بجريمة: يوم الاثنين يجب أن أشهد إعدام اثنين من مقاتليكم...

لم يعد بإمكان مفتوحوف أن يظل جالساً في مكانه، فهب واقفاً أمام بيوتر فيليبوفتش وصاح به وقد اعوج حاجباه من الغضب وراح يثقب بنظراته الشقيين الكتيمين في وجه محدثه.  
— تباً لك أيها الشيطان.

قال له إيفان سودارييف: — اجلس، هذا بإمكانك أن تفعله عندما تريد — ثم توجه إلى الآخر قائلاً: — اكمل حديثك يا غورشكوف. إننا نصغي إليك.

— سلفاً أريد أن أقول لكما: إنني بالفعل كنت محزباً وأدنت عن حق. ولكن لم أكن منتسباً إلى أية منظمة، بل كانت هذه تهمة ملفقة... كنت حاقداً فقط... لم أكن أصدق أن أولادي سيعيشون جيداً، في يسر ورفاهية... وأنسي، أنا العجوز، ساموت بضمير مستريح، مسامحاً الناس.. كما ينبغي.. وأنني سأدفن في الأرض الروسية بشرف.. لم يكن لدي شعور بالمسامحة.. وصدف أن نشأت صلة بيني وبين مهندس زراعي وأعطاني هذا الشخص مسحوقاً. فكرت.. فكرت، وقلت في نفسي: هذه الأبقار وهذه الحيوانات التي تطعمنا.. وهذه الخيول... ما ذنبها؟ ورميت المسحوق. لم أرتكب هذا الإثم. وقد ألقى القبض على المهندس الزراعي وافترى عليّ في أثناء الاستجواب. وأنا لذت بالصمت من الحقد والغضب. قلت في سري: ليكن... هيا اتفونني...

قال رئيس الأركان الذي لم يكن قد هُذأ بعد: — قصة غريبة.

— وما وجه الغرابة فيها؟ الإنسان الروسي ليس إنساناً بسيطاً. الإنسان الروسي مخلوق عجيب. لقد ظالت عشر سنوات أعمل في المعسكرات.. فكم من الأفكار أعدت فيها النظر خلال هذه المدة؟ وهكذا قلت لنفسى: أنت الآن تعانى يا بيوتر غورشكوف.. آ، عفواً، أريد أن أضيف هنا فيما يخص بيت آبائى القديم ذا السقف الحديدى أن براسكوفيا سافيشنا هي القلقة بشأنه، وليس أنا. فهذه المسألة قد ماتت في نظري منذ مدة بعيدة؛ إذا من أجل أي حقيقة تعانى؟ في مدينة بوستوزرسك التي كانت قريبة من معسكرنا حكم على الكاهن الكبير أفاكوم بالسجن في عهد القيصر الكسي ميخايلوفتش.. قطعوا لسانه لأنه لم يشأ أن يصمت؛ وقد كتب في سجنه ولسانه مقطوع رسالة موجهة إلى الشعب راجياً منه أن يعيش كما تملئ عليه الحقيقة، وأن يدافع عن الحقيقة، حتى النفس الأخير... لقد قرأت كتابات أفاكوم. آنذاك كان لديهم حقيقتهم، واليوم هناك حقيقة أخرى، ولكن الحقيقة... الحقيقة هي الأرض الروسية...

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

قال إيفان سوداريف لرئيس الأركان: — ما يقوله مقنع.. أكمل يا غورشكوف، ادخل في الموضوع.

— لن نتعجل، سنصل إلى الموضوع. الشاب الألمانى، الضابط تحدث بالأمس عن كلبه. قال إنه حيوان ذكي ومفيد، وهذا لا يمكن قوله عن الروس. الألمان يسخرون منا.. آ؟ — بسط بيوتر فيليبوفتش فجأة تغضبات وجهه ونظر بعينه المستديرين الثقيلتين العديمتي اللون إلى مستمعيه — إنهم يسخرون من الشعب الروسى: ينظروا إلى هذا الشعب الذي لا يغتسل ولا يمشط شعره، يعيش بغباء مطبق؛ أضربوه حتى الموت ! الباردة كان هناك ضابط آخر يجس جسد الفتاة أنتونكا كيسيلوفا في الشارع على مرأى من الناس؛ فتاة جميلة لطيفة، وقد عمد الضابط إلى رفع تنورتها وهو يلهث.. كيف نفهم هذا؟ هل جاء المسيح الدجال؟ هل انتهت الأرض الروسية؟



السلطة السوفيتية سلحت الشعب وقادته إلى المعركة لكي يكف الألمانى اللعين عن الهزء بنا.. إنكم، يا رفاق، تقومون بعمل أساسى، شكراً لكم.. السلطة السوفيتية هي سلطتنا، سلطة الإنسان الشعبى الروسى... أنا أغلقت حسابى الشخصى ونسيتته منذ مدة طويلة...

استند بيوتر فيليبوفتش بمرفقيه، وغطى براحة يده جبينه تحت حافة قبعته الغرو وقال:

— والآن قررنا... إما أن نقودانى إلى الغابة وتطلقا على النار.. وأنا مستعد لهذا، ولكن هذا سيكون مؤسفاً، أقسم لكم، وإما أن تصدقانى. وأعرض عليكم أن أقدم لكم عنهم كل المعلومات التى أحصل عليها. وأنا سأعرف كل شيء، وسأصل إلى هيئة أركان جيشهم، لدى ما يكفى من المكر. سأعمل بجرأة. أنا لا أخشى الموت ولا أخاف من التعذيب.

هبط إيفان سوداريك ورئيس الأركان يفتخوف إلى الملجأ الأرضى وتجادلا هناك بعض الوقت. فمن جهة كان من الصعب تصديق مثل هذا الشخص ومن جهة أخرى كان من الغباء عدم الاستفادة من عرضه. خرجا من الملجأ، وقال يفتخوف بلهجة صارمة لبيوتر فيليبوفتش الذى مازال جالسا على جذع الشجرة:

— قررنا أن نصدقك. وإذا خدعتنا سنجدك ولو تحت الأرض... تهلل وجه بيوتر فيليبوفتش ونهض وخلع قبعته منحنياً:

— هذه سعادة. سعادة كبرى لى. المعلومات سأرسلها إلى المكان الذى تعينونه مع ابنتى.. فابنى يشبه أمه، ضعيف، أما ابنتى فهي تشبهنى، طفلة شرسة، كتومة.

عصبوا له عينيه وأخذته الفتاتان اللتان أحضرته. يوم الاثنين جاء مثل ذلك اليوم: غائماً وماطرأ؛ ومنذ الصباح راح الجنود الألمان يطردون السكان إلى الشارع وهم يصيحون بكلمات غير مفهومة، ويشيرون بأيديهم

نحو المجلس الريفي. وهناك، في الساحة الصغيرة حيث كانت توجد حديقة صغيرة ينتصب فيها تمثال لينين كان الألمان قد اقتلعوه وحطموه، تنتصب الآن، قائمتان عاليتان بُنيت عليهما عارضة غلق عليها حبلان دقيقان ينتهيان بأنشوطتين.

كان الجمهور كله يعرف أنهم سيشنقون الكومسومولي ألكسي سفيريديوف الذي أطلق الألمان عليه النار في حرجة الجوز القريبة من القرية، وكلافديا أوشاكوفا، المعلمة في مدرسة ميديفوفكا الابتدائية، التي قبضوا عليها هناك وهي تحاول أن تحمل ألكسي سفيريديوف لتنفذه.

راح الجنود يسوقون الجمهور ليحشدوه قرب المشنقة وهم يهزون ذقونهم ويصرخون كما لو كانوا يسوقون قطيعاً في الشارع العام المغبر نحو المدينة لإيصاله إلى المسلخ.

وكان المطر يسيل على خوذاتهم الفولاذية، وعلى وجوه النساء المتغضنة، وعلى خلود الأطفال. والأول ينشج تحت الأقدام، ولم يكن يُسمع وسط الجمهور سوى صياحات بعضهم بصوت ضعيف وسقيم عندما يخزنونه برأس الحرية.

أقبلت شاحنة تقف فيها المعلمة حاسرة الرأس وشاحبة شحوب الأموات، ومعطفها الأسود مفكوك الأزرار، وقد قُيدت يداها خلف ظهرها. وعند قدميها كان يجلس سفيريديوف شبه حي. لقد كان فتى متحمساً يقنع المستمعين بما يقول، وكان أهل القرية يحيونه، أما الآن فلم يبق منه شيء من شدة التعذيب، وكان يجلس مترخياً كال كيس. خلف الشاحنة كان يسير ضابطان: الطويل ذو النظارة حاملاً آلة تصوير، والوسيم. وكان الاثنان يضحكان بسخرية رزينة وهما ينظران إلى الروس.

وصلت الشاحنة واستدارت واقتربت بمؤخرتها من المشنقة، ووثب إلى ظهرها جنديان، وفي تلك اللحظة فتحت كلافديا أوشاكوفا عينيها وكأنها

أصببت بذهول لا يُدرى كنهه، وصاحت بصوت منخفض:

— أيها الرفاق، أنا أموت، أبيدوا الألمان، أفسموا لي..

هوى أحد الجنديين بعنف على فمها براحة يده...

وشرع على الفور يدخل رأسها من قفاها بحركة سريعة متعثرة داخل الأنشودة لتحيط برقبته الطفلية الدقيقة.

أما أنكسي سفيريدوف الجالس أمامها فقد صاح بصوت مبجوح يمزق القلب: — أيها الرفاق، اقتلوا الألمان!

ضربه الجندي الآخر على رأسه وشرع يدخل رأسه في الأنشودة. علا صوت البكاء أكثر فأكثر وسط الجمهور. وانطلقت الشاحنة بحركة حادة مفاجئة. انجرت قدما كلافديا أو شاكوفا ومال جسدها وكأنه سيقع، ثم استقام متأرجحاً، وتدلّت المرأة قبل رفيقها من طرف الحبل الدقيق، وقد أمالت رأسها المكشوف نحو كتفها وأغمضت عينها...

وقف بيوتر فيليبوفتش، رئيس البلدية، في مكان الشاحنة المغادرة، وشاهد الجمهور كله بارتياح كيف نزع قبعته القروى ورسم شارة الصليب.

لبث رئيس الأركان عدة أيام بعد الإعدام ينتظر قدوم ابنة غورشكوف في المكان المتفق عليه: في هذه وسط دغل بلوط كثيف، ساعة الغسق. وقد جاء غورشكوف نفسه. وراح رئيس الأركان ينظر إليه وهو يرتعش بكل جوارحه. أما هو فقد جلس القرفصاء وطفق يروي بصوت منخفض وبالتفصيل كيف حدث الإعدام.

— لقد فهم الشعب الحادثة على أن الشخصين اللذين غادرا هما شهيدان عظيمان، قديسان.. ووصيتهما قبل الموت استقرت في أذان الجميع... أما فيما يخص المعلومات فإنها كالآتي...

وطفق يذلي بمعلومات هامة إلى حد لم يكن الرئيس الأركان ليحلم به. نظر طويلاً إلى غورشكوف بعينين مبجلتين، ثم قال: — وإذا كنت تكذب...

لم يرد بيوتر فيليبوفتش، بل اكتفى بأن يسط راحتيه وضحك ساخراً. ثم أخرج من قبعته مخططاً يحدد مواقع مستودعات البنزين والذخيرة الألمانية، وقد أشير إليها بصلبان صغيرة. قال له يفتوخوف وهو يخبئ الورقة في جيبه:

— إياك ورسم المخططات. إنني أمنعك منعاً باتاً من فعل ذلك، عليك أن تحفظ كل شيء في ذاكرتك.. بلا أية وثائق! وأنت لا تأت إلى هنا بنفسك ثانية. أرسل ابنتك...

يبين أن معلومات غورشكوف دقيقة. وراحت المستودعات الألمانية تتطاير شظايا في الجو واحداً إثر آخر. وصارت الفتاة أنا ذات الوجه الأبيض المتجهم تتسلل كل مساء تقريباً إلى الوحدة ناقلة معلومات هامة تارة وقليلة الأهمية تارة أخرى.

وقالت مرة متممة بصوت لا مبال كالعادة:

— أمرني أبي أن أقول لكم: إنهم قد استلموا رشايات جديدة. ومفاتيح المستودع موجودة غداة الآن، وستكون أول من سيتسلمها. تعالوا غداً ليلاً؛ ولكنه يوصيكم بالآ أن تطلقوا النار على الحراس بأي حال من الأحوال، بل اذهبوهم ذبحاً...

كان بيوتر فيليبوفتش يعمل بجرأة وجسارة. كان كأنه يسخر من الألمان، ويريد أن يثبت لهم أن الإنسان الروسي مخلوق عجيب فعلاً، وليس للعقل المسطح المحدود أن يباري العقل الروسي الحاد لصاحي الملهم الذي غالباً ما يجهل حدود إمكاناته.

كان الضابطان الألمانيان واتقيا بأنهما عثرا على شخص ذكي مخلص لهما كما الكلب لصاحبه. ولكنهما كانا يعيشان في خوف دائم؛ فأمام بصرهما كانت تحترق المستودعات العسكرية، وتقع كوارث القطارات، وبالذات تلك القطارات التي تنقل جنوداً أو أحمالاً ذات أهمية خاصة. لم يكن ليخطر لهما

ببال، على سبيل المثال، أن نصف الصناديق التي وصلت من وارسو مملوءة بالرشاشات والمسدسات لم يعد موجوداً، وأن الصناديق المغلقة بعناية التي أرسلت من ميديدوفكا إلى الجبهة مملوءة بالرمل. ولم يكن للضابط الذي زينت ياقته ببروق الإله "تور" أن يفتن إلى أن الهجوم الغريب الذي شُنَّ على منزله في إحدى الليالي الحالكة كان يهدف إلى اختطاف جعبته الميدانية التي تحتوي على خارطة رُسمت عليها إشارات بالغة الأهمية والاحتفاظ بها بضع ساعات. هو نفسه نجا، ولكنه أصيب بالهلع عندما دوى في منتصف الليل صوت تحطيم نافذته وسقوط شيء ما على أرض الغرفة وانفجاره، ولو لم ينبطح في تلك اللحظة على السريр الواطئ لحدث ما لا يمكن إصلاحه. قفز بملابسه الداخلية إلى الشارع. وكانت تنز في أجواء القرية أصوات الطلقات، والجنود يندفعون من داخل الدور متركضين وهم يصيحون: "الأنصار الأنصار" ويطلقون النار على الظلمة. رأى عند مدخل مسكنه جارسين مذبحين؛ ولم يفتقد جعبته إلا في الصباح، ولكن سرعان ما أحضرها له بيوتر فيليبوفتش مع حقيبة صغيرة ومعطف عسكري ملطخ بالوحل. وقال إنه وجد هذه الأشياء هنا في حديقة المنزل، ومن الواضح أن الأنصار قد ألقوا بها عند فرارهم.

إن تعيين بيوتر فيليبوفتش في منصب رئيس بلدية قد كلف الألمان غالباً. ولكنه مع ذلك وقع أخيراً بسبب أمر نأفه، أو على الأصح بسبب حقه المتعالي على الألمان. فقد اختلس الختم وأنموذجاً من الأوراق الرسمية، وأخذ من المستودع آلة كاتبة ألمانية وذهب إلى قرية ستاريابودا حيث كانت تنشط فرقة أنصار فاسيلي فاسيليفتش كوزوبسكي. وقد كتب له مدير المدرسة باللغة الألمانية بطاقة سماح بدخول المدينة والوصول إلى رئاسة أركان الجيش. ولكن على الرغم من أن فاسيلي فاسيليفتش يجيد اللغة الألمانية، إلا أنه ارتكب خطأ نحوياً. وقد أدى هذا إلى افتضاح أمر غورشكوف. اعتقلوه وأعادوه إلى ميديدوفكا مع البطاقة المزورة. ولم يشأ

الضابطان، الطويل والوسيم، أن يصدقا مثل هذا المكر الروسي العصي على الإدراك. ولكنهما فيما بعد امتلأ غيظاً وحنقاً، وأدركا الآن كنه كل شيء....

حدث هذا في تلك الأيام التي اخترق فيها الجيش الأحمر الجبهة الألمانية في أحد المواقع وطرد الألمان من البلدات والقرى هناك. وكان الأنصار هم أول من افتحم قرية ميدفيدوفكا المحتلة. في الشارع اقتربت أنا من مفتوحوف، كان شعرها مشعثاً ومتلبداً في كتلة واحدة محشوة بالتراب، وقد استطل وجهها العجائزي المغبر، وتمزق ثوبها عند الركبتين.

— هل تبحثون عن أبي؟

— نعم، نعم، ماذا جرى له؟

— الألمان أحرقوا دارنا وقتلوا أمي وأخي، وظلوا يعذبون أبي أربعة أيام، وهو مازال حياً، معلقاً، تعالوا معي.

سارت أنا أمام مفتوحوف ذابلة منهكة، واتجهت نحو بيت غورشكوف القديم ذي السقف الحديدي. التفتت وفتحت فيها بصعوبة لتقول:

— لا تظنوا أن أبي قد قال لهم شيئاً.

في حظيرة الأبقار كان غورشكوف معلقاً على عارضة وليس عليه سوى سرواله الداخلي الذي تتدلى منه قدماء المرخيتان للزرقاوان؛ كان جذعه المعوج مغطى كله بآثار السباط، ويداه مربوطتين خلف ظهره، وأضلاعه بارزة، وقد أدخل خطاف في صدره من الناحية اليمنى... كان معلقاً على العارضة من ضلعه..

وعندما نادى مفتوحوف رجاله وحاول رفعه لكي يخفف آلامه قال بيوتر فيليبوفتش وكأنه ليس في وعيه:

— لا يهم.. إننا روس.

□□□

# مقدمة استجواب "ف.م. دوستويفسكي"

بقلم:  
لُبا جُرْجَنسون

■ ترجمة : عوض الأحمد ■

عن الفرنسية

((حكمت المحكمة العسكرية على المتهم "دوستويفسكي" بأنه مذنب لامتلاكه في آذار من هذه السنة من قبل المتهم "بلشيف" من "موسكو" نسخة عن الرسالة الإجرامية للناقد الأدبي "بيلنسكي" وقراءة هذه الرسالة في اجتماعات: أولاً في بيت المتهم "دوروف" وبعد ذلك في بيت المتهم "بيتراشيفسكي" وأخيراً لأنه عهد بها إلى المتهم "مومبيلي" لإعادة نشرها من جديد ولهذا فإن الضابط المتقاعد "دوستويفسكي" لعدم إبلاغه سلطات باننقال رسالة "بيلنسكي" المهينة للدين وللحكومة حكم عليه بعقوبة الموت مع مصادرة الأموال والتجريد من الحقوق.

لم يكن "دوستويفسكي" حينذاك قد كتب أية رواية من الروايات الكبيرة التي ستجعله مشهوراً ورغم ذلك فهو معروف سابقاً بفضل قصة "الناس الفقراء" المأثمة من "بيلنسكي" و "بيتراشيفسكي" والجنرال "روستوفسيف"

الذي يدير الاستجواب.

فقد قال له هذا الأخير: ((لا أستطيع أن أصدق بأن الإنسان الذي كتب "الناس الفقراء" يكون مرتبطاً بهؤلاء الأشخاص الفاسدين. هذا مستحيل فإتهامك ضعيف وأستطيع العفو عنك باسم عاهلنا بشرط أن تحدثنا عن كل القصة)).

وبما أن "دوستوفسكي" قد سكّت فإن الجنرال خرج على عجل وانزوى في الغرفة المجاورة مغلقاً إياها بالمفتاح وصارخاً: هل خرج؟ أخبروني بخروجه فلم أعد أطيق رؤيته!".

بنى "دوستوفسكي" دفاعاً مؤثراً ومتكرراً لحرصه على الوضوح والدقة المكروية. وحده بمصيره حينئذ جعل وجه "دوستوفسكي" الإنسان ينجلي بقوة غريبة وأظهر أيضاً وجه عدالة تعسفية لم تتجح رغم تعسفها في تشويه معنى الشرف عند الإنسان ولا تشويه الحرص على الحقيقة. طوال مدة الاستجواب كلها، بقي هذا همه الأول وانتهى بالهزيمة حتى على الاهتمام بإنقاذ حياته. ولا يعني هذا أن "دوستوفسكي" قام بإنشاء جدير بإضاعته هو ولا بإضاعة الآخرين. بل على العكس لقد توصل إلى إخفاء بعض الأشياء الأساسية. فمن الغريب مثلاً أن لجنة التحقيق المهمة بفكرة مطبوعة غير قانونية تسقط جانباً الدليل المادي الوحيد على وجود هذا المشروع. وفي عام 1885 وهذا يعني بعد ثلاثين سنة من الدعوى كشف "مايكوف" أنه في سنة 1848 زاره "دوستوفسكي" وأبلغه بقرار بعضهم في إنشاء مطبوعة غير قانونية وأنه أي "مايكوف" رفض المشاركة فيها. ((دوستوفسكي" مثل "سقراط" وهو يموت كان جالساً على السرير في قميص الليل بقبة مفكوكة الأزرار وضع كل بلاغته في الكلام عن هذا المشروع المقدس وعن واجبنا في إنقاذ الوطن الخ...)) وتمّ الإيحاء على مطبوعة يدوية وفقاً لرسم قام به "فيليبوف". وقبل يومين من توقيف المجموعة تمّ تشويق هذه المطبوعة في شقة "موردفينوف". وعند التفتيش بما أنه كان يوجد أجهزة وأدوات أخرى



فإنها بكل بساطة لم تثر الانتباه. ونجح أهل "موردفينوف" في دخول الشقة دون كسر الأختام وإخفاء المطبعة.

إن الشباب المحكومين وكذلك ((توبة العديد من بينهم)) وأخيراً كون أعمالهم الإجرامية لم تقع لها نتائج ضارة أو بالأحرى جهل المحققين المتعلق ببعض جوانب القضية أمور لعبت دوراً لمصلحتهم وبناء على طلب العفو الموجه إلى القيصر "نيقولا الأول" فقد كتب هذا فيما يخص "دوستوفسكي": ((أربع سنوات أشغال شاقة وإنزال الرتبة بعد ذلك من ضابط إلى جندي)).

حينئذ غادر المحكومون قلعة بطرس وبولص حيث كانوا محتجزين منذ ثمانية أشهر ونفوا إلى "سيبيريا".

إلى السيد الجنرال الكونت "أورلوف".

من قبل قائد قلعة "سانت بطرسبرغ".



http://ArchiveBeta.Sakhrit.com

طبقاً لإرادة سموه الإمبراطوري فإن المجرمين المحتجزين في قلعة "سانت بطرسبرغ" شطبوا من لائحة المساجين؛ فهذا المساء أرسل "دوروف" و "دوستوفسكي" و "جاستر زيمسكي" إلى "توبولسك" مقيدتين برفقة "بروكوفيف" ضابط من فيلق قناصة المشاة مع ثلاثة من رجال الدرك. وأرسل "بلشيف" إلى "أورانبورغ" برفقة "ليتر" ضابط من فيلق قناصة المشاة وأرسل "أخشاروموف" إلى "خيرسون" برفقة "فيراندير" ضابط من فيلق قناصة المشاة ودركي. وهذا ما أتشرف بتبليغه لعطوفتكم.

توقيع: الجنرال "نابوكوف"

مصادق عليه أمين سر كلية "فاسيليف"

ومن المؤكد أن حكم الإعدام وإخراج مشهد التنفيذ في 22 كانون الأول

عام 1849 وكذلك مسجن الأشغال الشاقة لعبت دوراً أساسياً في مصير "دوستوفسكي". ورغم ذلك لا يجب أن نستنتج من هذا انفصاماً جذرياً في شخصيته وانقلاباً كاملاً. فبطريقة ما بقي "دوستوفسكي" صادقاً مع نفسه رغم التناقض الظاهري بين هذا الذي كان يقرأ رسالة "بيلنسكي" في بيت "بيتراشيفسكي" ومؤلف يوميات كاتب.

إن الرؤى المحافظة والملكية التي طورها "دوستوفسكي" فيما بعد ليست بالضرورة متعارضة مع فوضويته الشخصية والروسية نموذجياً.

إن رفض الدولة ورفض السلطة في "روسيا" غالباً ما تلاعماً مع فكرة النظام الملكي. والرغبة في "التغيير من الأعلى" مختصة بالفكر الروسي وما تزال حية بالتأكيد اليوم ((لأن من يستطيع أن يرغب في الثورة الروسية))؟

الوثيقة التي ننشرها هنا للمرة الأولى باللغة الفرنسية هي استجواب "دوستوفسكي" الذي جرى في 8 و 11 و 17 و 20 حزيران عام 1849.

هذه الوثيقة موجودة في "دوستوفسكي"، "المؤلفات الكاملة"، الجزء 18،

إصدار "ناوكا"، "ليفغراد"، 1978. <http://Archivebeta>

لم يسبق نشره.

## التحقيق الرسمي "دوستوفسكي"

في قلعة بطرس وبولص حزينان عام 1849

تفضل وأجب بوضوح وإيجاز وبكل صدق على الأسئلة التمهيدية المعروضة عليك من لجنة التحقيق:

— ما هو اسمك ولقبك واسم عائلتك؟ ما هو عمرك؟ وما هو دينك وهل قُمت بجميع الطقوس المقررة في دينك في الوقت المحدد؟

- "فيدور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي"، سبعة وعشرون عاماً ديني الأرثوذكسية والشعائر الإغريقية الروسية. أُنجزت في الوقت المطلوب كل الشعائر المقررة في ديني.

- من هم أهلك وهل هم على قيد الحياة، إذا كانت الإجابة نعم فأين يسكنون؟

- كان والدي نقيب الأطباء "دوستوفسكي" وعضواً في الكلية وكانت والدتي سليله عائلة من التجار وكلاهما توفي.

- أين وعلى حساب من قمت بدراساتك ومتى أنهيتها؟

- في "مدرسة المهندسين الكبرى" وعلى نفقتي الخاصة وأنهيت الدراسة بصفة ضابط عام 1843.

- هل تعمل؟ وإذا كانت الإجابة بنعم فمتى؟ وما هو المركز الذي شغلته وما هي درجتك؟ هل حوكت أمام القضاء وإذا كانت الإجابة بنعم فلماذا؟

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

- في عام 1843 بدأت العمل في مكتب الرسم التقني في مديرية الهندسة واستقلت في عام 1844 برتبة ملازم أول. ولم أحاكم إطلاقاً.

- هل تملك عقارات أو ثروة شخصية؟ وفي حال النفي فما هي مواردك وموارد أسرتك إذا كان عندكم أحد هذه الموارد؟

- بعد وفاة أبوي فإنني وأشقائي ورثنا ملكية تتضمن حوالي مائة نسمة وتقع في منطقة "تولا" ولكن في عام 1845 وبالاتفاق مع عائلتي تنازلت عن حصتي في الميراث مقابل مبلغ من المال. وحالياً لا أملك عقاراً ولا ثروة شخصية. عشت وأعيش إلى هذا اليوم من أعالي الأدبية.

- من هم الذين كانوا أقرب معارفك والأكثر معاشرة بانتظام؟

- لم تكن لي علاقات بنقطة نامة مع أي شخص. باستثناء أخي "ميشيل

دوستوفسكي" المهندس الملازم المحال على التقاعد. ومع ذلك كان لي معارف عديدون. وبخاصة كنت أتردد على عائلة الرسام "مايكوف" والدكتور "لانوفسكي" و"دوروف" و "بالم" و"بلشيف" و"غولوفسكي" وكنت أرى غالباً أخي "ميشيل" والدكتور "لانوفسكي" الذي يعتني بمرضي منذ سنين. وكذلك "أندريه اليكسندروفيتش" بما أنني أساعد في عمل مجلته (أخبار الوطن).

-من الذين كنت تعرفهم في المدن الأخرى وفي الخارج؟  
-زيادة على زيارتي البطرسبرجية كنت أرى عائلتي في "موسكو" وفي الخارج لم أكن أعرف أي شخص.

-منذ متى تعرف "بيتراشيفسكي"؟  
-منذ ثلاث سنوات تماماً رأيتُه للمرة الأولى في ربيع عام 1846.

-من الذي حبك على معرفة "بيتراشيفسكي"؟  
-تعرفنا صدفة. إن لم أخطئ فقد وجدت نفسي مع "بلشيف" في بهو الشاي قرب جسر الشرطة وكنت أقرأ الصحف. رأيت "بلشيف" يكلم "بيتراشيفسكي" لكنني لم أكن أرى جيداً وجه هذا الأخير وفيما بعد خرجت بعد خمس دقائق. وقبل أن أصل إلى الكورنيش الكبير لحق بي "بيتراشيفسكي" وسألني فجأة: ((هل أستطيع معرفة موضوع روايتك القادمة؟)) وبما أنني في بهو الشاي لم أره جيداً ولم يوجه عندئذ إلي الكلام فقد اعتقدت بأنه كان شخصية مجهولة وليس من معارف "بلشيف".

وبوصول "بلشيف" تماماً في تلك اللحظة زالت دهشتي. لقد تبادلنا بعض العبارات وبوصلنا إلى الكورنيش الصغير افترق بعضنا عن بعض وهكذا فقد أيقظ "بيتراشيفسكي" فضولي منذ لقائنا الأول.

وفي الغد سافرت إلى "روفل" ولم أره إلا في الشتاء. لقد أحدث لدي انطباعاً بأنه رجل أصيل وليس على الإطلاق رجلاً فارغاً. لقد لاحظت بأنه

كان أديباً ومتقناً ولم أزره للمرة الأولى إلا عام 1847 في وقت الصوم الكبير.

- هل ذهبت غالباً إلى سهراته؟

- في المسنتين الأوليين ذهبت إلى هناك قليلاً جداً. كان يحدث لي أن أترك ثلاثة وأحياناً أربعة أشهر تمضي أو أكثر دون أن أذهب إلى تلك السهرات، في الشتاء الأخير ذهبت غالباً أكثر ولكن أبداً ليس أكثر من مرة واحدة في الشهر. كانت زياراتي غير منتظمة: أحياناً أحضر سهرتين على التوالي ثم كنت لا أعود خلال شهر. فمثلاً في آذار لم أكن هناك. وكان قسم كبير من زياراتي بسبب الفضول وأيضاً لأنني كنت أقابل فيها أناساً أعرفهم. وكان يحدث لي أن أشارك في حديث أو مناقشة كانت تظل غير تامة عندئذ كان المجيء إلى السهرة التالية يستهويني.

- كم كان عدد الأشخاص في هذه السهرات؟ من كان يرتادها بانتظام؟

- كان يوجد عشرة، خمسة عشر، وحتى خمسة وعشرون شخصاً أحياناً. لا أعرف جميع الأسماء، فمثلاً أسماء "اخشاروموف" و"برستوف" بقيت مجهولة بالنسبة لي حتى توقيفي. ومن بين هؤلاء الذين كنت أعرفهم عن قرب كان يوجد "بلشيف" و"دوروف" و"بالم". ولم أدخل إلى بيت "بيتراشيفسكي" إلا غولوفنسكي وأخي؛ غولوفنسكي رحل إلى قازان وبيتراشيفسكي الذي بلغه رحيل غولوفنسكي عن طريقني أراد أن يحمله رسالة معه فعرضت اصطحاب "غولوفنسكي" إلى بيته. ولئن جعلت "غولوفنسكي" يأتي إلى هناك فلأنه كان قد سمع سابقاً الحديث عن "بيتراشيفسكي". وكان قد طرح عليّ أسئلة بشأنه. لقد فعلت ذلك فقط لأدله على "بيتراشيفسكي" وأصدقائه لعلمي بأنه قبل رحيله لن يكون هناك سوى أمسيتين. وبالتالي لن أكون فرضت على أي منهما علاقة يمكن أن تبدو مزعجة أو بغیضة بما أن هذه العلاقة لن تدوم، فلم يكن "غولوفنسكي"

هناك إلا مرتين.

أما بالنسبة لأخي "ميشيل دوستوفسكي" فإنه أيضاً عرف "بيتراشيفسكي" عن طريقتي في الوقت الذي كنا نساكن فيه معاً.

كان ذلك عند عودته من "روفل"، ففي بيتي قابل "بيتراشيفسكي" وهذا الأخير دعاه إلى سهراته. لقد اصطحبت أخي إلى هناك لتسليته ولجعله يعرف الناس لأنه عملياً كان وحيداً في "بطرسبرغ" وكان يشاق كثيراً لعائلته.

ولم يشترك أخي أبداً في المناقشات ولم أسمع مطلقاً يتلفظ بكلمتين.

وكان الذين كانوا يترددون على "بيتراشيفسكي" يعرفون ذلك.

كان يذهب أقل مني إلى هناك وبسبب الفضول فقط.

لكن أيضاً لأنه أب لعائلة متواضعة الحال ويشغل كثيراً ويرفض كل المتع فهو لا يستطيع التخلي عن هذه التسلية الوحيدة التي بفضلها احتفظ بنطاق معارف ضيق. ويدون هذا فهو سيكون منعقداً على ذاته تماماً.

أقول هذا ليكون واضحاً أن أخي عرف "بيتراشيفسكي" عن طريقتي.

فأنا المذنب بهذه المقابلة وكذلك أنا المسؤول عن تعاسة أخي وعن تعاسة عائلته. لأنه طوال هذين الشهرين لئن عانينا أنا والمتهمون الآخرون من الهم والقلق الشديد فإنه قد عانى آلاماً فظيعة. فهو ذو بنية ضعيفة ومعرض للسيل الرئوي. وبخاصة أن مصير أسرته الضائع المحكوم عليها حرفياً في غيابة بالموت من الهم الشديد والحرمان والجوع يعذب روحه ولهذا كان توقيفه عقوبة شديدة له في حين أنه أقل جرماً منا جميعاً. وكان يجب أن أقول هذا لأنني أعلم بأنه ليس مذنباً في شيء ليس فقط في الكلام ولكن حتى في الفكر.

- عند اجتماع 25 آذار والذي كان موضوعه تحرير الفلاحين قيل بأن واجب كان واحد كل العمل على تحرير هؤلاء الضحايا المضطهدين غير

أن الحكومة لم تكن تستطيع تحريرهم لأنها كانت حينئذ ستلتزم بإعطائهم أراضي عن المالكين ولم تكن تملك وسائل لذلك.

إذن فلو أن الحكومة حررت الفلاحين دون أن تمنحهم الأرض ولو أنها لم تكن عوضت مالكيها فإنها كانت ستعمل بطريقة ثورية هذا الكلام لا يقول كيف يحرر الفلاحون دون إرادة الدولة. تفضل وشرح لنا لإجراءات التي تعنيها؟

سمعت هذه المناقشة وأتذكر كلام "غولوفنسكي". كان يتكلم بحمية ولكنني لا أتذكر أبداً أنني سمعته يقول بأن التحرير قد يتم بثورة.

أشهد بأنه ترك بعضنا بعضاً دون أن نوضح هذه المسألة. وانتهى كل شيء بنقاش كبير.

في الشرح الذي أعطيته شفياً اعترف بأن "غولوفنسكي" لم يكن يستبعد ثورة ثلثانية للفلاحين الذين يعون خطورة وضعهم هذا بالتأكيد ما سئلت عنه لكنني لم أدرك في بداية الأمر معنى السؤال. يجب أن أضيف أن "غولوفنسكي" لم يعبر قط عن أمنية إذ أنه لم يكن يعمل إلا على تسجيل الواقع. لأنه لو قيل مثل هذه الإمكانية لكان هو نفسه بعيداً عن الثورة وعن الفعل الثوري: هذا ما بدا لي عند نقاشاتنا.

الوقت الحاضر أتذكر جميع المناقشات ومع ذلك فإنني لم أسمع كلاماً من هذا النوع.

سأول "غولوفنسكي" الكلام في موقفين. في المرة الأولى أشار إلى أهمية مسألة الفلاحين قائلاً بأن كل العالم يهتم بها وبأنها جديرة فعلاً بالاهتمام.

وفي المرة الثانية مجيباً على "بيتراشيفسكي" فقد دافع عن الفكرة القائلة بأن حل هذه المسألة أهم من الحصول على إصلاح في العدالة والرقابة. هاتان المداخلتان كانتا مختصرتين فالأولى دامت تقريباً عشر دقائق والثانية

ليس أكثر من ربع ساعة وذكرياتي في شأن ذلك واضحة إنه لم يتكلم إلا في مشكلة الفلاح وزد على ذلك فهو لم يستطع أن يتناول موضوعاً آخر في زمن قليل جداً، ومن أجل تناول موضوع مثل تغيير الحكومة ومعالجته بالتفصيل فإنه كان يجب أن يعطي بضع كلمات عن رأيه الشخصي حول مثل هذا الموضوع الهام.

إذا فالمسألة كما صرّحت تفترض أن يكون دخل في التفاصيل بل وأن يكون عرض إجراء أعني إنشاء دكتاتورية وفي هذه الحالة كان ملزماً أن يقول كلمتين على الأقل حول الدكتاتورية موضوع المسألة.

إن أكرر بأن هذا ليس فقط كان سيقوده بعيداً عن الموضوع المختار ولكن بالإضافة إلى ذلك يكون قد عالج مسألة لم يجر ذكرها قبل أن يتناول الكلام. ولم يكن يستطيع أن يفعل ذلك إلا إذا قدمت له ذريعة والحالة لم يقدم له أحد ذلك، وأخيراً فإن مداخلته كانت ستتجاوز ربع الساعة أو حتى عشرين دقيقة. (فسيما يتعلق بمدة مداخلته أتق بذكرياتي وأمل أن لا يقول شخص عكس ما قلته): إذن حتى لو قال شيئاً مشابهاً فإنه كان وسط كلام آخر ودون أن يعلق عليه أية أهمية، إذن يجب أن لا ندهش إطلاقاً لأنني ليس فقط استطعت نسيانه ولكن لم أستطع فهمه لأول وهلة. وبالإضافة إلى ذلك فإنني أعتقد بأنه لم يتلفظ بهذه الكلمات بل شيء عن تغيير الحكومة بشكل عام وليس بالضرورة حكومتنا كتبت في ما مر ذكره ((حتى لو أنه قال شيئاً مشابهاً)) فأنا لا أزعم أن الشهادة ضد "غولوفنسكي" كاذبة. أريد ببساطة أن يفهم إلى أي حد بولغ في أهمية كلمات "غولوفنسكي" هذه (في الحالة التي قبلت فيها) (....) قلت أنفاً بأنني كنت أعرف "غولوفنسكي" شخصياً وأنني أعرف أفكاره. لم أسمع أبداً يعبر عن الرغبة في تحقيقها بواسطة ثورة ولا بشكل آخر من العنف. واليوم أصبر على أنه لم يتلفظ مطلقاً بحضوري بكلمة واحدة حول تغيير الحكومة (...). والآن اذكر إحدى محادثاتي مع "غولوفنسكي" والتي جرت في بيتي. تكلمنا عن الفلاحين وعن



تحريرهم الممكن. وبما أن هذه المسألة تهمني كثيراً فقد سألت "غولوفنسكي" ماذا ستكون حسب رأيه وسيلة تحرير الفلاحين بدون تدمير المالكين، وبعبير آخر كيف سيتم التعويض لهؤلاء الآخرين. كنت أقصد أنه لا يمكن حل المشكلة بخلاف ذلك لأن المالك اليوم لم يكن هو نفسه قد استرق الفلاحين. لقد حصل ذلك قبل قرنين ولم يكن ذلك خطأ. والحالة هذه فإنه في التخلي عن حقه على الفلاحين سيخسر اليد العاملة ورأس ماله.

وأذكر تماماً بأن "غولوفنسكي" كان موافقاً وحتى أنه أجابني بأنه لم يكن يرى ما يمكن أن يمنع من التعويض على المالكين وعندئذ حدثني عن إجراء مالي يقضي بدفع هذا المبلغ موزعاً على بضع سنين ولكنني لم أعد أتذكر أي إجراء كان يقصد بالضبط.

-معلوم أن "بيتراشيفسكي" في اجتماع 15 نيسان تكلم عن المسألة القضائية ومنحها المكانة الأولى وفي جملة ما قال أن إصلاح العدالة سيعمل على إظهار كل العيوب الأخرى وأنه لا ينبغي الشروع بثورة مسلحة - دامت غير مضمونة النجاح، وأنه يمكن الحصول قانونياً على إصلاح قضائي بالطلب إلى الحكومة القيام بإجراءات لا تملك أن ترفضها لملاءمتها وبمجرد الحصول على مثل هذا الإصلاح يمكن المطالبة بتغييرات أخرى. أشرح هذا القول وأشر في أي مناسبة قرأت في هذا الاجتماع رسالة "بيلنسكي" إلى "غولوف".

-بما أن هذا الكلام متفق مع أفكار "بيتراشيفسكي" فمن المحتمل أن يكون قائله. بالنسبة لي بعد قراءة الرسالة كنت أجد نفسي في غرفة أخرى مع، إن لم أخطئ "كاسيدانوف" و"بالم". قرأت هذه الرسالة لأنني كنت اقترحها عندما رأيت "بيتراشيفسكي" في بيت "دوروف". كنت قد التزمت ولم أعد أستطيع التراجع عن وعودي. وذكرني "بيتراشيفسكي" بها منذ يوم الجمعة التالي ومع ذلك فهو لم يكن يعرف ولم يكن يستطيع أن يعرف مضمون هذه الرسالة.

قرأتها محاولاً ألا أنحاز لا إلى هذا ولا إلى ذلك. وبعد القراءة لم أنكلم عنها لأحد من مدعوي "بيتراشيفسكي". أما بالنسبة لهم فلم يبلغوني أي رأي حول هذه الرسالة. وبينما كنت أقرأ كنت أسمع أحياناً هتافات وضحكات لكنني لا أستطيع القول من أين كانت تأتي ولا إعطاء أي انطباع عام.

أعترف بأنني تصرفت بطريقة متهورة.

وبعد تفكير أكثر نضجاً في المسألة أشعر أنني ملزم بتوضيح إجابتي. إن المسألة جرى ذكرها بجملة واحدة نسبت إلى "بيتراشيفسكي" ((لأن يتوجب الشروع في ثورة مسلحة ما دام النجاح لن يكون مضموناً)).

وإذا قلت بصراحة أكثر أن هذا الكلام كان متفقاً مع أفكار "بيتراشيفسكي" فلأن "بيتراشيفسكي" كان يرغب برؤية تغيير وتحسين النظام القضائي وهذه الرغبة كانت تأتي عنده قبل جميع الرغبات الأخرى. أما بالنسبة للجملة حول الثورة المسلحة فواجبي هو أن أؤكد بأنني لم أسمع مطلقاً "بيتراشيفسكي" بصوغ مشروع عصيان مسلح سواء كنا منفردين أو في مناقشة عامة. إنني أجهل رأي "بيتراشيفسكي" حول هذا الموضوع ولا أستطيع القول بأن هذا الكلام متفق مع أفكاره.

ولما كنت في الغرفة الأخرى أثناء مداخلته لا يمكنني أن أؤكد شيئاً حول موضوع هذه الجملة. لكنني أخمن وأفترض بأن الموضوع لم يكن يتعلق بأي مشروع وإنما ببرهنة بسيطة بأن الثورة المسلحة كانت مستحيلة.

ولقد اقتنعت بذلك لرؤيتي أكثر من مرة أن "بيتراشيفسكي" لم يكن يتقبل الكلام العنيف أو عدم التبصر في هذه الاجتماعات.

ولاحظت أيضاً أنه كان يحاول دائماً أن يستدرك الحماسة والكلمة المخالفة للصواب.

ولا يجب الاستخلاص من ذلك أنني أستطيع أو أريد أن أجيب عن "بيتراشيفسكي" فيما يتعلق بمقاصده الخفية (التي لم أكن أعرفها) أو بأفكاره

الخاصة. ربما يستوجب عليّ أن أعترف بأنني كنت لا أزال أعرفه أقل مما كنت أعتقد كما أنني لا أسعى لتبرير أفكاره تلك التي أعرف بالتوضيح الذي قدّمت ليس له هدف آخر إلا الإنصاف ويجب أن أقول الحقيقة ولهذا أكرر بأن "بيتراشيفسكي" لم يكن ليقوّه بكلام عنيف في واحدة من سهراته ولم يكن يتلفظ بكلمات مثل "الثورة" أو "العصيان المسلح" للتعبير عن رغبة.

لأنه عندئذ هذه الكلمات المأخوذة بمعزلٍ سنقدّم لهم وحدها موضوع نهار الجمعة التالي.

أكرر وأؤكد بأن اجتماعات "بيتراشيفسكي" لم تكن من طبيعة تسمح بنقاش عن الثورة في ذكرياتي لم أجد أي تدخل من هذا الطابع ولا حتى أية فكرة سواء عبّر عنها "بيتراشيفسكي" بنفسه أو أي واحد من زواره. وأخيراً إنني مقتنع بحزم أنه حتى لو سمح "بيتراشيفسكي" لنفسه بمعالجة هذا الموضوع أو أنه كان قد ترك واحداً آخر يشرح بالتفصيل فكرة من هذا النوع لما أتى أي واحد في يوم الجمعة التالي.

على الأقل أنا أضمن هؤلاء الذين أعرفهم ولا أتكلم عن مقاصد خفية ولا عن مشاريع خاصة لـ "بيتراشيفسكي" ولمدعويه (مشاريع لا أستطيع إلا افتراض وجودها) فأنا لا أسعى بإنكار هذه المشاريع إلى تبرير سهرات "بيتراشيفسكي". أريد ببساطة أن أستنتج قائلاً بأن "بيتراشيفسكي" ومدعويه لم يكونوا حمقى إلى حد تدبير مؤامرة حتى ولو كانت هذه رغبتهم (ولكن لا شيء يثبت أن هذه هي الحال ولا أؤكدّها إطلاقاً) بطريقة صريحة ومتهورة وطلّاشة.

- بصرف النظر عن هذه الأحاديث. ألم تسمع عند "بيتراشيفسكي" كلاماً مهماً يتعلق بالحكومة ومن الذي صدر عنه هذا الكلام؟

- لا أتذكر أية أحاديث وبخاصة الهامة ما عدا تلك التي كان لي شرف توضيحها والتي شغلت عملياً كل أيام الجمعة من الشتاء الأخير بدءاً من

شهر أكتوبر ومع ذلك فأنا لا أستطيع الكلام إلا عن الأمسيات التي حضرتها شخصياً.

عند "بيراشيفسكي" لم تكن نُقَدُّم بيانات على حد قوله، كان يعطي الكلام أساساً لهؤلاء الذين كانوا يعبرون عن رأيهم ضد فئات الأغلبية لكي لا تطول احتجاجاتهم ولكي لا تعكّر النقاش عبثاً. ولكن في أكثر الأحيان وبخاصة بعد المداخلة كنا ننقسم إلى مجموعات صغيرة وحينئذ يكون الحديث متبادلاً في المناقشات التي لا يمكن أن تحفظ حتى ولا يمكن أن نفهم أحياناً. قسم كبير من الكلام المذكور في المسائل قيل دون شك في هذه المحادثات الخاصة. ولكن لتدعوني أقول كلمة في هذه المداخلات وهذه المناقشات. عندنا لم يعد شخص أن يتكلم علانية ولا بجيد فعل ذلك كذلك فإن هذه الممارسة المعتمدة فقط لتجنب الصخب كانت تقلق بجديتها. لاحظت أكثر من مرة أن المحاضر كان يلجأ إلى الحيل كي يتشجع ولم تكن تلك الحيل قط من طبعه ولا من عاداته. من هذه الحيل الكلمة الطيبة والسخرية والإضحاك والنقد اللاذع والخروج غير المتوقع وكانت انفجارات الضحك من جميع الجوانب تحرض هذا الذي يتكلم. ومثل أي إنسان فهو يحدت ويضاعف العنف ويستسلم إلى الشغف المتصنع، إلى السخط وحتى إلى العدوانية ولا وجود لهذه الأمور في قلبه. لأنني غالباً رأيت ذلك حقاً فالخطيب هو إنسان من أكثر الناس لطفاً وتواضعاً. ولكن الغرور حاضر لإسكاره والرغبة في أن يعجب كل الناس تفرض عليه أحياناً قبول فكرة لا يقتنع بها حقاً على أمل أن لا تَمَسَّ تلك الأفكار التي يهتم بها كثيراً. وأخيراً يمتزج بذلك حب الذات فيثير رجُلنا ويدفعه إلى طلب الكلام عدة مرات في السهرة ذاتها ثم انتظار السهرة التالية بفارغ الصبر لينتصر على منافسيه. وباختصار، بالنسبة للكثيرين وحتى بكل صدق بالنسبة للأغلبية، فإن هذه السهرات وهذه المداخلات وهذه المناقشات لم تكن الشغل الأهم الذي يمكن أن تكونه ألعاب الورق والشطرنج الخ... التي هي أيضاً تنير الرجال وتقل

فعلها في الأهواء ذاتها الكبيرة منها أو الصغيرة.

وبحسب رأيي فإن العديد من هؤلاء هم الذين يعانون وتعمى بصائرهم ويربكون أنفسهم ذاتها. وفيما يتعلق بالأحاديث في المجموعات كان الشيء ذاته - فبمجرد أن ينهي المحاضر عرضه، كل ما كان قد تكس وكل ما لم يكن قد قيل وكل ما ثار في العقول كجواب على طول مداخلته التي يجب الإصغاء إليها دون كلمة تقال، كل هذا كان يخرج الآن بكثير من العنف لاسيما وأن الخطاب كان طويلاً، والمتعاطفين معه عديدون والمناهضات الشخصية قوية وعندئذ كانت تغلب كلمة قاسية وفكرة غير متبصرة وغريبة جداً عن الشخص الذي عبر عنها حتى إن هذا الشخص في الغد بدون شك، إن لم يكن في الساعة التالية، كان سيعتذر عن كلمته تلك ويتمنى أن يصحح ما كان قد قاله لكن بعد فوات الأوان. وإضافة إلى ذلك فإن سهرات "بيتر اشيفسكي" كانت تمضي كاجتماعات أصدقاء وليس نادياً ولا مكاناً لاجتماعات سياسية منظمّة.

أنا أؤيد ذلك وهاهو السبب. حتى لو أن شخصاً ما (والأمر يتعلق بافترض) كان يريد المشاركة في اجتماعات سياسية أو في ناد أو في جمعية سرية فإنه بدون شك لن يخلط بينها وبين سهرات "بيتر اشيفسكي" حيث لا تجري إلا الترتبة حتى لو ارتفعت النبرة فيها أحياناً بسبب سمتها الودية والعائلية. في تلك السهرات حيث التنظيم الوحيد فيها أن يعمل على قرع الجرس لطلب الكلام، كانت كذلك بالضبط لأن هذه السهرات ودية وعائلية يتكلم المرء فيها دون أي تحفظ وعلى نحو ما كان ليفعله أمام جمهور.

وإذا كان يجب الحكم على الناس من أجل أفكارهم الأكثر سرية أو من أجل ما قالوه في نطاق الأصدقاء المقربين جداً، عندما يتكلمون وكأنهم وحدهم تماماً، فمن لا يكون مدناً؟

إن الإنسان الخاص والعام ليس واحداً.

لقد دهشت جداً منذ استجوابي الأول حين اقترحت على لجنة التحقيق أن أشرح جملة "دوروف" القائلة ((بأنه يجب استخدام الأدب لإظهار منشأ الشر إلى الموظفين أعني رؤساءهم في المراتب الأعلى)).

أعرف "دوروف" شخصياً. وأتذكر أنه كان قد ساندني من كل قلبه في مناقشتين أدبيتين كانتا لي عند "بيتراشيفسكي" عندما أردت أن أثبت أن الأدب لا يتحمل التوجيه السياسي وأن ليس له غاية أخرى إلا غاية الفن المحض.

غير أن هذا يعني بالأحرى أن الأدب لم يكن يحتاج إلى (إظهار منشأ الشر) كما قيل في تلك الجملة التي نسبها الاتهام إلى "دوروف" لأنه حينئذ قد يُفرض على الكاتب توجهاً سيضايق حريته وإضافة إلى ذلك سيكون حرجاً وحقوداً وقاتلاً بالنسبة للفن.

زد على ذلك أن "بيتراشيفسكي" كان موافقاً تماماً ونقاشنا لم يكن إلا سوء فهم وجميع مدعوي "بيتراشيفسكي" يمكنهم أن يشهدوا على ذلك (...).

-هل حضرت الاجتماعات عند "سبيشنيف" و"كاشكين" و"كوزمين" و"دوروف" و"دانييلوفسكي" أو عند الاقتضاء لدى أشخاص آخرين؟

-كنت أتردد على سهرات "دوروف". ففي الشتاء الأخير تعرفت على "دوروف" و"بالم".

أفكارنا وأواقنا قربتنا من بعضنا كلا الاثنين وخاصة "بالم" أنرا في تأثيراً جيداً. وبما أنني لا أعرف طبقة الأغنياء فقد كنت حريصاً بصورة خاصة على هذه العلاقات الجديدة. إن محيط "دوروف" كان فنياً وأدبياً محضاً.

وعما قليل أخي و"دوروف" و"بالم" و"بليشيف" وأنا نفسي قررنا العمل على إصدار مجموعة من النصوص وهذا ما جعلنا نرى بعضنا أكثر في الغالب. واللقاءات جرت عند "دوروف" بسبب السهولة وسرعان ما تحولت إلى سهرات أدبية، تمتاز بقليل من الموسيقى.

تكررت هذه السهرات من أسبوع إلى أسبوع وفي أغلب الأوقات يوم السبت ومع ذلك لم يكن هناك يوم محدد.

غير أن فيليبوف قال إن هذا السهرات لا تجلب لنا شيئاً وستكون أكثر فائدة لو تحدث كل واحد منا إلى الآخرين في المجال الذي يجيد معرفته. كان ممكناً أن تجد هذه الفكرة صدى لها في الحضور لو لم يكن هناك اقتراح آخر طورها بالكامل وألقى ظلاً بغيضاً على سهراتنا. وهو أن "فيليبوف" عبر عن أمنيته بنشر نصوص هؤلاء الذين كانوا يرتادون مجلسنا فهي لم تكن لتعمر على الرقابة.

-من كان يرتاد هذه الاجتماعات وماذا كان يجري فيها؟

-قابلت "فيليبوف" الصديق الغائب في البيت الريفي في "بارغولوفو". إنه رجل شاب جداً ومتحمس تنقصه الخبرة بشكل رهيب وهو مستعد لارتكاب أية حماقة مهما تكن ولا يتمالك نفسه إلا بعد أن يكون قد أحدث أضراراً. لكنه يتمتع بكثير من الميزات التي جعلته محبوباً عندي فهو شريف وصديق وجريء ومستقيم وذو تهذيب رائع. وأكثر من هذا لاحظت فيه صفة أخرى عظيمة: إنه يصغي إلى نصائح الآخرين من حيث تأتي بمجرد أن يجدها صحيحة وما يكاد يفتنع بخطئه حتى يكون في الحال مستعداً للاعتراف به وللستوبة. ولكن طبعه الحماسي وشبابه المغالي غالباً ما يتغلبان على ذكائه وبالإضافة إلى ذلك فهو يتسم بطبع مشؤوم كلياً إنه حب الذات أو بالأحرى حبه للمجد الذي يقارب الغرابة عنده إنه يسلك أحياناً وكأن الناس جميعاً يريدون امتحان شجاعته، وأعتقد أنه ما كان ليتردد في إلقاء نفسه من أعلى

كانثرائية "سان إيساك" لو أن أحدهم قد ارتاب في عزمه على القفز. إنني أفكر في حادث واقعي، في بداية جانحة الكوليرا. إذ كنت خائفاً جداً وكانت أكبر رغبة لدى "فيليبوف" أن يعلن لي في كل يوم وفي كل ساعة أنه لم يكن يخشى الكوليرا، ولإدهاشي لم يكن يتخذ أي حيلة فكان يأكل الخضار ويشرب الحليب. وذات يوم دفعني الفضول لأرى ردة فعله فعرضت عليه عنقوداً من عنبية الغبراء لا يزال أخضر وبالكاد قد تكورت حباته وقلت له إن من يأكلها سيصاب دون شك بالكوليرا بعد خمس دقائق. فرط فيليبوف كل حبات العنقود وابتلع نصفها قبل أن أجد وقتاً للتدخل.

إن هذا الشغف المؤسف وهذه الجرأة الطفولية هي مع الأسف من السمات المهيمنة على طبعه.

وحب الذات نفسه يولد عنده الميل للنقاش إنه يناقش في أي شيء حتى في المواضيع التي لا يعرفها.

فهو منقطف بل إنه مختص في الفيزياء والرياضيات ورغم هذا فإنه يملك قليلاً من اليقين الحقيقي والذاتي بسبب نقص الخبرة وبالمقابل فإن الشباب منحه كثيراً من الأهواء المتنوعة وأحياناً الأكثر اختلافاً فيما بينها وحتى المتناقضة. هكذا يبدو لي طبع "فيليبوف". الجميع تقريباً استقبلوا اقتراحه بشكل سيئ جداً فقد أدركوا أنه يغالي جداً، وأنه كانت ترصد ردة فعل كل واحد.

ربما أخطأ ولكن يبدو لي أنه إذا كان القسم الأكبر من المشاهدين لم يعبر فوراً عن معارضته فذلك لأنه كان يخشى وحسب أن يكون مشتبهاً بنذالته من القسم الآخر.

وأنه كان يبحث عن وسيلة غير مباشرة للرفض. بدأت النقاشات وكان كل واحد يظهر عقبات هذا الاقتراح. وشيئاً فشيئاً فسد الجو الودي للسهرة كان "دوروف" يسير جيئةً وذهاباً في عارض من المزاج السيئ وكنت أشعر



بمجيء نوبة عصبية. وقد غادر بعضهم قبل الموعد المحدد وحالاً بعد العشاء.

وأخيراً فإن غيظ "دوروف" من "فيليبوف" أثار أزمة وجعله يأتي به إلى غرفة أخرى وبحجة تافهة وبوجه له بعض الشتائم. أما "فيليبوف" فقد كان عاقلاً وفهم حالاً بماذا كان يتعلق الأمر وأجاب بهدوء. وفي تلك السهرة غادرت أبكر من المعتاد.

وفي الغد قال لي أخي أن "فيليبوف" كان متمسكاً باقتراحه وأنه لن يذهب إلى بيت "دوروف". بعد يومين قابل "فيليبوف" وقال له ذلك. وحسب علمي لم يكن الوحيد الذي اتخذ هذا القرار. علمت على الأكل بأن "دوروف" كان يريد أن يضع نهاية لسهراته بأسرع ما يمكن. وعندما اجتمعنا من جديد طلبت الكلام وأقنعت كل الناس بالتخلي عن هذا المشروع. وحاولت أن أبقى ساخراً مدارياً حساسية كل واحد. لقد نجحت ويبدو لي أنهم لم يكونوا ينتظرون إلا هذا. وحالاً رفض اقتراح "فيليبوف" ولم تجر سوى سهرة واحدة هذا كل ما لدي لأقوله عن سهرات "دوروف".

-تفضل وشرح لنا منذ متى وبأية مناسبة أظهرت ميولاً تحريرية أو لشرابية؟

-بكل صدق مازلت أكرر مرة أخرى بأن تحريري الوحيدة كانت ستكون من إرادتي الخير للوطن ومن تمنياتي له كافة الإصلاحات الممكنة لقد عانيت من هذه الرغبة منذ أن وعيت نفسي ولقد كبرت هذه الرغبة في داخلي لكن دون أن تتجاوز مطلقاً حدود الممكن.

وبالنسبة لرغباتي فإنني لا أزعم أنني كنت دائماً على حق وهذا يعني أنني لن أدافع عنها جميعاً.

ربما أخطأت برغباتي الخير للجميع وتحقيق هذه الرغبة ربما تكون له نتائج غير طيبة بل مشؤومة ومع ذلك كنت أحافظ غالباً وبعبارة على رأيي.

ربما كان يحدث لي، وإن يكن نادراً، أن أعبر عن هذا الرأي بكثير من الحماس وحتى بكثير من المرارة غير أنني لم أكن مطلقاً عدوانياً ولا حاقداً وبالإضافة إلى ذلك فإن الحب الأكثر صدقاً الذي كنت دائماً أشعر به تجاه وطني كان دليلي، أنا متأكد من ذلك، وقد جنبني عدة أضاليل مشؤومة.

إذا كنت أرغب التغييرات والإصلاحات وكنت أنتظر من تعسفات عديدة ولكن أسس فكري السياسي ذاتها كانت تدفعني لأنتظر أن تأتي هذه التغييرات من جانب السلطة المطلقة وكنت أتمنى فقط أن لا يختنق أي صوت وأن يستطيع الجميع التعبير عن حاجتهم في نطاق الممكن. أعلم أن القوانين تحمي جميع الناس وكل واحد على حدة. إنني أعتقد بذلك لكن ثمة تعديلات ومن المؤلم أنها ليست نادرة ولهذا كنت أدرس وأأمل المسألة بنفسى ولكنني كنت أحب أيضاً أن أسمع الناس الأكثر كفاءة مني يتصدون لإمكانية التغيير والإصلاح. لكنني أكرر ذلك بأنني لم أرغب أبداً في المستحيل.

أما بالنسبة لميولي الاشتراكية فاستطيع القول أنني لم أكن أبداً اشتراكياً حتى لو أحببت أن أقرأ وأن أدرس المسائل الاشتراكية. أولاً ليست الاشتراكية سوى اقتصاد سياسي. والحالة هذه فإن المسائل السياسية - الاقتصادية تهمني: أحب بشغف العلوم التاريخية ولهذا تابعت بكثير من الفضول الانقلابات التي هزت "الغرب". كل هذه المأساة المخيفة أفلقتني كثيراً أولاً بوصفها مأساة وثم بوصفها حادثة تاريخية جديرة باهتمامنا. وباسم الإنسانية أيضاً لأن الوضع الراهن في الغرب يدعو للرتاء إلى أقصى حد. حدث لي أن عالجت مسائل سياسية ولكن يكاد لا يكون ذلك علناً على الإطلاق. كنت أقبل الضرورة التاريخية لانقلاب في "الغرب" ولكن فقط في انتظار إصلاح، والاشتراكية تقترح ألف إجراء لتنظيم المجتمع وبما أن جميع الكتب حول هذا الموضوع كتبت بذكاء وشغف وغالباً بحب حقيقي للإنسانية فقد قرأتها حباً بالاطلاع. والحالة هذه بما أنني درست الاشتراكية

عبر جميع مذاهبها دون أن أختار واحداً منها بشكل خاص ورغم أن معرفتي بعيدة عن الكمال فإنني أرى بوضوح خطأ كل واحد من هذه المذاهب. وأنا مقتنع بأن تحقيق أي واحد من بينها سيؤدي إلى كارثة مباشرة حتى في "فرنسا" ودون التكلم عن الوضع لدينا، لقد عبرت عن هذه الفكرة سابقاً في عدة مواقف. وأخيراً هاكم النتيجة التي وصلت إليها. إن الاشتراكية هي علم في غمرة التكوين، إنها ركام، إنها خيمياء بدلاً من كيمياء وتنجيم بدلاً من علم فلك ومع ذلك فإنني أعتقد أن هذا الركام سيعطي ذات يوم شيئاً من التنظيم والعقلاني والمفيد للصالح العام كما أعطت الخيمياء الكيمياء والتنجيم علم الفلك.

وفي الإجابة على الأسئلة التي عرضت علي كتبت الحقيقة الصرفة ولم بعد عندي شيء أضيفه.

الضابط المتقاعد المهندس فيدور دوستوفسكي

المصدر: المجلة الشهرية: لأوتر جورنال *l'autre journal*

العدد الرابع أيلول عام 1990م

□□□

# أناشيد أرمينيا

بقلم:

غيفورك إيمين

■ ترجمة : عبود كاسوحة ■

## عن الفرنسية

حدثت في أرمينيا في قديم الزمان، وفي العصر الحالي بشكل خاص،  
معجزات من النوع الذي يشبه مجرّد وصفه النشيد...

أليس ما أنوي كتابته يماثل أغنية ملحمية؟  
<http://Archivebeta.org/hrit.com>

إني حريص على أن أكلمكم عن وطني المتجدد.  
فما الوطن؟

إنه الشعب وتاريخه، إنه الأرض والماء والصخور والمصانع وكتبنا  
وأناشيدنا. إن عهداً جديداً قد بدأ لوطننا، عهداً تعيد نسمته الحياة لما يحيا منذ  
عصور. وكل ما يحيا ينشد. وليس الشعب وحده بل الأرض والمياه والصخور  
والمصانع والكتب والأغاني التي تنتمي إليه.  
تعالوا نصنع إلى تلك الأغاني.

## نشيد القرون

أنا من البلد الذي غير القرون

أعلن فيه البوق ليلاً عن بزوغ الفجر  
أنا من البلد الذي تعرّض لمصائب لا تحصى  
من غير أن ينطفئ فيه مشعل الإيمان.

مرت القرون وانطوت على هذه الأرض، فخلف فيها كل واحد جرحاً، ورسم  
ندبة على جبين شعبها وفي قلبه، وظلت تلك القرون ماثلة في الكتابات المسمارية  
وفى الصروح المهذبة وفي القلاع المنيعّة... ولم يخلف كل قرن خرائب فقط  
وجروحاً، بل أضحى درجة في سلم قاس وطويل قاد شعبنا من الشقاء إلى الهناء.  
فمن أي صفحة بدأ بقراءة هذا الكتاب الحي؟ من الصفحة التي تركت لنا  
أطلال الحصون الأورارتية...

كان أجدادنا قبل ثلاثين قرناً أو أربعين قد باسروا بحفر أقيّة ضخمة. لكن  
تلك القنوات كانت تسري أراضي ملوك أورارتو. وكانوا يغمسون الكرمة  
ويبدون القمح، لكن ملوك أورارتو يأخذون منهم محاصيلهم لتخزينها في أهرانهم  
الضخمة. "لقد عانيتنا الكثير من التعب، لكن ليس من رده علينا أضعافاً  
مضاعفة"... هذه العبارة كتبها فنانون مجهولون على لوحة فسيفساء لمعبد غارني  
Garni وهي مثل بيت من نشيد يعود إلى عصر العبودية... وحين كانت آلهة  
الأورارتيين وأصنامهم تطالب بضحايا، كانوا يضحون بأجمل صبايا المزارعين  
والحرفيين وفتياتهم.

حين عزم ملوك أورارتو على بناء قلعة يريبوني، كان المزارعون  
والحرفيون هم الذين جروا حجارة المقالع وجبلوا الملاط لتشييدها. ونقشوا على  
الحجر، بكتابة مسمارية، نصاً ما زال محفوظاً في متحف في بيريفان الحديثة،  
يعلن للعالم قبل 2750 عاماً عن ولادة مدينة يريبوني التي دُعيت بيريفان من بعد:  
"بنتمة إلهه هذا، أنشأ أرغيتي، ابن مينوا، هذه القلعة وسماها يريبوني".

وقام من بعد ملوك من أمثال روسا وساردور وأرغيسني فانتزعوا  
المزارعين والحرفيين من منازلهم وسلّموهم رماحاً وسهاماً ثم أطلقوهم لمحاربة  
تُبائِل الشمال... انطلقوا من عند بحيرة بباينا (اليوم بحيرة فان) التي تقوم على

ضفافها طوسيبيا عاصمة أورارتو، فبلغوا بحيرة سيفان. فأقاموا الحصون على ضفافها ونقشوا على الصخور الضخمة كتابات، تمجيذاً للملوك الظافرين. وقاموا، من أجل وليمة النصر، بصيد أسماك الترويت الشهيرة من بحيرة سيفان، وهي أسماك الأسماك بحراشفها الموشاة ببقع صغيرة حمراء، مثل بقع الدم الذي قدمه شعبنا... وحين هاجمت البلاد مملكة آشور الجبارة وهزمت ملوك أورارتو، دافع المزارعون والحرفيون بدمائهم عن تلك الأرض التي لم تكن وطنهم الأم بعد.

كفاح الشعب وتآلم وأحب وحلم... فماذا بقي لنا منه أو عنه؟ بقيت نصوص مسمارية تمجد الملوك من أمثال روسا وأرجيستي، وبقيت الحصون شاهداً على عظمة ساردور، والأقنية العملاقة المنسوبة إلى الملكة سميراميس.

أتحدث القبائل من بعد على شواطئ بباينا لتشكل بلاد "نايري" بأربابها وعاداتها. لقد أسسوا دولة نايري، أرمينيا، التي تعرضت منذ البداية لموجات الغزو والمصائب...

مع كل حرب، كان الرجال يسقطون صرعى في ساحات القتال، وتساق الفتيات والنساء إلى الأسر، فالأمهات يصلين والأولاد يبكون ويتولّى الشيوخ والعجائز التخفيف عنهم واعدنهم بانتهاء الحرب عما قريب... فهل كان بوسعهم أن يعرفوا أن تلك الحرب، بل الحروب، سوف تدوم قروناً وتستمر إلى أن يغدو الشعب سيد نفسه وتغدو تلك الأرض وطنه الحقيقي؟...

كان الثابت هو الحروب والشعب الذي يعاني ويلاتها، أما المتغير فهم الغزاة الأجانب وملوك البلاد الذين ينسبون لأنفسهم من غير حق مواهب الشعب وشجاعته وثمرات كده ومناقبه العسكرية.

حين شهرت روما الجبارة حسامها فوق تلك الأرض، حمل انتصار الشعب الأرمني اسم الملك تيفران العظيم وحملت مدينة وقلعة بناهما الشعب اسم تيفرانكرت. وحين أعقبت روما كل من بيزنطة وبلاد فارس حملت بطولة الشعب أسماء مثل فاغارشاك وأرشاك وأطلقت على مدن أسماء فاغارشابات وأرشاكافان.

لكن نشبت حروب وقامت غزوات تهددت وجود الشعب نفسه ولغته وكتابته وإيمانه. عندئذ خاض الشعب بأكمله الكفاح، رجالاً ونساءً شباباً وشيباً.

جرى ذلك عام 451 أثناء معركة افارايرير. فقد سحقته فيلة بلاد فارس الثقيلة خيالة الأرمن الخفيفة، لكن ازكرت، ملك الفرس، انتابه الخوف من إيمان الشعب العنيد وتمسكه الشرس بلغته ووطنه وحريته...

وتوالى القرون فجاءت بغزاة آخرين. وتوارت القرون، لكن الجراح التي تسببت بها بقيت...

أما وقد فهم الشعب فهماً مشوشاً أن الملك ليس الدولة وأن الكنيسة ليست الإيمان، عكف على الهرطقة يمثل الحماس العنيف الذي أظهره حيال الإيمان. وقامت ثورات على الكنيسة وعلى النبلاء... وعلى الرغم من العذابات والمذابح ظل رجوع فتن الهرطقة وتمرداتهم يتجاوب طويلاً بين جبال أرمينيا وفي قلب الشعب. أما حين اقتحم السلاجقة وبعدهم المغول تلك الأرض، فإن الشعب الذي أحس بريية من الإيمان مثل الريية من عدم الإيمان، لم يؤمن إلا بالأسطورة، فخلق صورة البطل الملحمي، الذي كان لرمحه الصاعق أن ينقذ الشعب حين أصبح الكاس طافحاً...

وماذا من بعد؟

إن الهدم أسهل من البناء بكثير، والإبادة أبسط من الخلق. ولئن سئم الغزاة الأجانب من الهدم والتدمير فإن الشعب الذي لا يكل، واصل البناء، سئم الآخر من الهدم أما هو فواصل الإبداع بلا هوادة...

ومهما تكن رحمة السماء ضئيلة فقد حل السلام لبعض الوقت، فتطورت مدن غنية بالمهين مثل آني. وعاد الاخضرار إلى الحقول والبساتين، وتضاعف عدد المخطوطات والمنمنمات في صوامع الأديرة. وبدأت الأغاني خجولة في البداية، تكتسب جرأة متزايدة مثل الغوسان والأشواغ، وكشف الراقصون على الحبال عن تمكّنهم من فنهم، وأدخلت الزغاريد في الأعراس والعمادات بهجة على الحياة... وتحولت الأرض شيئاً فشيئاً إلى بلاد، بل إلى دولة، إلى أن جاء عدوان غزاة جدد ليعيش عبر العالم شعبنا الذي صنع البلاد والدولة وأقام مدارس ومراكز كتابة وفنون وحرف فوق سفوح أخرى للجبال وفي وديان أخرى وعلى شواطئ بحيرات وبحار أخرى...

في القرن الرابع عشر تجلّى أمل الشعب في إنشاء بلد بصورة نهائية وإقامة دولة على المتوسط في كيليكية، لكن حلمه بالاستقلال دفن هنالك تحديداً، ولقرون. فهاجم الفرس أرمينيا مجدداً، وأعادت القبائل التركية الكرة فاجتاحت أرض الوطن وفصلت الأخ عن أخته والأم عن ابنها، وانتزعت الريشة من على المخطوط، والسكّة من أرض الحقل، ومسحت اسم أرمينيا نفسه من الخارطة، لتجعل منها ولايتين، فارسية وتركية... كان الكابوس طويلاً، طال بشكل رهيب: خمسة قرون، خمس مئة عام لا تنتهي. فانتهى الأمر بشعبنا، وهو شعب من الحجارين، إلى نسيان عادة قلع الحجارة ونحتها وآل به الأمر إلى بناء منازل، جذراتها من اللبن والطين... وصار يكتب نصوصاً بحروف أرمنية، لكن بلغة عثمانية أو نصوصاً أرمنية بحروف فارسية. ولم يعد من أحد يسمع الأناشيد والتراثيل التي لا تبارى...

ولكم من مرة تَبَدَّت الرغبة في تدمير مراكز الكتابة واقتلاع شجرة حضارتنا القوية من جذورها. لكن البذور التي سقطت من أغصانها انتشرت في العالم أجمع. ولئن لم تزهّر مراكز الكتابة الأرمنية فيما مضى إلا في أرمينيا، فقد بدأت تسبرز الآن في كل مكان تقريباً، من البندقية إلى جزر الفلبين ومن تيودوسيا إلى لقوف ومن كالكونا إلى قيينا.

ظلت الثورات وأعمال التمرد والصدامات مع المحتلين تهزّ أرض أرمينيا إلى أن قامت روسيا فمدت لها يد العون. فتنحى القسم الشرقي من أرمينيا عام 1828 بعد أن كان رازحاً تحت النير الفارسي. وتهلّل الشعب الأرمني فرحاً. وكانت البهجة مصدر إلهام المؤسّس العظيم لأدبنا الحديث خاتشاتور أبوفيان. كما كانت البهجة مصدر إلهام نرسيس أشتراكتسي، كاثولييكوس جميع الأرمن الحكيم والشجاع. إذ كان على صهوة جواده يحمل السيف بيد والصليب بيد وهو يقاتل الفرس على رأس الجيوش الروسية والأرمنية. وكانت البهجة مصدر إلهام الديسمبريين الروس، أولئك الضباط المنفيين الذين كانوا يطلبون الحرية للشعب ويناضلون في سبيلها...

لم تكن نتيجة اتحاد أرمينيا مع روسيا إنقاذ شعبنا من الإبادة الجسدية فحسب بل أشركته مع الشعب الروسي العظيم وشغفه بالعدالة...

لكن فيما كان أحد الضباط الديسمبريين يقرأ لأبوفيان أبيات بوشكين



المحظورة، وكانت تعرض في بيريفان مسرحية "الويل من العقل" - لأول مرة منذ تأليفها- كان رجال الدرك الروس يبعدون إلى سيبيريا زهرة الانتلجنسيا الأرمينية، وكان الموظف الروسي قد بدأ يبتز الفلاح الأرمني فيأخذ منه الأتاوة...

كانت مصائب شعبنا وألامه كثيرة. ففي ربيع عام 1915، وتحت ستار قوانين زمن الحرب، قام زعماء حزب تركيا الفتاة الذين كانوا يمسون بزمam السلطة في تركيا آنذاك بالتخطيط للهادئ لترحيل الأرمن وإبادتهم إبادة جماعية.

كان يقسم في أرمينيا الغربية ثلاثة ملايين ونصف من الأرمن قبل الأمر بإبادتهم من قبل السلطان عبد الحميد وأعضاء تركيا الفتاة. أما الباقون على قيد الحياة والذين نجوا بمعجزة من المجازر، فساخوا في الأرض وتبعثروا في كافة أرجاء العالم، لكنهم استقروا بأكثرية في سورية ولبنان ومصر وفرنسا واليونان وإيران وأميركا الشمالية والجنوبية.

... أما أرمينيا الشرقية فلم يبق فيها سوى حفنة من الأرمن: عشر الشعب فوق عشر ترابه الوطني. لم يبق سوى سبع مئة ألف فوق الأرض الصغيرة التي تؤلف أرمينيا الحالية. لكنه شعب ترمس بالألام التي عرقتة، شعب تدرّب على سر الانبعاث مقابل شهداء ضحوا على مدى العصور...

بعد وقت قصير، خرج الوطن المسحوق لشعب مسحوق، إلى العالم بأشعار أغيشي تشارنتس وموسيقى آرام خاتشادوريان ولوحات مرتيروس شاريان وانعكاسات حجارة بيريفان الوردية...

هؤلاء السبع مئة ألف من الأرمن، الذين بلغ عددهم مليونين (في نهاية الستينات من القرن العشرين)، رفعوا من الرمد أرمينيا قوية ومولودة مجدداً، تدرس المجرات والأشعة الكونية وتمتلك الحاسبات الحديثة والأجهزة ذات الدقة العالية وحضارة غنية وقديمة وحديثة... أليست مسألة النهوض من بين الركام والوصول إلى هنا معجزة حقيقية؟

إن مشهد تلك المعجزة كان حديث العالم أجمع، وكان أيضاً حديث حجارة أرمينيا، التي شهدت كل شيء.

فلنصنع إليها:

## نشيد الحجارَة

أنا من بلاد حجارِتها

ترقد بغرارة منذ قرون.

من بلاد كان بناؤو المعابد والقصور

يعيشون فيها بخمول داخل أكواخ طينية.

يطلق الأرمن على بلادهم اسم هايستان. لكن هنالك اسم يشبهها وينطبق عليها: كارستان، بلاد الحجارَة...

تخرق أرمينيا أكثر من عشرين سلسلة جبال، وتشرف عليها أكثر من تسع مئة قمة من ارتفاعات مختلفة. وتغطي الجبال الصخرية أكثر من ثلثي مساحة البلاد الحالية... ويقول التقليد إن الله حين خلق الأرض والمهاوي كان يقف فوق جبالنا. وحين وضع الخليلط الذي أعده في الغربال، انزاحت التربة الطيبة إلى ناحية والحجارَة التي بقيت في الأسفل إلى ناحية أخرى، في موقع أرمينيا الحالية.

يا بلاد الحجارَة الغرمرجَة

يا أرمينيا، يا أرمينيا.

إنها الصيحة التي هتف بها الشاعر أوسيب مندليستام حين شاهد أرمينيا للمرة الأولى.

إن الحمام التي قذفتها البراكين عبر العصور قد حولت أرمينيا إلى متحف مدهش لحجارَة البناء. فليس من نوع إلا وهو قائم فيها: المرمر والبازلت والغرانيت والغليس والخفان...

ولم يقد هذا الشعب، الذي يعود تاريخه إلى ثلاثين قرناً مضت، على بناء مقر له إلا في عام 1920 حين أضحي استقلال أرمينيا مضموناً.

وأصبح للحجر الذي وضع في خدمة الشعب القدرة على الكلام. فأعاد إلى أرض الوطن المهندس الساحر الكسندر تامانيان الذي عُرف في روسيا عن طريق أبينته المدهشة.

وضع تامانيان مخططاً لمدينة من مئتي ألف نسمة، يوم لم يكن تعداد سكان

بيريفان يزيد على ثلاثين ألفاً عام 1924.

ثم اضطر المهندس العجوز إلى تعديل المخطط العام للمدينة وتكبيره ثلاث مرات متتالية في حياته. ولم يكن له من خيار في ذلك. لأن بيريفان التي رقدت قرناً طويلة ضمن حدود مضمار لا يتغير، شرعت على نحو مباغت تغور وتغلي لتغزو في نموها قمم الجبال وتفيض على الهضبة المجاورة لتبلغ كاناكر. وفي كل عام يشاد في المدينة ما يساوي مساحتها عام 1920.

تجاوز تعداد السكان ستة مئة ألف نسمة في الستينات من القرن العشرين وواصل ارتفاعه نحو المليون...

إن المرء الذي يتأمل مجموعات الأعمدة والحجارة الزاهية المنحوتة في بيريفان اليوم يستطيع فقط أن يقدر الماضي حق قدره وتأثيره على حياة الشعب. فحجارة زفارتوتس، وهو معبد من القرن السابع، أصبحت غالبية على قلوبنا بشكل خاص مذ أن أعدنا نحت زخارفها على مبانينا الحديثة. واتخذ جبل أرارات أهمية أكبر في نظرنا مذ أن مثله على شعار بلادنا...

... أرمنييا، كراستان. بلاد الحجارة. إن الحجر الذي كان على الدوام أفة بالنسبة لنا، قد تحول إلى مصدر غنى وهناء. وهل من شيء لا يصنعه من الحجر أبناء هذه البلاد؟ الكارستانيون؟ إنهم لم يصنعوا المباني فقط والطرق والأسوار والأعمدة. إنهم يستخرجون كل شيء من تلك الحجارة التي لا نفع فيها والتي تعرقل الزراعة بدءاً من الأسمدة لتخصيب التربة حتى العناصر نصف الناقلة بالنسبة للمركبات الفضائية.

نستطيع في الوقت الراهن أن نذكر باعتزاز، بالإضافة إلى معادننا الثمينة مثل الذهب، ونحاس كافان والأفيريدي، موليبدين أغارك، وحديد سفاراتس، فلّيس أرنيك وخفان آني، والمرمر والبازلت في خورفيراب، وحجر أربيات الكلسي وسبح ارغاتس وصوان رازدان.

ولئن كانوا فيما مضى يقتصرون في البناء على البازلت والفليس، لا سيما الأسود، فإن بوسعنا اليوم أن نرى على الأبنية الحديثة في أرمنييا كافة ألوان قوس قزح من حجر الفليس بما فيها البنفسجي والأصفر والأحمر، وفيسفاء كاملة من

المرمر مع البازلت الأزرق...

ولو كان الحجر أخف وزناً وكان نقله أقل صعوبة وكلفة، لرأيت حجارة أرمينيا المتعددة الألوان تلتصق، لا في المدن الروسية البعيدة جداً فحسب، بل في كافة أنحاء العالم، لأن الاحتياطي لا ينفد عملياً. فلو بنيت البيوت من فليس أرمينيا لأمكنها أن تؤوي سكان روسيا كلها مع أوروبا، أما البازلت الأرمني فيلبي حاجة سكان الكرة الأرضية للمنازل، طول ألف عام.

وليس الحجر مادة بناء ممتازة فقط، بل هو يحفظ ذكرى العظماء من الناس. ولكم هي عديدة الحجارة الخام المبعثرة في مضائق أرمينيا ثم تحولت إلى صروح لتخليد ذكرى رجال من أمثال شاميان وماشوتس وكوميتاس وسابات نوبا ونلبنديان واسحاقيان؟... وكم من الحجارة استخدمت عيون مياه تخليداً لذكرى أبطال وشهداء ماتوا دفاعاً عن الوطن، لكن مجدهم صلب صلابة تلك الحجارة ودائم ديمومة مياه الينابيع.

### نشيد المياه:

أنا من بلاد شعرت فيها السيول،  
من قرن إلى قرن، أنها في مكان ضيق،

واصفرت فيها المياه من البطالة،

لكن العمل اليوم يعيد إليها شبابها.

كانت أسياه في هذه البلاد، موضوع عبادة منذ أقدم الأزمنة. يشهد على ذلك التتبن الحجري الذي لا تزال تماثيله قائمة حتى اليوم على سفوح الأراغاتس، والحصون التي شيدت عند منابع الأنهار، من أجل الحفاظ عليها وحمايتها.

كيف نفسر لأطفال بيريفان الذين يلهون حول النوافير الصغيرة للماء النقي الصافي ويضغطون بأناملهم عليها لينتذف الماء من النافورة بعيداً، كيف نفسر لهم حقيقة حجر الماء؟

حجر الماء... (إنه جرن من حجر الفليس مركّز على دعائم خشبية كأنه قبة مقلوبة. كان يملأ عند الصباح بمياه النهر العكرة من أجل تصفيتها. وكان الماء

يرشح منه إلى جرة من الفخار فينزل قطرة قطرة مثل شراب سحري وفي صفاء  
الدموع...

في مقاطعة كوتايك حجر قديم حفرت عليه العبارة التالية: "هذه المياه تخص  
ماليك أغامليانثس. ملعون الذي يتصرف بها، هو وذريته كلها." وفي مقبرة قرية  
اشتراك شاهدة تقول: هذا قبر رجل قتله أخوه بسبب الماء...

إن قعقة السلاح وضجيج المعارك الأخيرة في الحرب الأهلية التي جرت  
في أرمنيا، قد واكبتها الضجة الصادرة عن ورشات حفر أولى القنوات. وكل أن  
يمر عام منذ ذلك الحين دون أن يشهد تدشين العمل بقناة جديدة: هنالك أفتية  
اتشميازين و اوكتمبريان وشيراك وغارني وسينيان وتالين وكوتايك... وغيرها...

ليست المياه فقط حقلاً أو بستاناً أو نافورة تذكارية: هنالك بلدان بمنازل  
حجرية قد شيدت بمحاذاة قناة تالين، واستقبلت الساسونيين الذين سكنوا قديماً في  
القرى الفقيرة على سفوح أراغاتس.

أما السبب الذي جعلهم يختارون لمساكنهم أعالي الجبال فينطق عن قدر  
شعبنا، وعن تاريخ آلام لا نهاية لها فرضتها علينا الحروب والغزوات...

على هذا النحو بدأت قرى أرمنية بالنزوح عن مواقعها، لكنها المرة الأولى  
التي يتم فيها النزوح اختياريًا، لا بفعل النار والدخان، وليس مصحوباً بالقصف  
والقتل وعبيل الأطفال. للمرة الأولى يجري الانتقال يرافقه صوت المزمار وقرع  
الطبول وأبواق السيارات والدبكات الساسونية.

ليس الماء فقط هو الكروم والمراعي، إنه الكهرباء أيضاً. فنادرة هي مجاري  
المياه العاطلة عن العمل في أرمنيا الحالية. لأنها كلها تقريباً تقوم بتشغيل محطات  
توليد كهربائية ذات قوة متنوعة. فنهز رازدان وحده يحرك توربينات سبع محطات  
توليد كبيرة ضمن مسافة قصيرة محصورة ما بين بحيرة سيفان وبيريفان. ودخل  
النور إلى الحياة في كافة المواقع في أرمنيا فغير الشعاب كلها وتسلق كافة  
الجبال. وغمر البلاد بأكملها.

كل مياه ولها قيمة. لا يزال هذا الواقع حتى اليوم في أرمنيا. لكن هنالك مياه

ثمينة بشكل خاص. فينابيع المياه المعدنية المعروفة في البلاد يربو عددها على المئتين. وكانت المياه في أرمينيا نادرة على الدوام ومقدسة من الشعب. لذلك السبب يواصل نصب النوافير في الأماكن المحبوبة أو تخليداً لذكرى الذين يحبهم. فعين الماء عند ممر ستيبانا فان يحدد المكان الذي وقف فيه بوشكين تحية لمرور جنمان غريبويدوف القتيل. أما عند مضيق غنديفاز فتمجيداً لأبطال الحرب الأهلية. وهناك عيون عديدة ونوافير أنشئت تخليداً لذكرى شهداء الحرب العالمية الثانية. أما العين التي دشنت في أواخر الستينات في واحدة من حدائق بيريفان فكانت تخليداً لذكرى سايات نوبا، الشاعر الشهير الذي عاش في القرن الثامن عشر. فمن الجدار الرخامي الأبيض يبرز نحت لصورة الشاعر العظيم وينبجس خيط ماء بلوري يدندن ما يشبه أبيات سايات نوبا:

لن يشرب العالم كله من ينبوعى الرنان:

فطعم مياهى غير مألوف!

ولن يقرأ العالم كله ما أكتب:

فمعنى كلامى غير مألوف!

فلا تأمل أن تقلبنى من غير عشاء!

فقد عدتى ثابتة ثبات الغرائب.

### نشيد الأرض

أنا من بلاد، منذ قرون

التهمت فيها الحنطة نأراً الحرائق،

حتى لا يجعلها العدو غنيمة له...

أما الآن فالشعب سيد حنطته.

يأتى الربيع عادة مرة واحدة كل عام، أما في أرمينيا فزياراته مألوفة أكثر. والبلاد قليلة المساحة: أقل من ثلاثين ألف كم<sup>2</sup>، لكنها شديدة التنوع. فهذه القطعة

من الأرض تتضمن كافة المناطق المناخية؛ فالمراعي الجبلية والكروم، والغابات والمناطق شبه المدارية تتجاور كلها فيها:

حين ينتهي نضج الرمان والتين بين الصخور الحارقة عند مضيق ميغري، يكون العنب قد أُنِعَ وبدأ الدراق يتورد في وادي الأارات. إننا في الصيف عند سفح الجبل فحقول القمح تكون قد بدأت تصفر. وترى العشب في الوقت نفسه يصبح خضرة وشقائق النعمان تزهر في المراعي الجبلية. أما إذا ارتقيت إلى أعلى فالثلوج بدأت تنوها بالذوبان. وعلى القمم تربض الثلوج الأزلية والبرد الشسوي. أما السيل الناشئ عن انصهار الثلوج على منحدرات الأراغاتس فيمكن أن يصادف في دربه نحو نهر رازدان الفصول الأربعة: الشتاء والربيع والصيف والخريف...

لم يكن نقص الماء سوى نصف شر. فالأسوأ هو نقص التراب. وكثرة الحجارة تجعل حفنة التراب بعيدة المنال ومجدبة.

إن كروم أشتاراك محاطة بتلال من الحجارة. وقد اعتقدتُ لزمن طويل، وأنا مولود في تلك القرية وابن فلاح، متلماً اعتقد معظم أترابي، أنها تلال طبيعية. ولم أعرف إلا مؤخراً حقيقة مصدرها. تلك الأكوام الحجرية التي لا تحصي، عكف عليها أجدادي وأباؤهم وأجدادهم والتقطوها، وظهورهم مقوسة، لينطفوا أرض حقولهم وكرومهم منها ثم كدسوها تلالاً عند تخوم القرية...

إن كروم مضيق ميغري محاطة أيضاً بالصخور والتلال الحجرية، لكن ما حصل هنالك كان مغايراً: فالإنسان صنع مساحات خضراء على سفح التلال. فقد فرش الفلاحون فوق المدرجات الصخرية طبقة سميكة من التراب جازوا بها من بعيد بوسائل بدائية. وسقوا تلك السطوحات بالماء المجلوب في جرار ملئت عند المضيق، فصارت لديهم بساتين وكروم عجائبية.

لم يبق من الكروم في أرمينيا عام 1919 سوى خمسة آلاف هكتار. خمسة آلاف هكتار كرمة دهرية، متجعدة، أتت كثير من الحرائق على ثمارها وأوراقها ووطنتها سنايك الخيول. لكن الكرامين الذين عادوا إلى أراضيهم وحقولهم بعد انتهاء الحروب، صمموا على وضع كرمة وسنايك فوق شعار أرمينيا الجديدة...

لقد تحولت الأراضي السوية والوحدات في وادي الأارات إلى بحيرات وأنهار من الخضرة. وانتهى الأمر بذلك الأنهار المترعة أن بلغت خواصر الجبال، ثم ها هي الكرمة تحصل على الحق بالانتقال إلى مناطق أخرى خارج وادي الأارات مثل شامشادين وتالين وغرست أنواع مقاومة للبرد في حوض سيفان. إن الأرض، وقد جرى إحيائها، قد صنعت شغيلة الأرض.

### نشيد النار:

أنا من البلاد التي ما كان يُسمع  
بين شعابها سوى الشبابة تنوح.  
أما اليوم فبين جبالها العاتية  
يتجاوب دوي المصانع الحديثة.

لئن كانت الحجارة والتراب والمياه والكتابة والشعر قائمة في أرمينيا منذ قرون، فإن للصناعة لم يكن لها من وجود فيها على الإطلاق. ولم يكن يتعدى كل ما كان في بيريفان حتى العشرينيات من القرن الماضي مديعة واحدة وتعاونية صناعية واحدة ومعلمين للخمر وبعض المشاريع الصغيرة الأخرى. كانت البرجوازية الأرمنية الكبيرة وأصحاب المصارف الضخمة والاستثمارات النفطية والمصانع والمعامل والدور التجارية، هؤلاء كلهم كانوا يمارسون نشاطاتهم في المدن الصناعية الكبرى، خارج أرمينيا: بين بطرسبرغ وباريس، وبين موسكو واسطنبول، وبين تقليس وباكو... إن كافة المصانع في أرمينيا يقل عمرها عن خمسة وستين عاماً وأكثريتها الساحقة دون الأربعين.

لقد ولدت الصناعة الأرمنية الجديدة يوم قُدم عمال إيفانوفو عدة أنوال نسيج لتوضع في معمل قماش. وقد وضعت إحدى تلك الآلات بعد إحالتها على "التقاعد" في متحف الثورة في بيريفان. قامت الصناعة الأرمنية، في حقيقة أمرها، من قلب الخرائب والدمار، فلا يسعها إلا أن تثير الزهو والإعجاب لدى الجميع. ظلت يسيريفان حتى الثلاثينات من القرن العشرين، مشهورة فقط بخمورها



والكونيالك الذي تستجه ويغبارها أيضاً، لكنها بدأت تنتج البكرومات والزجاج والموليت والأدوات الآلية.

يجري في جبال كافان إنتاج الكثير من النحاس، لكن معمل النحاس الجديد في الأفيردي رسخ التقاليد لطبقة عمالية جديدة.

لم تتوقف المصانع في أرمينيا عن العمل يوماً واحداً أثناء الحرب العالمية الثانية. بل ارتفعت في تلك الظروف الصعبة الأبنية الضخمة لمصنع ماكينات كهربائية بالقرب من جبل أرارات الشهير. وجرى في بيريفان تحويل الكاوتشوك إلى كابلات وعجلات... حسبنا القول إن الستينات فقط من القرن العشرين شهدت نشوء ما يربو على خمسين مصنعاً أو منشأة صناعية كبرى في أرمينيا.

كانت أرمينيا بلداً ذا حضارة روحية راقية وبلداً فلاحياً باتساعاً، فصارت بلد الفيزياء الكونية والعلوم الالكترونية ودراسة المجرات والأشعة الكونية، بلد إنتاج الأجهزة عالية الدقة وصناعة الحاسبات... لقد أصبحت بلداً مخبراً ومعهداً عملاقاً تجري فيه أبحاث معقدة في مجالات العلوم والصناعة.

في السبع الأول من القرن الماضي لم يكن هناك سوى أرمينيا صغيرة ومحرومة. أما الآن فقد أصبحت على درجة من القوة كأنها تمثلت أكثر من خمسين أرمينيا قديمة. وباتت بوسعها أن تستقبل الأرمن الذي توزعوا في كافة أنحاء العالم وشكلوا جاليات في أكثر من أربعين بلداً. بل إن ألافاً منهم قد عادوا من فرنسا وأميركا واليونان وإيران والأردن ومصر ولبنان وسورية...

### نشيد الأناشيد

أنا من البلد الذي تتحول فيه  
حكمة القرون إلى كلام إنساني،  
إلى مخطوط. لكن مرت سنون  
قبل أن تتمكن الشعوب من القراءة.  
أنا من البلاد التي تجاوزت الأناشيد

## الجريئة فيها نرى الجبال لتذكر بأزمة الألام الماضية والسعادة الجديدة للعمل الخلاق.

ما كان لشعبنا الذي مزقته الحروب والنكبات طيلة قرون أن يعيش حتى ازدهاره الراهن لو لم يمتلك سلاحاً جباراً عدا الحسام: إنه الكتابة، فحين لم يكن للسيف من أثر كانت الكتابة تنتصر، فتدحر العدو وتحمل عبر العصور للأجيال المقبلة رغبات الشعب وآماله وإيمانه. وعلى الرغم من كوارث لا تحصى، ظلت مخطوطات أرمنية يربو عددها على خمسة وعشرين ألفاً، محفوظة، فوصلت إلينا. ووضع أكثر من نصفها في ماتيئاداران، مستودع النصوص القديمة.

ألا كم عمد الغزاة إلى مهاجمة مراكز الكتابة فدمروا المكتبات وقتلوا النساخ. لكن شعبنا المحب للكتاب قد أنقذ، مخاطراً بحياته، مخطوطات أرمنية وسلافية وفارسية ويونانية وعبرية وهندية ولاتينية وجورجية وعربية وكثيراً غيرها، والتي ما تزال حتى اليوم تثير غيرة العديد من المكتبات في العالم أجمع. كما أن العديد من مؤلفات الفلاسفة والعلماء القدماء، من الإغريق والأشوريين وغيرهم قد أعيدت للإنسانية بفضل حفظها في ترجمات أرمنية. <http://Archiv>

لقد ورد ذكر اتساع المكتبات ومراكز الكتابة مراراً وتكراراً لدى المؤرخين، وفي معظم الأحيان في معرض كلامهم على تدميرها. فكم عدد الناس الذين عملوا في كل واحد من المخطوطات الأرمنية الخمس وعشرين ألفاً، وعلى حفظها، لجعلها تبقى حتى أيامنا؟ حسبنا أن نذكر النساخ المتواضعين المغفورين الذين أتحفونا بتلك الكنوز بفضل مواظبتهم ودأبهم الأسطوريين. إن كل ما وسعنا أن نعرفه عن حياتهم وأفكارهم ومشاعرهم عبر الوقائع الموجزة، كان ذا فائدة عظيمة.

يتحاشى النساخ بصورة عامة الحديث عن أنفسهم. فحياتهم شاقة وعملهم مرهق، لكنهم لا يذكرون سوى عزاءهم والمكافأة التي يجنونها في إنجاز كتاب. فهم يتعاملون معه كأنه كائن حي أو صديق ويعتبرون حقهم في تذليل الصفحة الأخيرة بتوقيعهم تعويضاً مدهشاً عن عنائهم. أما أكثرهم جرأة فتدون ملاحظات

تعبّر عن أفكاره ومشاعره، كما كتبوا في بعض الأحيان أبياتاً أو رسموا صورتهم بين يدي هذا العالم أو المؤرخ أو الشاعر الشهير، أو ذلك.

إننا نرى، لدى قراءة تلك التعليقات المقتضبة، انبعاث حكمة الشعب وفكاهته. هنالك مخطوط يصف آلام الأرمن وهم تحت نير المغول، ويصف جين الذين يفضّلون العبودية على الكفاح وعلى الموت. ولم يتوان الناسخ عن تدوين عبارة على الهامش: "خير للمرء أن يموت مرتاح الضمير من أن يعيش وهو لا يجرؤ على رفع بصره". ونقرأ على هامش مخطوط في الكيمياء يصف اختبار الذهب بالفسار: "يختبر الذهب في النار والمحبة الحقيقي لوطنه في القتال". ويقوم آخر، يشغله مصير الفلاحين الفقراء الذين يراهم وقد سلّموا محصولهم للأمرأ والأديرة، يغرّقون أحزانهم في الشراب، بتقديم اثنتي عشرة نصيحة "حول مخاطر السكر". أما وهو يرى أن ذلك غير مجد، وأن الأسقياء سيظلون يشربون، فإنه ينتقل إلى نصائح عملية أكثر حول طريقة الإقلاع عن الشراب: "كل خمس لوزات أو ست على الريق. امضغ بذرتين أو ثلاث بذور سفرجل بعد كل كأس". وقال آخر معلقاً على مصرع خان سلجوقي، عرّف بوحشيته المظرفة، على يد فلاح أرمني: "الذي يقتل كلباً مسعوراً هو بريء".

كان العزاء الوحيد لأولئك الناس الذين نذروا أنفسهم لذلك العناء الشاق يتجسّد في هذه العبارة: "يدي سوف تغيب لكن الكتابة ستبقى". وما كانوا يخشون الموت، كانوا يخافون فقط أن يموتوا قبل أن ينجزوا عملهم...

هنالك واحد من بين مخطوطات ماتيناداران اسمه الأحاديث المختارة وقصته تشبه تاريخ شعبنا شعباً كبيراً. ونحن مدينون به للخطاط فاردان كافيسي، الذي أمضى ثلاثة أعوام في نسخ نصوصه في مدينة موش الأرمنية وأنجز عمله عام 1204. ويزن هذا المجلد الضخم أكثر من ثلاثين كيلوغراماً! وقد ذبحوا ما بين 600 إلى 700 عجل لإعداد صفحاته الجلدية وعددها 607 صفحات.

وتروي مذكرات المخطوط التاريخية أشياء شتى، لكنها تتوقف عند أحداث مأساوية: منها معركة باسين التي جابهت فيها الجيوش الأرمنية والجورجية معاً الغزاة السلاجقة، وكيف قتل صاحب المخطوط (أي الذي أوعز بكتابته وجمعه)

فوق المخطوط في الأسر، فعاد الأرمن فعثروا عليه بعد أن بحثوا طويلاً في المدن والقرى والأديرة والمدارس، إلى أن اشتروه من الناهيين مقابل أربعة آلاف قطعة فضية وأعادوه إلى دير موش.

أوشك المخطوط أن يتعرض للتلف، أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد سلم بفضل لاجئين كانتا على وشك الموت جوعاً، حين أخرجتهما من الدير الذي نهب وأحرق. وتبادلنا نقل ذلك الحمل الثقيل على ظهرهما. وبعد أن خارت قواهما قامتا بشطره نصفين. فغلقتا أحدهما ببعض الخرق وقامتا بطمره إلى جانب الطريق. وواصلتا حمل النصف الآخر حتى مدينة اتشميادزين. عثر من بعد ضابط بولوني في الجيش الروسي على النصف المدفون ونقله إلى ماتيناداران. والتقى النصفان أخيراً على أرض الوطن لينعم المخطوط مجدداً بالأمن والسلام.

أما اللازمة التي لا تني تتكرر في أدبنا كله، بأصوله القديمة، فهي الكفاح لتحرير الوطن، والإيمان بالراسخ للشعب في الحياة المسالمة والعمل الشريف. فهل من يستطيع تعداد الكنوز التي لا تنضب لثقافتنا؟ وهل يسع أحداً أن ينمى أن شعباً يمتلك تلك الكنوز الروحية، قد ظل قروناً بحالها غير قادر على التمتع بها؟

ولكم هو كبير عدد الكتاب الذين ظلوا يحلمون، حتى مطلع القرن العشرين، بزمن يقدر الفلاح الأرمني فيه أن يقرأ أعمالهم.

وقبل قرن وبضعة عقود، كان خاتشاتور أبوفيان، يحلم دون كبير أمل، بأن يكون لديه ذات يوم مئة تلميذ أرمني. فهل كان يسهه أن يتخيل أن مكتبة مياسينكيان في بيريفان، تضم على رفوفها من الكتب ما يكفي لإعارة كل فرد في البلاد أكثر من خمسة كتب، حتى الرضع والشيوخ؟

هل كان يوسع هاكوب ميغابارت، وهو الذي بذل الكثير من أجل طباعة الكتاب الأرمني، أن يتوقع أن يطبع في أرمينيا الحديثة من الكتب الأرمنية، خلال بضع عشرات من السنين، أكثر مما طبع منها في العالم أجمع منذ ظهر أول كتاب عام 1512 وحتى عام 1920؟...

ولئن ظهرت لدينا أشياء كثيرة في القرن العشرين، ووصلت إلينا أشياء أخرى بحجم ساقية صغيرة نبتت من الماضي، فإن الكتابة والأدب، وهما الكنز الذي لا مثيل له، قد وصلا إلينا نهراً متدفقاً جباراً.

وليس من مهمة تفوق سمواً مهمة الكاتب الأرمني الذي يمثل أدباً ذا تراث غني.

إن النداء الذي أطلقته أرمنييا في انبعاثها لم يُرجع فقط إلى أرض الوطن فنانين كانوا معبرين في البلدان البعيدة، (عادوا أحياء أو أعيد رفاتهم)، بل أعاد نتائجهم الفنية أيضاً، تلك كانت حال أوبرا أرشاك 2 من وضع تيفران شوخاجيان، التي ظلت تائهة طيلة قرن ويزيد، ورسوم ادغار شاينين ومنحوتات هاغوب غورجيان.

لقد قُدمت في أرمنييا، للمرة الأولى، أوبرا الماستر بسندياريان وأوبرا أنوش لأرمين تيفرانسيان، وألحان نيكوغايوس تيفرانيان وماكار اكملبيان وكارامورزا ورومانوس ميليكيان، على النحو الذي يستحقه. كما تألفت للمرة الأولى أيضاً في صالات المعارض الأرمنية الممنمات القديمة والوحات هاكوب أوفاتانيان وفارديغيس سورينياتيس واغاجانيان وأراكليان وايغيشي تاديفوسيان.

إن ألحان آرام خاتشادوريان معروفة ومشهورة في كافة أرجاء العالم، أما الرباعي الشهير كوميتاس فقد أسمع موسيقاه في كافة البلدان.

وماذا عن الأغاني وعن الرقصات الوطنية؟ من الذي أعادها إلى الشعب بعد أن استوحاها من المصادر الفولكلورية فأغناها بالفن المحترف سوى فرق الغناء والرقص وفرق الإنشاد والرقص الإيقاعي وسواها؟

إن حيوية المواهب لدى الشعب لرائعة حقاً. أما طاقته الخلاقة التي ظلت مخنوقة طيلة قرون، فقد تحررت في النهاية لتحقيق معجزات تتعدى لها الألسن من الدهشة.

حسب التصوير الأرمني الحديث اسم واحد: مرتيروس ساريان ليؤمّن له شهرة عالمية. فماذا عن المصوّر والنحات أرفاندكوتشار وموهبه الخصوصية جداً؟ ثم هاكوب كوجويان، وهو المصوّر والرسام النادر مثيله، والذي ورث لباب

التصوير الأرمني في العصور الوسطى؟ أما الأسماء الحديثة جداً والعديدة جداً التي تقع عليها في المعارض المقامة هنا وهناك فحدث ولا حرج. فكلها نتائج فنية تتم على خصب مواهب الشعب التي لا تنضب.

ولكم أشادت الصحافة الأوربية والأميركية بالمطربات والمطربين أمثال: غوهار غاسباريان وزارادولوخانوفا وتاتيفيك سازنداريان وبافل ليسيتسيان الذين عكموا في أغانيهم الجديدة انبعاث الوطن.

ولا مناص من الإشارة إلى شهادة قديمة وردت على لسان الأديب الفرنسي الشهير رومان رولان، الذين فتن بالألحان والأغاني الأرمنية وروعتها فقال إنما أرمينيا هي إيطاليا بلاد السوفييت...

ألا فلتصدح الأناشيد الأرمنية التي تروي لشعوب العالم أجمع آلام شعبنا في الماضي وما ينعم به حالياً من رغد العيش. ولتصدح في أرمينيا أيضاً أناشيد الشعوب الأخرى، فليس أجمل من التأخي بين الشعوب والأناشيد...

## ARCHIVE

### ملاحظة الكاتب

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

إن النشيد الأخير الذي أهدى إلى أرمينيا قد انتهى، لكن هل انتهت الأناشيد كلها؟ لكل شيء على الأرض بداية ونهاية، لكن ليس الشعب وأغانيه بلا نهاية؟

أما أنا كيفورك، ولقبي ايمين، ابن الكرام غريغور من قرية أشتاراك، وأمي هي أروسيك، المشهورة بغزل الصوف، من مقاطعة غوختان، فإن الشعب الأرمني بأجمعه. ولم أقل لكم سوى ما قرأت في المخطوطات القديمة والكتب الحديثة وما سمعت من فم أجدادي وما رأيته بعيني. وأنا أكلف شعراء المستقبل في أرمينيا بمواصلة هذه الأناشيد الأبدية، التي تشبه مسيرة شعبنا عبر الألام لملاقاة السعادة. وهي أناشيد أبدية كالحياة.

وتواصل الحياة سيرها... فبالأمس شهدت دور التوليد في بيريفان ولادة سبعة وستين صبيّاً وثمان وثلاثين بنتاً جاءوا ليضموا أصواتهم الرنانة إلى الأغنية القديمة لأرمينيا. ولم يحملوا بعد من أسماء. لكن أياً كان الاسم الذي سيطلقه عليهم

أهلهم: فاهان أو غريغور، أرتويت أو اكيت، فلن يكون لهم بالنسبة لنا سوى اسم واحد: غاليك، أي المستقبل.

فليكبروا، ويرثوا هذه البلاد القادمة من أعماق القرون والماضية نحو القرون البعيدة، هذه البلاد الشهيدة فأضحت سعيدة، الصغيرة بأرضها والكبيرة بطموحاتها، والتي يبرق على شعارها: جبل آارات، شاهداً على تاريخنا الطويل وكرمة وسنبلة قمح.



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

## قصائد للشاعر الأرمني هوانيس شيراز

■ ترجمة : ديلان شوقي ■

عن الأرمنية



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

كلما ابيضت شعرة

في رأسك يا أمي،

بكتها أوتار قلبي.

فأنت، وإن لم تفقدي ولدا

في الحرب،

إنما الذين فقدوا أولاداً هناك

جلبوا بياض الثلج إلى شعرك،

أنا لا أريد شيئاً من الدنيا،

سوى، ألا يتساقط ثنَجٌ جديد،

فوق ثلج شعرك.

إنها باقية من المعاني السامية والمشاعر الإنسانية الدافئة جمعها الشاعر  
هوانيس شيراز في قصيدة "إنسانية" التي تألق في فضاء ارتفاع مستواها، وظهرت



مرارة حياته عبر آلام لم يعانها وحده كشاعر أو كإنسان فقد أهله في مجازر وحشية بل عانى الشعب الأرمني بكامله المذاق ذاته وقاسى القسوة حتى انطفأت شعلة الفرح بين أطفاله وشبابه وشيوخه ونسائه.

وقد استطاع هذا الشاعر الحساس ذو الرؤية البناء أن يوصل القارئ إلى درجة من التعاطف الإنساني، والروح الحزين مع كل الشعوب التي تعاني من ظلم الطغيان، وتحاول أن تعيش كما خلقها الله.

إن الشاعر الأرمني هوانيس شيراز يتذكر في كل كلمة يكتبها ويحس بمعناها أمه التي ولدتها، وهي هاربة من بطش الظلم الأتراك، إنهم لم يدركوا بأن سهل شيراز سوف ينبت في عيونهم شوكة لن يستطيعوا اقتلاعها مهما حاولوا. وهكذا تكلل مدينة كومرو بمجيء شيراز عام 1915، ثم قتل والده عام 1920 حين هاجموه وضربوه حتى فارق الحياة.

يقول في قصيدة معجزة وهو يتذكر والده ويبلغه شوقه وحنينه عبر شعور من الشعر والحزن.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

رأيت أبي في حلمي،

فظهر لي مثل أمي.

برغبة، ورهبة، اترميت في أحضانه

فقام من اللحد واحتضنني،

سكننا معاً أمر الدموع وأحلاها.

ألقي أبي نظرة لما حوله،

فراى جبل أراكاتز، وابتمس بحنان.

قال: ما زال ابني على قيد الحياة.

كانت أم شيراز تعمل لدى الأغنياء، تنقل لهم الماء إلى بيوتهم وتعمل بأشغال يدوية صعبة، حتى كبر شيراز وشقيقته كوهار وماري.

دخل المدرسة بعد أن أخرجه أمه من الميتم.

كان يُولف الأشعار ويلقيها قبل أن يتعلم الكتابة، فكانت شقيقته الكبرى تدونها له. عمل في مجالات عديدة، فقد عمل لدى حداد وسكري وخياط ولم يستمر في مهنة واحدة، كما أنه كان يهرب بشكل دائم من المدرسة.

حين بلغ شيراز المابعة عشرة من عمره، أخذ يعلم الصغار في قريته، وذلك بتشجيع من أخته، بالإضافة إلى أنه توجه بشكل فعلي إلى تدوين ماكان يُولفه، ثم عمل عند نساخ في معمله، ثم عمل موظفاً في مطبعة كموزع للحروف وهذه كانت القفزة النوعية في حياته بالنسبة للكتابة، فقد شجعه أصحاب العمل فأخذ يُولف الأشعار بشكل غزير.

بعد ذلك أخذ يكمل دراسته حتى تخرج من الجامعة.

لقد ذاق الشاعر في حياته كل أشكال الظلم والبؤس وبقيت صور القتل والتشرد والدماء طاغية على منافذ الفرح، والتفاؤل، فتغلقتها كلما حاول الشاعر التخلص منها أو الهروب إلى عالم أكثر نقاءً وإشراقاً.

فيقول في قصيدة: سفير التكوين،  
عيون السماء القاسية الظالمة.  
ويكت النجوم أيضاً..  
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ارتفعت البحار حتى بانّت في قعرها

الرمال هي عبرات متحجرة.

هاجت عصوراً، وآثار العذاب

بقيت تجاعيد الأمواج المتلاشمة،

تدنس وجه البحر الصُّبوح.

حين أخذت قصائد شيراز ترى النور، وجد نفسه في الصحافة، فطبع مجموعته الشعرية الأولى عام 1935، بعنوان تباشير الربيع وقد طبعت في موسكو.

في عام 1937 انتسب شيراز إلى جامعة يرفان قسم البحوث وأصدر خلال

ذلك مجموعته الشعرية "بلاد الشمس".

ثم ترجمت مجموعته الأولى إلى اللغة الروسية، فمُنحت الدولة جائزة وسام الشرف، بعد ذلك العام تنابعت إصدارات كتبه فكانت..

— "اختلال الأقطاب" 1939.

— "سعادتنا".

— "الراعي الصغير".

في عام 1940 صدر له كتاب "النسر البرونزي"، ومجموعته الضخمة "أنشودة أرمنييا".

كانت أشعاره ترفع من معنويات الجنود خلال الحرب العالمية وتلهب مشاعر الجماهير وخاصة الوطنية منها والقومية.

فيقول في قصيدة "صوت الشاعر"

أنا الذي حزن لموت زهرة واحدة،

أنا الذي لم يبطأ التملأ بالقديم،

إني مرسل زنجيري، إنه سوف يموت،

وسيبقى أبداً تحت أقدام المنية...

حتى يسير السلام بحرية.

نحو ربيع الإنسانية الآتي.

ثم تابع شيراز العمل المتواصل ولم تنقطع إصدارات كتبه، بل ازداد نشاطاً وغازارة بشكل كان فيه التجديد والتطور ياديين والتنوع بالمواضيع واستخدام الأدوات والتحكم بها بطريقة مذهلة.

في عام 1942 صدرت مجموعته الشعرية الثانية مترجمة إلى اللغة الروسية، فمُنحت الدولة وسام "الراية الحمراء للعمل".

اتجه شيراز نحو الشعر القصصي أخذاً مضامينه من القصص الشعبية والأساطير المتناقلة بين الشعوب.

في 1947 أصدر قصته الشعرية "سيامنتور وخجي زاربه" وهي أسطورة شعبية قديمة في الشرق، وقد ترجم عمله هذا إلى لغات عديدة.

في عام 1949، صدرت له "مختارات" ثم "رفيقي السمائي" وهي قصيدة طويلة، يروي فيها الشاعر مأساة طفولته المؤلمة وطفولة رفاقه الذين ذاقوا معه الجوع والتشرد.

في نفس العام أصدر مجموعة "كتاب للحب والسلام"، وكتاب "الحية والنحلة"، عام 1953.

في عام 1954 طبعت مجموعته مختارات الجزء الثاني.

أما أكبر مجموعاته فقد صدرت عام 1959 بعنوان "قيثارة أرمينيا". المجلد الأول وهي تتضمن أشعاراً وجدانية وفلسفية لها النفس الطويل والبعد الفكري.

أصدر "الحب أو السيراناما" وهي قصة حب ملحمية عام 1959.

في عام 1968 صدر ديوانه الصغير "نصب لذكرى أمي".

أما المجلد الثالث من "قيثارة أرمينيا" فقد صدر عام 1974، تلتها "إنسانيات" وهي مجموعة قصائد مختارة طبعت عام 1975.

وقد منح جائزة الدولة على مجموعته الأخيرة هذه.

أما كتابه الأخير فقد كان في عام 1978 بعنوان: "علام نذل الأمثال".

وهي مجموعة قصص مستقاة من الأمثال والحكم الشعبية وقد صاغها الشاعر وأطرها بشكل شعري جميل، وضمن أجواء واقعية واضحة الملامح.

لقد كان للشاعر شيراز وموهبته الكبيرة الأثر الإنساني العميق، فهو اعتمد على العفوية والمكونات الحسية والبصرية وحاول أن يبقى جدياً وقريباً من واقعه إلى درجة الالتصاق بالإنسان والبيئة.

تجلى الصدق وتمجيد العذاب البشري في كل قصائده، حتى إن قصيدة من شعره لم تكن في مستوى أقل تأثيراً على القارئ.

استفاد شيراز من التراث والأدب الشعبي الشفاهي كثيراً، واستخدم كل مفاتيحها بعبقريّة ودراية، ولم يهمل أي جانب من تلك التي اعترف بها عالمه

المحيط به.

شيراز السذي لم يجد متسعاً من السعادة أو التغاؤل الحقيقيين، إلا أنه كان مدركاً لقضايا الإنسان وكل حاجاته فتغنى بالأم والوطن والسلام. وأعطى للمرأة الأهمية الكبرى وصورها بأجمل تصوير وعمق رؤية.

وقد كتب عن المرأة يقول:

**كأن الشمس تشرق من عيني المرأة**

**وبقيلة منها تزدهر الصحاري.**

**المرأة ينبوع الحياة، المنتصرة على الممات.**

لقد بقي شيراز واقعياً، حتى أنه أبعد الخيال والتخيل عن كل نتاجه الغزير ذاك، وبقيت قيمه وأخلاقه الإنسانية التي أورشها له أمه، حية ونقية كما كانت، وبقي الشاعر يذكر الإنسان بالضمير والإحساس بالآخرين، حتى إنه كان يستحضر روح والدته، حيث كانت تذكره بنفس الشيء ويؤكد عليه أن يتمسك بتلك المبادئ فهاهو في قصيدة "معجزة" يحدثنا كيف أنته أمه وطلبت إليه أن يستعين بالله والضمير، فكلاهما واحد فإن وجد واحدهما كان الثاني موجوداً بالتأكيد، فيقول:

**رأيت فيما يرى النائم،**

**أن قرع بابي، قلت: من القادم.**

**امرأة عجوز من خلف الباب،**

**قالت: أفديك بالروح والقلب،**

**بصورة سائلة، أتيت**

**ليعرف الناس أيضاً ضميرك**

**أباقي يا بني، ضميرك أنت،**

**أم إنه يموتي قد مات.**

ونرى خلال عرضنا لأدبه وسيرته الشعرية الفنية بأن الشاعر شيراز قد

خلف لنا خطأ إنسانياً مميزاً في أشعاره التي مرت من قنوات مختلفة. فكان لوقوفه أمام مأساته الطفولية وكذلك آلام أمه المضحية بذلك الكم الهائل من استخدام المعاني والاستعارات والصور الشعرية، البصمة القائمة والترفع الشفاف من حالات الألم بذات الوقت وهي لم تحبطه بل بالعكس فهي قوت من عزيمته وصقلت موهبته.

ونجد مشاركته الدائمة مع الآخرين من أهله وشعبه والإنسان في كل مكان، فيدعوهم إلى النأخي واقتسام الأفراح والابتسامة، وكذلك يخاطب، مثله مثل كافة الشعراء في العالم، القصيدة فهي يمكن أن تغير وجه العالم، وتجعله حميلاً وخالياً من القتل والجرح والحزن.

ثم ينادي جميع الأمهات، ويحث على مكانتهن وعذابهن من أجل الأولاد.

يقول في قصيدة "مقدمة أغنية"

— بدت الآلهة شياطين

أخ يغدر بأخيه، وأخت بأختها.

وما سلم من اللئس سوى قلب الأم المقدس.

<http://ArchiveBeta.Sakhril.com>

أه... هي الأم وحدها سامية مقدسة.

— تغزل الشاعر صيات نوحاً بحبيبته،

وتغنى الشاعر ناريك بربه، والخيام بخمره.

قلتُ لنفسى: تغنّ بأملك أيها الشاعر،

حتى تصبح أماً الحياة والمرأة.

سأفتح لكم قلب قلب الأم،

مثل كهوف عتمة ضمت نفائس الكنوز،

سأدفع دين جميع الأبناء العاقين،

### إلى جميع الأمهات الضاللات....

أما بالنسبة للبنية الملحمية والفلسفية في قصائد شيراز، فقد قدم الشاعر الأرضية الخصبة لتلك الثقافات الشرقية لفلسفة حياتية عاشها وقلّبها وفرزها إلى نقاط ومرتكزات عمل بموجبها ولخص كل تلك المعرفة المسبقة والتجربة في قوالب أدبية شعرية، ينز منها الهم الإنساني والتعاسة التي ينسب بها الإنسان لأخيه الإنسان.

الشاعر شيراز كان يملك نفساً ملحمياً مكماً وناطقاً بغنائية محببة ذات أوزان عنوية ومتوافقة وخاصة تلك التي كان موضوعها الحب والرومانسية.

وحين كان يصف الجمال والطبيعة والمشاعر الإنسانية من فرح وحزن وغضب، كان يتوجه إلى الله فيربط الكون وموجوداته بأغلب الأشياء الحسية وبذلك يباغتنا بدهشة ونحن نقف أمام لوحة كتابية لونية نتحدث بجمالية الأشياء وأسرارها وسبب وجودها.

— الروح المجهولة — خالقة الكون —  
التي سميت: إلهاً منذ العصور، والعصور،  
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>  
عندما خلق الشمس والتراب والسماء والبحار،

خلق كل ما في كوننا هذا:

فخلق الإنسان من صلد التراب،

وزع كل خيراته الا محدودة،

فبهجة النور أعطاها للسماء.

وخصّ البحار بالضحكة الزرقاء.

البسمة البيضاء نثرها على الثلوج.

وفرحة السموّ أعطاها للجبال.

بسمة الربيع الخضراء للسّهول،

والتفريدة أعطاهما للرياح للطيور،  
وسعادة الأمومة للتراب،  
وأعطى لكل نشوة الحب.

لم تقتصر شهادة النقاد والشعراء الأجانب على إظهار عبقرية وأهمية اتجاهات شيراز الشعرية وأغراضها، فشيراز شاعر أبدع في الشعر المحكي الغنائي، وعمق نظرة الغزل والوجدان في الأجيال التي تلت، وقد قال عنه الشاعر الفرنسي الكبير، لوي أراغون قبل الأربعينيات من هذا القرن، "هوانيس شيراز، المشرّد سابقاً، هو اليوم شاعر كبير، أكثر شعراء أرمينيا شعبية وشهرة...".

ويقول عنه الناقد الروسي الشهير، نيقولاي تيخونوف عام 1956 في مجلة "ليبرا تورناليا غازيتا"... إن أشعار هوانيس تزخر ببنار الكلاسيكية وهو ليس من أكثر شعراء أرمينيا شعبية وموهبة فقط، بل هو واحد من أكثر الشعراء شعبية وموهبة في كافة أنحاء الاتحاد السوفياتي.

بقي أن نقول بأن الشاعر هوانيس شيراز فعلاً نجم خالد، كما قال عنه الكاتب والناقد السوفياتي، موريس بوتسكيشفيلي.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

□□□



# المقاومة

## في الأدب الإيراني المعاصر

بقلم: محمد جعفر يا حقي

ترجمة: د. ندي حسون

عن الفارسية

كان الشعر الحديث أو الشعر الحر محط اهتمام أنصار الغرب من المثقفين في إيران، وقليل ما نجد لدى شعر هؤلاء انعكاساً للميول الدينية، ومع ذلك فإن بعضاً من هؤلاء المجددين اقتربوا من المفاهيم الدينية في العصر الحديث وبالتحديد قبل الثورة الإسلامية وكانت أشعارهم تمثيلاً للتيارات السياسية السائدة في تلك المرحلة.

فمنذ أوائل الستينات اصطدم الشعراء والمثقفون مع النظام البهلوي مما جعلهم عرضة للملاحقة السياسية والإذاء والسجن والتعذيب، وفرض عليهم أنواع الحظر الفكري والبياني، وتمشياً مع الشعر الاجتماعي الحماسي الذي صرف همه للدفاع عن المحرومين والمجتمع المظلوم، نشأ نوع من الأدب المخالف للحكومة مقروناً بالحيطة، وكان هدفه المباشرة مع الحكومة، مما جعلهم يطلقون عليه اسم "أدب المقاومة". وتعايش شعر المقاومة بجناحيه الاجتماعي والديني في العقدين السادس والسابع بهدف مشترك.

\* المقالة مترجمة من كتاب في الأدب الإيراني الحديث والمعاصر "جون سيوي تشنه" للدكتور محمد جعفر يا حقي

كان شعراء الجناح الاجتماعى من الشعراء المحترفين آنذاك، وكانوا قد استعملوا الرمز والتصوير في الهجوم على النظام الحاكم، من هؤلاء: أحمد شاملو، مهدي أخوان ثالث، أنثى، سيانلو، م. آزاد، إسماعيل شاهر ودي، م. سرشك، مفتون، أميني، حميد مصدق، منصور أوجي، محمد مختاري، خسرو كلسرخي، سعيد سلطانپور، رمنوچهر نيستانى

وكان الشعراء الخراسانيون يمتازون بالصراحة والجرأة في طرح وجهات نظرهم ومبارزتهم مع النظام، وتعرضوا للكثير من الملاحقة والأذى والتعذيب من قبل الحكومة، وانتمى بعض هؤلاء الشعراء لجماعات متمردة مثل فدائىي خلق وغيرهم<sup>(1)</sup>.

وفي العقد السابق للثورة الإسلامية ازداد النشاط السياسي والمبارزة المسلحة مع النظام الحاكم، ومع أن أشعار المنتمين إلى جماعات كمنظمة خلق لم يكن ذا قيمة أدبية عليا، إلا أنه ذو أهمية من حيث كونه صورة واضحة لتلك الفترة ومن حيث طرحه مفاهيم ضد الظلم والاستبداد، ونجده يقترب أحيانا من الشعر السياسي.

ولا بأس هنا أن نقرأ قصيدة "فارس في الفلق" للشاعر الجنوبي منوچهر أنثى من مجموعته لقاء في الفلق كنموذج:

براعم

أمل في الفلق الأبيض اللون

براعم في هدأة ملال السخر

\*أيها القلب! اتهم من نوم الأحاسيس الهائى

أيها القلب! اتهم من النوم

-الماء يجري-

(1) طبعت نماذج من هذه الأشعار في مجموعة بعنوان: شعر الحركة الحديثة جمعها صفر فدائىي بناء انتشارات طوس.

وفارس عار،

-لم تره قط-

من قتامة الدماء الليلية الشرقية

من قتامة جرح شهداء الليل

ياخذ مرآة من يد بعيدة، المرأة تعبر حول الشمس

وعار آخر

-لم تره قط-

الدم يعبر من السراب

\*أيها القلب! انهض من النوم

انظر احتراق الظلال في حاشية الصحراء

إلى ذاك الفارس الغريب

-ذاك الرسول اليقظ-

فمرة ثانية في الفلق، عبر الرصاص بلون الماء

خلال تلك السنوات جاء شعراء مثل طاهرة صفار زاده، موسى كرمارودي، مهرداد اوستا، وبعض شعراء خراسان ليرقدوا شعر المقاومة بطرح مفاهيم الجناح الديني.

نشرت طاهرة صفار زاده مجموعتها الشعرية الأولى في أوائل السبعينات تحت عنوان "رهگذر مهتاب" أي: (معبّر ضياء القمر)، ثم سافرت لمتابعة الدراسة في أمريكا واطلعت على عالم الشعر الإنكليزي، ومنذ ذاك الحين تأثر شعرها بالشعر الإنكليزي من حيث البناء والقالب، كما نظمت أشعاراً بالإنكليزية ترجم بعضها إلى الفارسية في مجموعة بعنوان "مذوّ بازدان" أي "مدّ وسواعد"

اتجهت صفارزاده في السبعينات إلى الشعر الديني الذي أصبح سمة غالبية على بعض مجموعاتها مثل "مفرّنج" أي "السفر الخامس" و "بيعت بابيداري" أي:

"مبايعة مع اليقظة" التي تتضمن قطعاً نظمت في السنوات القريبة من الثورة تتجلى فيها روح المعارضة والعقيدة الدينية الكاملة.

وفي المجموعتين "سفرينجم" و "بيعت باييداري" نجد قصائد قيمة تنضوي تحت "أدب المقاومة" مثل "سفر سلمان" و "سروش قم" و "آتش نشان" ونموذج على هذه الأشعار، نقرأ قطعة من قصيدة "سردش قم" أي "ملاك قم" المهداة للإمام الخميني.

تعال

أيها الشفق يا معلم اليقظة

يا قائد معركة الخلاص

جاءت الصحوّة من نداء قم

وتفتّحت البيوت الشبيهة بالقبور

ونفض الإنسان من نوم عميق

سمعت نداء قم<sup>(1)</sup> وقمت

قلت قم فقام الجميع

وأزيع الستار

عن رسم سلسلة الجبابرة

عن رسم الأثرياء المشؤومين

بعد هذه اليقظة لن يكون ليل أبداً

والليل لم يحتو قط يقظة كهذه

أيها الروح المضادة للنوم

يا روح الله العادل

(1) إشارة للآية (قم فأنذر) من سورة المدثر.

أنت السابق لجميع المبارزين  
أنت المبارز الرسول  
في عصر الوسوسة والطمع  
عصر توافق قاتلي البشر  
عصر تواطؤ الطرارين  
المرتشين وطلاب الليل  
في أحلك ليالي التاريخ  
أنت مشرق العالم بأجمعه  
ولا ستارة بينك وبين الشمس

أما اشعار موسى كرمارودي، فكانت نماذج لتجلي الروح المقاومة وفيما يلي  
مقطع من قصيدته، "محبوبة" "تب" أي "محبوبة الليل" التي نجد فيها إحساساً شعرياً  
مقروناً بالمفاهيم الدينية نقلاً عن كتاب "سرود ركبا" أي "نشيد الوابل"

محبوبة الليل <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

قيامتي الصغيرة  
صحوة حضنك  
فيها، أتخلص من كل شيء  
وفي غمرة هذا الخلاص  
سأنتعلق بالله  
قسماً بورق الورد  
أن في امتزاجنا  
لا يوجد شيء سوى الله

اتلونا!

فنحن جزء من آيات الله

عندما تتشابه أيدينا

تعال،

لنقف في صلاة أخرى

انهض!

لنمتزج في الله

سلام على لحظة الوصول

حيث السلام أعلى من العلو

سلام على هذه القداسة

ففي ذاك العراك كان اضطراب ولم يكن:

لحظة امتحاننا القدرة،

وجرياننا، انسديا

كأمواج الرمل، في حرارة عاطفة ساخنة

مثل، أعلى زوبعة ترابية

نلتف حول أنفسنا

وإلى طرف الله ذاك

نرقى إلى الأوج رافعين عباءتنا

قاب قوسين،

أو أدنى

وتلك: سدرة المنتهى

وأنت، يا سيدة الدم

يا من صفانرك نسجت من حرير أسود كالليل  
وحاجباك توازن آيتين مكررتين  
وعيناك:

كتابان سماويان  
من نبي واحد  
شفتاك قطعة من السكر  
وأنفك

استقامة استقرار دائم؛

كيف استقرت عظمة كهذه في رقّة كهذه؟



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

في الصدر نارنج  
وفي اليدين قنبلة يدوية؛  
حضنك ميقاتي

سلام عليك

والله أكبر

سلام على تلك اللحظة العليا

التي يتماوج فيها في داخلي بحر من النجوم

عندها

تحولت رؤوس أصابعي

إكسيرا

وإذا ما غاصت في كومة الرمل

تحول ذهباً مذاباً

من دمانك  
التي رشّشت بها الصحراء..  
في تلك اللحظة الإعصارية  
حيث العالم لا شيء سواك  
وقفت إلى جانب الضياء  
وأنا  
من أعلى أغصانك،  
أرفع قبضتي  
لأقطف من عنقود النجوم حبة  
أو من رداء الله  
ذيل جنة  
عندما تجلّي الإله في النور  
حدّقت عيناى  
والزمان  
جرى فيّ  
بزلال عين الماء وبرودتها  
وقلبي الأرضيّ  
يتوقف  
وقلبي السماوي  
ينبض؛  
كل شيء فيّ يعبر من مرآة النور  
ولا شيء منّي غير انعكاس تجلّي الوحدة



على مرآة الحقّ

يبقى

عندما نلتفتَ معاً

كمنعطفات الغاية

ونسخر الوحدة أيضاً

لأننا أعلى من الوحدة؛

في ذلك الحين

أنا أيضاً،

أصبح بعضاً منك

فخطاب أنا،

إهانة كبرى

لهذه الكلمة

وأنا وأنت،

بعض من الله

فخطاب "نحن" إهانة كبرى

لشمول الله!

وفي العقدين السابقين للثورة الإسلامية نشرت مجموعات من شعر المقاومة تطرح مفاهيم دينية كالجهاد، والشهادة، والقيام، وليلة القدر؛ كما أكد الشعراء على سيرة أشخاص كالإمام الحسين، والإمام عليّ، وأبي ذر وطرحت مفاهيم ثورية مستقاة من أفكار هؤلاء العظماء مما جعل الجناح الديني لشعر المقاومة يبدو هجومياً أكثر من السابق وشيئاً فشيئاً بدأ الشعراء يعرضون عن الرمز والتورية والحذر في طرح رغباتهم الوطنية والقومية، وازدادوا صراحة حتى إن الشعر كان يغدو شعاراً وازداد الحظر من قبل قوى الأمن والنظام ولم يبق مجال لطرح

الأفكار بحرية، فأصبح تداول هذه الأشعار بشكل خطي أو كانت تطبع بشكل سرّي في كتب فائدة لبيانات الطباعة.

وفي النهاية لا بدّ من القول إنّ رغم أنّ الأشعار السابقة للثورة لم تكن تتسم بالطابع الديني، إلاّ أنّها كانت بالاقتراب من السنوات الثورة نتج للمفاهيم الدينية وقد تلاحم المستغربون (المؤيدون للغرب) من الشعراء مع الشعراء الملنزمين بالدين للمبارزة مع النظام البهلوي وفي سبيل المقاومة. وقد اتحد في النهاية أغلب الشعراء غير المتدينين من جبهة المقاومة في مسيرة المبارزة السياسيّة مع النظام الحاكم مع شعب الثورة، وحاولوا جنباً إلى جنب تحقيق أهداف الثورة.

ويمكن لأشعار هؤلاء الشعراء القادمين أن تغني ما يسمّى بأدب الثورة وترفده وتساعد في دراسته وفهمه.



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

# الإبداع الأدبي مقاومة من نوع آخر

■ ترجمة وإعداد : هدى أنتيبا ■

عن الفرنسية

لأنها رافقت الشعوب والعصور ودكت العروش، وصنعت أمجاد الجندي المجهول، تعددت تسعيناتها وتنوعت عناوينها... أتتفت من القاعدة الشعبية حيناً، ومن مراكز القيادة العليا حيناً آخر، لتخوض حرب الجبهات الشائكة، وحروب الشوارع الموحلة، وحروب الريف... مقاومة هي وتجربة استثنائية خارجة عن المألوف حسبما دعتها "الفيغارو الأدبي"، في ملفها الخاص "بأدب المعركة"... تجربة استنفرت من أجلها القوافي والألحان والفنون المسرحية والتشكيلية (لوحة غيرنيكا رائعة بيكاسو)، والفن السابع، ألا يعتبر أدباء المعركة دعاء مقاومة؟؟...

من تجربة بين الحياة والموت شقت طرق الشهادة في سبيل الحرية والتضحية من أجل الوطن والخلاص من العبودية... ارتوت المقاومة بدماء آلاف الفدائيين لتخلد بطولاتهم أعمال الأدباء ويوميات الثوار ومراسلات الصحفيين الحربيين.

في مقالاته الصحفية. وقبل أن يصبح رئيس وزراء بريطانيا وقف "وينستون تشرشل" إلى جانب المجهود الحربي كأسلوب لدعم المقاومة الشعبية في بلاده

خلال الحرب العالمية الثانية... أما الجنرال "ديغول" فتمجد "مذكراته" العمليات الفدائية التي نفذتها خلافاً أنصار المناهضين للنازية، رافعي شعار "فرنسا الحرة"... كذلك الأمر بالنسبة للزعيم الصيني "ماوتسي تونغ" ومسيرته الأطول على دروب التحرير... ولأن المقاومة مواقف — تسلحت تلك التجربة بالثقافة والعلم حيناً، وبثأريد الرأي العام أو إدانته لها في معظم الأحيان... فالمقاومة الفيتنامية على سبيل المثال قد لا تختلف عن شقيقتها الفلسطينية من حيث المبدأ أو الغاية لكن الثانية تتميز من حيث كونها لا تزال ساخنة تنبض بالحياة وبدماء شهداء الأرض المحتلة.. كذلك الأمر بالنسبة لمقاومة المليون شهيد في الجزائر والتي تعاطفت معها مجتمعات العالم الثالث، وتدرج تلك الاعتبارات بالنسبة لتصدي "هانيبعل" للجيش الرومانية أو مقاومة "سبارتاكوس"، لتلك القوات مع إهمال الفارق الزمني بين التأثيرين...

فرغم مناهضتها لجحافل الامبراطورية الغازية إلا أن "سبارتاكوس" (قتل سنة 71 ق.م). اعتنق المقاومة كطريق للخلاص من الرق خلال صموده مع رفاقه العبيد عامين في وجه الرومان في حين حمل الجنرال القرطاجي (انتحر عام 183م)، السلاح للدفاع عن وطنه وقد احتله العدو الغاشم... لكن كيف تنوعت أشكال المقاومة؟...

وماذا أنجب هذا التباين؟...

## خصائص المقاومة

هزّت المقاومة الوجدان الإنساني في مجمل فصولها ومواقفها خلال حروب الأرياف وحروب الأنفاق والجبهات وحروب الشوارع... ولأنها تنشد الحرية والسلام والعدالة استخدمت أدوات "أمناء الحرب" على حد قول "ايرنست يونغر" وبذلت الغالي والرخيص في سبيل الوصول إلى غايتها... وفي كتاب موسوعي صدر حديثاً وعنوانه: "عشرون قرناً من الملاحم"، [مطبعة بلون الباريسية 2001]، يسلط المؤلف المؤرخ "آرتو/ كونت". الأضواء على هوية ونوعية الحروب والمعارك التي عرفت الألفيتان الماضيتان إلى جانب نماذج الأسلحة المعتمدة وكيفية طي الصفحة عصر الحصان والرمح — لتحل الغواصات النووية،

والسدرع الصاروخي، والتجسس عبر الساتلايت (الأقمار الصناعية)، مكانها في معارك الألفية الجديدة... ويرى المؤرخ الكونت أن نوازع الإنسان وتطلعاته نحو الخير والشر وأطماعه وتضحياته لم تتغير عبر التاريخ... فالنزاعات الجندية المجهول شبيهاً بالتزامات "تمشي غيفارا" من حيث التضحية والفداء، أما المستجدات الطارئة في هذا المجال فطالت فنون وأساليب القتال ليس إلا...

الأسلحة على سبيل المثال، تختلف من عصر إلى آخر فهي أيام "روين هود" غيرها أيام "الفرسان الثلاثة".... وقد عرف القوس والنشاب عصرهما الذهبي خلال القرنين الرابع عشر، والخامس عشر، ثم جاءت "الكرات الحديدية" لتدلي بدلواها في ظل حكم لويس الحادي عشر أما البارودة (الموسكية) التي تطلق بفتيلة ملتهبة فقد أطلت إلى السطح عام 1525 والبنديقية عام 1699... لترافق المقاومة أصناف الأسلحة. ولعل أمضى أسلحة العصور الحديثة، الأسلحة الفكرية في مقاومتها الأدبية التي أغنت المكتبة العالمية وتركت بصمات عميقة في هذا الحقل الإبداعي وعلى الصعيد كافة مع انتقال عدواها إلى الفنون الأخرى... فما هي "الفيغارو الأدبي" وفي ملف خاص حول "التعذيب وأساليبه في كتابات الأدباء" تعدد مواقف هؤلاء من المقاومة وتعذيب الثوار - فنقول: "إن مقاومة عدد من الأقلام التقدمية للممارسات التعسفية للغستابو على سبيل المثال، كانت أشد وقعاً من أكثر الأسلحة فتكاً بالإنسان... ألم يتمرد كل من "فولتير" و"هوغو" و"تولستوي" و"موسيه"، و"تولدري"، و"مالارميه"، و"غوركي" و"هيمنغواي"، و"فانون" و"أراغون" و"فوريك"، على أهوال جرائم الملكية أو فظائع المظالم عشية قيام الجمهورية؟!...

ها هو "قرانسوا موريساك" صاحب النوبل لعام 1925 على غرار الأديب المناضل "جورج برنانوس"، يقف إلى جانب الثوار العرب في شمال إفريقيا ليعلم مناهضته للعنف ضد الشعب الجزائري أيام الاستعمار الفرنسي وقد رأى عدد من الكتاب في الحروب الشر المطلق وفي المقاومة الخير والمطر الضروري لإنعاش الأرض...

كما عند "دريولا روشيل" الذي مجد عظمة الإنسان خلال المعارك وزميليه: "مالابارتي" و"مونسترلان"... ولئن "خاض" الإنسان الحروب دون أن يحبها، كما قال: "مالرو" إلا أن المقاومة تظل في عيون القدائي ضرخة حب الوطن والسمو

بالبذات إلى فوق الطبيعة البشرية، وهي حق طبيعي لرد ظلم الإنسان من أخيه الإنسان (الوحش)....

## ملاحم المقاومة

اكتوت عشرات الأقلام بليب حروب شاركت فيها أو عاصرتها أو... لتبدع في تصوير وتمجيد أشكال وأساليب المقاومة الشعبية، أو في استنكارها وإدانها حين تتحول عن هذا الهدف النبيل لتغزو الحروب مجازر وأداة بطش وإبادة جماعية.

هاهو "هيمنغواي" في رائعته "لن نقرع الأجراس" - صدرت عام 1940 وتعتبر حسبما أجمع النقاد من أهم أعماله الأدبية - يحمل البطولة مهمة تحدي المستحيل والصعاب... وهو الذي التزم بالقضايا التقدمية التي عرفها عصره رغم حصوله على جائزة نوبل عام 1954.... لم يتطوع في الصليب الأحمر كسائق سيارة إسعاف خلال حرب إيطاليا، ولم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره؟... جرح خلالها عام 1917، وكاد يفقد حياته على غرار أبطال روايته "وداعاً أيها السلاح" و... ليعمل من ثم مراسلاً حربياً في أوروبا انطلاقاً من عام 1937، وليشارك في المهمات القتالية للقوى الجوية الأمريكية فوق ألمانيا ثم في تحرير باريس إلى جانب الفرقة الفرنسية للدبابات... وتكاد مواقف شخصيات روايات وقصص "ارنست هيمنغواي" القصيرة تشكل إسقاطاً لمسيرة حياته الخاصة...

ففي "لن نقرع الأجراس" ينضم "روبير جوردن" إلى صفوف الجمهوريين الإسبان ليبتلى مهمة شبه مستحيلة تقضي بتفجير جسر استراتيجي على طريق تقدم أنصار "فرانكو"... وفي مغاور الجبال يقوم "روبير" مع مجموعة من الفدائيين بالتدرب على المهمة السرية. ويتزعم هذه الخلية من الثوار القائد "بابلو" وصديقه "بيلاز" التي تحتل رتبة معاونته في اتخاذ القرارات الحاسمة... تشارك هذا الثنائي مجموعة تتألف من "أوغستان" و"فيرناندو" و"رافائيل" (العجري). و"انسلموا" الدليل العجوز والمراهق "اندريس" و"ماريا" التي فقدت كل أسرتها قبل انضمامها إلى المقاومة ليقع "جوردن" في غرامها... قرأت "بيلاز" في كف "روبير" الأمريكي المستطوع نهايته الوشيكة. فاحتمال فشل هجوم أنصار هؤلاء الثوار أي

الجمهوريين كبير جداً، مما يعني اعتماد الفدائيين على أنفسهم لتنفيذ المهمة. وينجح "جوردن" في نصف الجسر لكنه يصاب بجروح تحول دون تمكنه من مغادرة المكان... فيطلب من رفاقه الانصراف بما في ذلك "ماريا" التي ترفض في بادئ الأمر، فما كان منه إلا تهديدهم بالنسف، إن لم ينج كل منهم بحياته، وبظل بمفرده بانتظار مواجهته العدو القادم لقتله...

وأسوة بـ "هيمنغواي" انخرط الأديب الفرنسي "اندريه مالرو" كطيار في الجيش الجمهوري الإسباني، الذي نظم مقاومة شعبية ضد جماعة الجنرال "فرانكو" المنشقة. وليخوض تجربة فدايئة نقل تفاصيلها في روايته "الأمل" وصدرت عام 1937... وتسرّد الرواية مسيرة الجمهوريين الإسبان منذ انتفاضتهم على "فرانكو" 18 تموز 1936. حتى سقوط المقاومة مع فشل الهجوم على "غواد لجارة" في آذار 1937 لتشكل أحداثها يوميات تؤرخ لتلك المرحلة.

ويحمل الجزء الأول من الرواية عنوان "الوهم" ويرسم مشاعر الأخوة المتنامية في صفوف جماهير "برشلونة" و"مدريد" للمطالبة بتغيير جذري للمجتمع يحقق العدالة والكرامة للجميع ويعد "فرانكو" (وبدعمه هتلر وموسوليني)، عن الحكم. ولأن أحداث الحرب الأهلية الإسبانية اعتبرت فاتحة الحرب العالمية الثانية نستوقف عند هذه الرواية التاريخية... يعمل البطل "ثارسيا" في وزارة الدفاع في حين يقوم "مانين" خبير الطيران الفرنسي بالإشراف على تدريب الطيارين الأجانب المتطوعين في صفوف المقاومة للشرعية (لحساب حكومة مدريد الرسمية)، حين تسقط "مليطلة" في أيدي "فرانكو" وعصبته... وتصعق تلك المفاجأة "ينغ" و"تيفوس" و"هيرنانديز" الثوار الفدائيين الذين يخوضون حرب الشوارع جنباً إلى جنب القوات النظامية الحكومية.. فيقتل "هيرنانديز" ويتولى "مانويل" وهو سينمائي ناجح عملية قيادة المقاومة الشعبية خلال معركة "مدريد" و"مانويل" مخرج شيوعي النزعة تسنج فرقته في تحقيق نصر الجمهوريين على القوات التي أرسلها "موسوليني" لمساندة "فرانكو"... لكنه نصر مؤقت... إذ سرعان ما تتمخض الحرب الأهلية الإسبانية بعد عام واحد فقط عام 1938 — عن سحق هؤلاء الثوار وإبادتهم على يد قوات "فرانكو"... ولتتدخل من ثم الحرب العالمية الثانية بعد أشهر قليلة من تلك المعارك الدامية... ولئن افتتح (هيمنغواي) الأسلوب التلغرافي في

الكتابة الروائية إلا أن "مالرو" يعتبر في الرواية "الظروف الإنسانية" عراب التيار الوجودي الذي دشنته كل من "سارتر" و"كامو" ... فيما بعد...

حصلت رواية "اندريه مالرو" تلك جائزة "غونكور" الفرنسية عام 1933 لإثارتها إعجاب اليمين واليسار على حد سواء. جمعت في طروحها البطولة والإنسانية والجمالية الفنية حين تناول الأديب من خلالها الثورة ووحدة الأمة... وتجري أحداثها في "شنغهاي" عام 1927 لتتناول ميثاقية الحياة والموت والتضحية والبطولة والغذاء والالتزام... ويعتبر "مالرو" في "الظروف الإنسانية" عن إعجابه بالزعيم الصيني "شون إن لاي" وجسد تلك الشخصية البطل "كيو" لتغدو المقاومة الوطنية أشرف وأنبأ الأهداف... وتستجيب جمالية البطولة لإيديولوجية العمل القومي وهي الأفكار التي دعت إليها الديغولية و"مالرو" من أشد أنصارها حماساً وعملاً لتجديد المسار الوطني في فرنسا ما بين الحربين العالميتين..

ثم تأتي "المعذبون في الأرض" كأهم أعمال "أدب المقاومة" في النصف الثاني من القرن العشرين وكمرجع المثقفين في العالم الثالث خلال المرحلة المذكورة... ويعتبر هذا العمل آخر كتاب صدر عام 1961 للطبيب النفسي الانتيلي (من جزر الانتيل) "فرانز فانون" (1925 - 1962)، وأحدث ضجة في الأوساط الثقافية في الشمال والجنوب على حد سواء... فمن خلال "المعذبون في الأرض" سمع الرأي العام العالمي صوت الثورة الجزائرية لأول مرة وكانت تحمل لواء حركات التحرر الوطني في الجنوب... انضم "فرانز فانون" لجبهة التحرير الوطني الجزائري منذ انطلاقها ليصور في مؤلفه التظاهرات المناهضة للاستعمار الفرنسي (الفصول الأولى) مع تحول المقاومة الباسلة إلى السبيل الوحيد للحصول على الاستقلال... ويرى "فانون" أن المقاومة مرتبطة بالأرض أي بالطبقة الفلاحية الكادحة التي تعمل في الزراعة... وهي طبقة ثورية بالفطرة تبنت المقاومة لتواجه الفقر وعناصر الطبيعة الغاضبة إلى جانب سعيها للتحرر من العبودية والاستغلال والاستعمار.

وقد امتدح "جان بول سارتر" هذا العمل وكتب له مقدمة مشهورة.



وصنف "المعذبون في الأرض"، كأبرز كتب "أدب المقاومة" منذ "إنجلز" ..

## شهود عيان.

لأن اعترافات شهود العيان من الوثائق التاريخية المعتمدة امتلأت ملاحم "المقاومة الأدبية" بهؤلاء الناطقين بالحقيقة المرة والحلوة والحامضية المذاق.. وقد تباينت آراء النقاد حول مكانة وأهمية شهادات هؤلاء المراقبين الصامتين حيناً المشاركين أحياناً في أعمال البطولة والفداء... فمنهم من وجد أن تسجيلات وانطباعات شهود العيان تستحق التوقف عندها على اعتبار أن صاحبها خاض غمار تجربة غير مألوفة... ومنهم من اعتبرها وثيقة من الدرجة الثانية لكونها ذاتية أكثر منها موضوعية... ومهما يكن من أمر تلك الآراء المتناقضة في معظم الأحيان فإن أمثلة تلك المشاهدات والمعانيات وحدها تستطيع إقناع القارئ بجديتها وعقها أو بسطحياتها وهامشيتها..

ففي رواية "عشرة أيام هزت العالم" للصحفي الأمريكي التقدمي "جون ريد" يسجل الكاتب الأحداث التي عاينها خلال وجوده في "بئرو غراد" تشرين الثاني 1917، يومها تعاطف "ريد" مع البلاشفة لمعايشته تحركاتهم وكتب على طريقة فيلم تصويري وثائقي المستجدات على الساحة الروسية والتي أدت إلى قيام ثورة أكتوبر 1917، كذلك شارك "ريد" بصفته صحفياً وشاهد عيان أعمال المقاومة السوفيتية انطلاقاً من "بئرو غراد" مقاومة وضعت يدها على مراكز الاتصالات السلوكية واللاملكية في المدينة قبل الوصول إلى محطة البلطيق ومن ثم التوجه إلى القصر الشتوي لقياصرة روسيا. ويتوقف هذا الكتاب الوثائقي التسجيلي — الحدث عند المواجهات الدامية بين الثوار السوفييت الذي رفعوا شعار "المقاومة حتى النصر" وبين أنصار القيصر المنقسمين على أنفسهم.

... ويتابع من ثم "ريد" تصوير المحطة القادمة للمقاومة وقد تحولت إلى لجان شعبية مع انضمام العمال الذين خرجوا من مصانعهم إليها (المقاومة) بهدف الدفاع عن مدينتهم. وعلى غرار "جون ريد" قام "اندرية ماندوز" — وهو أستاذ في جامعة السوربون اليوم شارك خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر بمجلة "دفاتر" (المقاومة) — بكتابة مذكراته حول تلك المرحلة، وصدرت عام 1999 في

## المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي...

شكل "ماندوز" مع "موريك" أهم الأصوات الأدبية المسيحية — كما تدعوهم الصحافة الأوروبية — المناهضة للممارسات التعسفية للقوات الفرنسية في الجزائر... وفي مقابلة أجرتها معه "الفيغارو الأدبي" بتاريخ 31/أيار/2001 تكلم "ماندوز" عن انخراطه في صفوف المقاومة الجزائرية قائلاً: "أعلنت حفنة من الأدباء التقدميين وكانت غالبيتهم تعمل في الصحافة إلى جانب نشرها الروايات والمسرحيات على غرار "فرانسوا" "موريك" و"كلود بوردي" مناهضتها لأساليب التعذيب التي استخدمتها القوات الفرنسية لقمع انتفاضة الشعب الجزائري والشبيهة بأعمال الغيستابو... يومها انتقلنا من مقاومة إلى أخرى. من مقاومة المنصرية الهنترية إلى مقارعة الاستعمار... وقد وجدنا في كل منهما رفضاً للإخاء المسيحي بشكل خاص وانتهاكاً لحقوق الإنسان بشكل عام... فهي هو "موريك" يقف في أعماله والتزاماته قبل عام 1954 إلى جانب المجاهدين الجزائريين برفقة صديقه "روبير بارات" خلال زيارتهما لمخيمات المقاومة الجزائرية كذلك الأمر بالنسبة "جورج بيرنابوس"، الذي ندد بالعنف السياسي الفرنسي في الجزائر المحتلة... وقد نشرنا عدة كتابات ومقالات لهؤلاء الأدباء حظرت طباعتها علناً ويتابع "اندريه ماندوز" لقد عشت في الجزائر (16 عاماً)، وشاركت حياة هذا الشعب العربي عن كثب... وأستطيع القول إن المظالم التي ارتكبت بحق الجزائريين مجحفة ويندى لها جبين الإنسانية، أما بالنسبة للمثقفين الفرنسيين الذين هاجموا "موليه" و"قيشي" وأنصارهما فقد تم إعدامهم... فعلى سبيل المثال: "أودان" تمت تصفيته "واللينغ" تم تعذيبه حتى الموت... ولم يسلم عدد من رجالاات الدين المسيحي الذين استنكروا ممارسات القوات الفرنسية في الجزائر من الأذى... ألم يطلق أعداء آلومونسيبور "دوفال" — وهو أول من ندد بالتعذيب الجسدي الذي يتعرض له رجال المقاومة الجزائرية — على هذا الأسقف لقب "محمود دوفال"؟... ومن الأدباء شهود العيان الذين قالوا لا للاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا نذكر على سبيل المثال: "فرانسوا موريك" أشهر الروائيين في الخمسينيات من القرن العشرين والذي رمى جانباً جائزة نوبل التي حصل عليها ليفضح الممارسات العسكرية الاستعمارية في المغرب العربي... ولكم أثارت مقالاته الهجومية غضب

السلطات في باريس التي شعرت بتعريضه لفضاحتها واستنكار الرأي العام الأوروبي لشرعيتها آنذاك... أما "جورج برنانوس" (1888 — 1948) فقد دعي بحق "معرض الشعب الفرنسي على المقاومة"... كذلك الأمر بالنسبة لكل من "مالرو" و"كامو" و"سايين" صاحب الرواية المعروفة "السفر إلى آخر الليل" وصدرت عام 1932... هذا ولا تزال حرب التحرير الجزائرية مثار اهتمام المثقفين عبر شاطئي المتوسط لدرجة أن أضخم تظاهرة ثقافية حول هذا الموضوع نظمت في مدينة "مونبلييه" بتاريخ (2001/12/11) في نادي الصحافة... وتناولت "حرب الجزائر" واستقطبت كبار الأدباء والفنانين ونقلت وقائعها مجلة "اللموند ديبلوماتيك"... في التاريخ المذكور.

### كاميكازي المقاومة

أعلام المقاومة أكبر من أن تصنفهم إحصاءات رسمية أو سجلات حكومية، إنهم ملائكة البطولة وصانعو المعجزات والمستحيات... قد تشبه طفولتهم طفولة أي إنسان آخر لكن إنجازاتهم خارجة عن الطبيعة لا يمكن تصديقها أحياناً إلا بصعوبة... فالعمل الفدائي والتضحية في نظر هؤلاء "الكاميكازي" لا يميز بين آدم وخواء... وهاهي القصة الحقيقية لإحدى "بطلات الظل" وقد تحولت على يد "لوران غوفران" إلى رواية عنوانها "الأميرة المنسية" صدرت عن دار لاقون 2002، استخرج غوفران من أرشيف الحرب العالمية الثانية (مكتبة أسرار الدفاع في وزارة الدفاع الفرنسية) الملف الخاص بإحدى فدايات تلك الحرب الكونية، ولينسج حوله رواية غاية في الواقعية. ويعمل "لوران غوفران" مدير تحرير مجلة "النوفيل أوبسرفاتور" وهو أديب وصحفي فرنسي يماري وتسلط الرواية الضوء على حياة الفدائية "تور عناية شان" الأميرة الوبدية الحسنة التي انخرطت في المقاومة "الفرنكوبوسانية" جناح العمليات الاستشهادية ورمزها SOE... اختبرته "تور" الموسيقى والعزف على الطنبور والعود الهندي والبيانو والكمكان إلى جانب تستعها بجمال فائق، انضمت إلى "جيش الظل" كما تدعى تلك المقاومة — ولأن ديانتها تحظر عليها القتل. لم تستخدم "عناية شان" السلاح قط واكتفت بالقيام بدور "الراديو" أو عملية الاتصال بين الخلايا... وحملت اسماً مستعاراً "الفجر"...

تم إنزالها بالمظلة فوق الأراضي الفرنسية لتمهد الطريق أمام نزول قوات الحلفاء في النورماندي يوم السادس من حزيران 1944...

أخذ "لوران غوفران" هذه القصة الواقعية ليصنع منها روايته المشوقة المنججة بالحب والمقاومة والفداء... يسرد على لسان الراوي وهو من الثوار الإنكليز أحداثاً جرت عام 1943 فوق الأراضي الفرنسية، من خلال قيامه مع زميلته الأميرة "فجر" بتنفيذ مهمة فدائية سرية لصالح المقاومة الفرنسية...

كما ويتناول مطاردة النازيين لتلك الخلية في شبكة SOE وكيفية اغتيال أفرادها وتعرضه شخصياً للتعذيب، واتهامه بالتخريب من قبل "الغستابو" ثم محاولة "فجر" تهريبه فوقوعها في حبه وفشلها في عملية إنقاذه وموتها خلا عملية استشهادية مشتركة...

وعلى غرار SOE انطلقت "ريمي" وهي شبكة المقاومة الفرنسية المناهضة للنازية اعتباراً من حزيران 1944، لتتلف حولها عناصر تنتمي لمختلف الأحزاب السياسية والفصائل الشعبية... ويأتي الكتاب الوثيقة "ريمي العميل السري رقم 1 لفرنسا الحرة"، تأليف: "غي بيريه" إصدار دار النشر "بيزن" لعام 2002، ليكشف وجهاً آخر من أوجه البطولة خلال الحرب العالمية الثانية كما عاشها أحد فدائيي الظل وهو صاحب هذا العمل الأدبي... يقول الأديب: "غي بيريه" وكان أصغر أفراد شبكة "ريمي" قبل ستين سنة من الآن: "تنتمي ريمي قلباً وقالباً لأنصار ديغول... تركت بصماتها في الجبهة الداخلية للمقاومة بين تشرين الثاني من عام 1940 وأيلول 1944، حين نجحت في تنفيذ 3600 عملية استشهادية ذهب ضحيتها 1540 فدائياً وفدائية وألفت الغيستابو خلالها القبض على (537) عنصراً في حين ارتفع عدد الذين تم اغتيالهم إلى (487) شهيداً... توزعت أعمال هؤلاء الأبطال بين الدعاية المناهضة للنازية في مرحلة شهدت غسيل أدمغة الشارع الفرنسي من قبل الألمان وبين العمل السياسي وقامت به شبكات "نوتردام" و"ريمي" و.... التي اهتمت بجمع المعلومات وتفجير مراكز قيادة العدو ومطاردة قواته إضافة لتجنيد المواطنين المخلصين... ونجحت تلك المقاومة في نقل المعلومات إلى لندن خاصة بالنسبة لتحركات الغواصات الألمانية في بحر الشمال...

وكان دور "ريمي" حاسماً في معركة الأطلسي كما ذكر "غي بيريه" وفي الإغارة على الرادار الألماني المنسوب في "برونيفال" (شباط 1942)...

ورغم انتماء "ريمي" للحزب الديغولي إلا أنها ساهمت باعتبارها حركة مقاومة في تمويل الشيوعيين بالأسلحة، وتقديم المعلومات لهم فانضموا إلى صفوفها.. وتمكنت من إرسال أول موفد لهذا الحزب إلى لندن حيث مركز قيادة ديغول عام 1943.. شارك "بيريه" في معارك باريس قبيل وبعد التحرير ليعمل على توحيد الصفوف الشعبية داخل البلاد بعيد سقوط "فيشي" و"بيتان" وأتباعهما.

أما "غياب" القائد الفيتنامي الكبير الذي خاض مع المقاومة الشعبية معركة البطولة "ديان بيان فو" فاشهر من أن يعرف... استطاع هذا الزعيم الثوري وضع حد لأول حرب في الهند الصينية خلال العصر الحديث. وذلك خلال تلك المعركة التي تعتبر رمزا لحروب المقاومة... رمزاً أكد أن النصر حليف الفدائيين الذين يتمتعون بتأييد الجماهير لهم.. فقد جندت معركة "ديان بيان فو" (موقع قرب الحدود اللاوسية الفيتنامية وجرت بين 13 آذار و7 أيار 1954). منات الاستشهاديين من أبناء شعب فيتنام البطل الذي سارع لتلبية نداء "غياب" وتقديم الثوار والفدائيين لخدمة الوطن... وقد تصدت تلك القوافل من الشهداء لمظلي الجيش الفرنسي المحتل من خلال نقل قوات "غياب" المعدات العسكرية على ظهر المندنيين (75000) والمواطنين الذين قاموا بحفر ممرات جوفية تحت الغابة المجاورة لـ"ديان بيان فو"، حملت لهم النصر على العدو.. وقد وردت تفاصيل تلك العمليات في مذكرات "غياب" المشهورة... كذلك ساهمت "الألوية الدولية" وضمت (35000) متطوع من 53 دولة — في التصدي للفاشية خلال الأعوام (1939 — 1945). من خلال تنظيم أعمال مقاومة بطولية... ومن أبرز أعلامها "جوزيف بروس تيتو" الرئيس الأسبق ليوغسلافيا الموحدة وسيرته الذاتية غنية عن التعريف.

هذا وتتميز "حرب الريف" من حيث تمثيلها للمقاومة المغربية المناهضة للاستعمار في العشرينات من القرن الماضي.. قادها الزعيم العربي "محمد بن عبد الكريم الخطابي" (1882 — 1963)، وتناولها عدة أعمال لمؤرخين مغاربة وفرنسيين اليوم.. دعيت "مقاومة الريف" لأنها استمرت خمس سنوات في منطقة

وفرنسيين اليوم.. دعيت "مقاومة الريف" لأنها استمرت خمس سنوات في منطقة الأرياف المغربية وتمكنت من دحر الإسبان بين الأعوام 1921 و1925 عن تلك المواقع المعبأة بالثورة والتضحية والفداء..

### المقاومة والسلم

ولأن للمقاومة هدفاً نبيلاً يتلخص في إزالة الغبن عن المجتمع وتحقيق الحرية لأفراده ونشر السلام في أرجاء الوطن.. جاءت أعمال عشرات الأدباء تدعو لمتابعة المسير حتى بلوغ تلك الغاية المنشودة.. و ترجم راتعة "ثورمان ميللر" وعنوانها "جيوش الظلام" الصادرة عام 1968 نزعة الإنسان التاريخية للوصول إلى هذا الهدف إلى جانب توفيق دعاة السلم بين الأدباء والمفكرين لتحقيقه... ويسجل "ميللر" في هذه الرواية انطباعاته الشخصية حول تداعيات حرب فيتنام أواخر تشرين الأول عام 1967، حين قامت التظاهرات الأمريكية في شوارع المدن الكبرى تتدد بتلك الحرب، ورأت فيها واشنطن مقاومة داخلية لسياستها الخارجية... فخلال يومي 21 و22 أكتوبر اتجهت المسيرات الشعبية إلى البنغازين يتزعمها ممثلو حركة اليسار الأمريكي وشملت أساتذة جامعات ومتقنين وصحفيين وقيادات زنجية ونساء تقدميات... ولم يتردد المتظاهرون في مواجهة رجال الشرطة بأجسادهم وأيديهم لينتهي بهم المطاف إلى السجن وبرفقتهم "ثورمان ميللر"، الذي زج خلال أسبوع وراء القضبان... ويكشف الأديب الأمريكي في هذه الرواية الطريقة التي يساق فيها الإنسان إلى حرب لا يفهمها ولا يريدتها أو يقرأها.. ويستوقف الكاتب عند دوافع قيام "المجمع الصناعي العسكري" الذي لا شأن له سوى زيادة التسلح، بتقصيد حمى الحروب في أرجاء العالم، وتأجيج بسور التوتر في المناطق الساخنة. فالمجمع الصناعي العسكري ناهضته تظاهرات 1967 - وهي مقاومة شعبية شعبية تعتمد اللا عنف كسلاح للتعبير - ولا يزال يجد في الحروب سبباً لوجوده...

أما مقاومة "العولمة" ذات الطابع السلمي فقد اتخذت وجه الإبداع الثقافي في تصديها لطاحونة "الآلة التكنو - اقتصادية" كما قال "روجيه ليغار" (المؤرخ وأستاذ الجامعة ورئيس لجنة التعليم العالي في باريس)، وقد وجد "ليغار" في تلك

ديبلماتيك – (كانون الأول 2001): هل تحمل "منظمة التجارة العالمية" في جعبتها العولمة أم الاستعمار الجديد؟ فمنظمة التجارة العالمية اليوم أداة العولمة في الترويج للمركزية الإنسية، انطلاقاً من مقولة: "ثقافتني أفضل من ثقافتك لذلك سأفرضها عليك بالقوة"...

ثقافة الكوكاكولا، والجييز، والميكروسوفت، والانترنت، والساتلايت التي أغرقت العالم بصور لا ذاكرة لها وتموت بمجرد بثها... أنجبت تلك الثقافة استعماراً مألوفاً يعمل وفق مبادئ التمييز العنصري والتطهير العرقي الخ...

وفي هذا السياق جاء كتاب "مودبارلو وتوني كلارك"، وعنوانه: "معركة سيائل" دار فاريا للنشر 2002، والذي لا يعتبر سرداً لتظاهرات "سيائل" (كانون الأول 1999)، بقدر ما يترجم المقاومة الجماهيرية للعولمة التسويقية.

أو بتعبير آخر المجتمعات المدنية في مواجهة العولمة الاستهلاكية... وتأتي أهمية هذا المؤلف وعرضته اللومند ديبلماتيك في عدد تموز 2002، من حيث أنه يعطي صورة حية لحركة مناهضة، ومقاومة الرأي العام العالمي لتلك العولمة... مقاومة سلمية انطلقت من الهند عام 1980. تتدخل الشركات المتعددة الجنسية في قضايا الغذاء العالمي والشؤون الثقافية في العالم كحق الملكية الفردية وحروب المياه ومشاكل البيئة و....

ليظل السؤال: إلى أين تتجه التظاهرات الشعبية المناهضة للعولمة!؟

ولماذا تحولت إلى مقاومة جديدة لهذا الاستعمار الثقافي القديم – الحديث؟...

هل لأن الآلة التكنو – اقتصادية والعولمة الاستهلاكية التسويقية ترفع شعار:

"الغاية تبرر الوسيلة"، في كل شيء؟ أم؟



### \*المراجع:

- الفيجارو الأدبي 2001/10/25، (ملف).
- الفيجارو الأدبي 2001/5/31، الدفتر الثالث.
- اللموند ديبلوماتيك عند كانون الأول 2001.
- ملحق الفيجارو الأدبي 2001/10/4.
- اللموند ديبلوماتيك عند تموز 2002.
- معجم "أحداث القرن العشرين"... مطابع "الجيب" الفرنسية 1980.
- معجم "مؤلفات الأدب الأمريكي" دار لاروس 1990.
- معجم "مؤلفات الأدب الفرنسي" دار لاروس 1990.



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>



# كتاب فرنسيون مقاومون (نصوص فرنسية)

■ ترجمة : زياد العودة ■

عن الفرنسية

في كانون الثاني لعام 1940، يتناهى إلينا، في فيلنوف "خبر موت سان - بول رو، شاعر "مذابح الطوائف (الزيتاح)".  
حضرت "سيدة المنجل" (الموت) إلى مشفى بريت، بعد ستة أشهر من الاعتداء على ابنة الشاعر العجوز، ذيقين، وبعد اغتيال خادمتيهما على يد جندي ألماني في قصير كويسيليان الريفي. فيكتب أراغون، بناءً على طلب من سيغير وقبل أن يغادر فيلنوف إلى بنس، يكتب دفعةً واحدة، ومن غير أن يشطب شيئاً، عشر صفحات ثلثية يضع عنواناً لها هو:

"سان-بول رو أو الأمل". وقد نشرت في العدد الثاني (فيما بين كانون الأول 1940- وكانون الثاني 1941) من مجلة شعر 41: 41 Poésie وتزينها صورة جميلة لسان بول رو كان قد أوصلها إلينا جان دونويل. فيعمل مقص الرقابة، فلا يقتطع ما كتب أراغون، بل قصيدة سان-بول رو. ويُستبدل بجزء من نص الشاعر، مساحة بيضاء (فارغة) يظهر عليها التعبير "حذفت الرقابة". فماذا كان سان بول رو وأراغون يقولان، ولم يكن يوسع المراقبين أن يدعوه يمر؟

مضى الرعاة للصغار ذوو الشوارب السمراء رعاة القرية الصغيرة التي  
لوجوه بنات المعمودية فيها شحوب ضوء القمر، ولأسلافها لون حجر الجلجلة.  
لقد مضوا على وقع حمار ميت يصطدم به سكير بقوة، لقد ذهبوا إلى هناك،  
إلى الحدود، أولئك الصغار.

وكانت والدة والدتهم تصرخ بهم، حين مرت:

-على عتبة اليم الذي يفصل بلدنا، رأيت الريش الهمجي يظهر من على  
قبعات كبار شاربى البيرة ذوي الشوارب الشقراء، أه يا صغاري للطفاء! إن  
القليل من موتكم سوف يحافظ على حياتي.

وكانوا يجيبون:

-ها آنذا، يا وطني!

كل ذي شارب أسمر، يحتسي شراب التفاح في الضيعة اللطيفة التي لبنات  
المعمودية فيها شحوب ضوء القمر، ولأسلاف لون حجر الجلجلة.

(...) وعلى أية حال، فهذا المتراس الهائل من الجثث كان عليه أن يحمي  
إلى الأبد الوطن الأسمر من الوطن الأشقر.

لئن قرأت الرقابة وفهمت، وأخفت "الوطن الأشقر" بالتمارض مع "الوطن  
الأسمر" وطن سان-بول رو الفائق الشفافية ("سمراء" و"شقراء" فالمراقبون هم  
شاربو بيرة، وقد فهموا ذلك..)، لقد أغفلت الرقابة تلك السطور، سطور أراغون  
وتركتها تمر في موضع آخر أبعد، بيد أنها أصبحت معلنة مع ذلك في نهاية عام  
1940:

"إن الجراح الخفية لوطني هي الجراح الأعرق، وهي التي لا يتكلمون عنها.  
لقد أنكرت عذاباتها. وشهداؤها الذين لا يمكن تبجيلهم إلا في القلب. هؤلاء الأبطال  
الذين ذات يوم، ذات يوم، سوت نقيل خطاهم..."

## مقاومة ماذا؟ تدقيقات

من هم، أو من سيكون، الأبطال للذين يذكرهم أراغون في نهاية عام 1940؟  
ففي باريس، ثلاثمئة عضو في الحزب الشيوعي قد جرى توقيفهم، في الخامس من

تشرين الأول لعام 1940، على يد الشرطة الفرنسية، وكذلك قادة نقابيون. وفي الريف، سجن قادة الشرطة المناضلين المعروفين علناً (المناضلين العائنين).

إن الهدف الأول للألمان وحكومة فيشي هو ملاحقة الشيوعيين حتى الموت. ولمسوف يجري اختيار الرهائن حالاً من بين السجناء السياسيين. أما القوائم التي يعدها فرنسيون، فلسوف تعين أولئك الذين سيعدمون: بالمقصلة، أو الشنق، أو أمام فصيل الإعدام.

بإلها من أفاق قائمة، إن كل شيء أسود. فحين أقام الألمان في باريس، احتلوا القطاع الشمالي وضبطوه، وهو ذلك القطاع الذي يقع شمال خط يمر بجس دول وشارول، وفيرزون، ولوش، وريبراك، ومون دون - مارسان، ومان - جان - بيه دويور.

وفي القطاعين الشمالي والشرقي تسع محافظات أصبحت تشكل "القطاع المحظور". أما الأكراس فقد جرى إلحاقها بكل بساطة.

لقد أخفق الألمان في لندن. أما أوروبا أوروبياً كلها، باستثناء سويسرا، والسويد، فأصبحت تخصصهم. إن فيشي وبيتان ولافل يساعدونهم. وثمة ألوية خاصة (B.S) قد أنشئت ضد المقاومين.

## نهاية عام 1940 - المقاومة تبحث عن نفسها

### في خريف عام 1940.

جان غينيهينو، الأستاذ الجامعي، ورئيس تحرير دورية "أوروبا" حتى عام 1936، ومدير الأسبوعية فاندرودي (الجمعة) والكاتب المعروف إلى حد كبير، والمناضل السلمي، هو أحد الأوائل الذين اتخذوا موقفاً ضد روح الخضوع، التي تتوي فيشي فرضها على الفرنسيين وبعد خطاب بيتان، بعد الهدنة، يرفض التنازل عن رأيه. فأراه في تلاميذ معاهد louis le grand و henri iv و Stra sbourg إلى كليرمان فيران التني ينغي لغينيهينو أن يذهب إليها ويلقي محاضرات فيها. لقد كان عضواً سابقاً في "لجنة المفكرين المناهضين للغاشية" مع فالتر - وريفيه ولانجوفان، وصديقاً لبولان وجان بلانزا، وهو قريب من أولئك

الذين أسسوا في باريس، المجموعة الأولى مجموعة "متحف الإنسان" وأصبح فيما بعد، أحد الذين صنعوا "الأدب الفرنسية" المترية، بعد أن اصدر من بين الأوائل، وبين عامي 1940-1941، نشرتين مغفلتين من اسم المؤلف "رسالة إلى الفرنسيين" وقد أتبعها بعد قليل بـ "رسالة إلى الشبان الفرنسيين" وزعت سرًا.

ومن أيلول 1940 حتى تحرير باريس، في رقم 5 ساحة سان ميشيل، انعقد في قلب العاصمة مركز سري غريب، هو مركز جماعة "الثبات" فلقد اجتمع ا. روزيه، الأمين العام للجنة العليا للأعمال التي تجري لصالح الشبيبة المدرسية والجامعية، وكلود بيلانجيه، الصحفي ومدير مركز مساعدة الطلاب المعنيين للخدمة والسجناء، وفرانسوا دولسكور، الأمين العام لاتحاد طلبة فرنسا، وفيليكس روشيه، وكيل الدعاوي، وجان كريبير، المحامي في محكمة الاستئناف في باريس، لقد اجتمعوا ليعبروا عن رغبتهم في النضال ضد النازيين وفيشي. واشترك في اجتماعات النواة الأولى، منذ البداية، جورج جاماتي، معاون مدير البحث العلمي.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>